الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلـمي

جامعة منتوري- قسنطينة- .... رقم التسجيل :

كلّية الآداب واللغات .... الرقم التسلسلي:

قسم اللغة العربية

موضوع البحث:

مدينة قسنطينة في أدب الرَّحلات

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الآداب-شعبة أدب الرحلات-

إعداد الطــالب
إشراف الدكتـــور
بورايو عبد الحفيظ
حمادي عبد الله

أعضاء لجنة المناقشة

	الأستــاذ		الجـــامعة
01	....	رئيـــــــــــــسا	....
02	....	**مشـــرفا ومقـررا**	....
03	....	عضوا مناقـــــــشا	....
04	....	عضوا مناقـــــــشا	....

السنة الجامعية **2007 /2008**.

بسم الله الرحمن الرحيم

اهداء

إلى قسنطينة الجميلة ،قلعة الحب والصمود الجاثمة
على هامةالصخر العتيق...الهاربة فوق أكتاف السحاب .
إلى والديا الكريمين اللذين رعياني صغيرا وكبيرا
إلى أم بشرى التي كانت لي نعم المعين ونعم المشجع
ساعة ينتابني السأم.
إلى بشرى التي كانت دوما تقول لي- وكأنهاتبعث
في روحي المنكسرة جذوة الأمل(متى تنهي عملك ياأبي؟) .

مع أخلص تحياتي

المقدمة

المقدمة

عندماقرأت وصف الرحالة الفرنسيLouis Bertrand الذي زارمدينة قسنطينة سـنة 1933م ووصفها في كتابه (إفريقيا) Africa: «لا تتكلم عن المدن المثيرة للإعجاب ما دمت لم تر قسنطينة وهي مشدودة إلى جانبي وادي الرمال بين جسر سيدي راشد الحجري العملاق والجسر الضيق الممتد على الهوة المثيرة للدوار، محاطة بالمرتفعات الخضراء...قسنطينة أشبه ما تكون ببناء أنشأه فنان على بطاقة بريدية ..».[1] انتابني شعور غريب أشبه بذلك الذي ينتابني كلماعبرت أزقة المدينة أوشوارعها وساحاتهاإذفي كل خطوة، في كل التفاتة وفي كل نفس يتسلل إلى كياني كله عبق صارخ، لم أجد له من تفسير سوى شعوري بالزهو والعجب والخيلاء بالإنتساب إلى هذه المدينة التي ألهبت المشاعروألهمت المبدعين من الأدباء والشعراء والرسّامين فشدُّوا إليها الرحال عربا وأجانب من كل فج عميق، بل وكانت على مرّ الأزمنة والعصور مَنشِدَ الساسة والغزاة الطامعين الذين يصدق فيهم قول أبي الطيب المتنبي:

وكم ذا يدّعي وصلا بليلى   وليلى لا تقرّ لهم بذاك؟ !

فما لانت ولا هانت وظلت رغم الداء والأعداء، كالنسر فوق القمّة الشمّاء..ظلت قسنطينة

تَحْكِي العَرُوسَةَ في حُلْيٍ وَفِي حُلَلٍ   عَلَى الأَرِيكَةِفِي نَسْقٍ وَتَنْضِـيدِ

كَـدُرّةٍ فِي سَنَامِ الطَّوْدِ لاَمِـعَةٍ   أَوْ زَهْرَةٍغَضَّـةٍفِي بَاقَـةِ العِـيدِ

مَرَّتْ عُصُـورٌ وَمَا زَالَتْ بِبَهْجَتِهَا   خُضْرُ الحَدَائِقِ أوْحُمْرُ القَرَامَـيدِ[2]

وانطلاقا من هذا الإحساس العذب الجميل وجدتني مسكونا بالمدينة، مهوسا بالرحيل عبر الزمان والكان مستهديا، بعبق التاريخ المتسلل إليهاعبرباب القنطرة وباب الوادي وباب الجابية...و المنساب بين أزقة رحبة الصوف ورحبة الجمال والسويقة وسيدي جليس والقصبة وسوق الغزل... ،والمتسابق مع مياه وادي الرمال الخالد عبر خوانقه في رحلته الأبدية...**لذلك**

ارتأيت أن يكون موضوع مذكرة الماجستير حول هذه المدينة في إطار أدب الرحلات **(مدينة قسنطينة في أدب الرحلات).**

وحين أعلنت موضوع بحثي عاب عليّ بعض معارفي اختياري هذا وحجتهم في ذلك كون الموضوع لا يزال بكرا لم يحظ بدراسات مستقلةجادة،وكون ميدان أدب الرحلات لا يحظى في

- [1] - **Louis Bertrand.Africa 1933 .p147**

- [2] - **أحمد الغوالمي، ديوان ص،206-207**

بلادنابالعناية الكافية،أضف إلى ذلك ندرة المصادروالمراجع التي تتناول مدينة قسنطينة غير أني ما كدت أشرع في البحث حتى بدأت أدرك ثراء مادة أدب الرحلات وتنوعها .كمالفت انتباهي عدد من الكتابات القيمة -وإن كانت قليلةمحتشمة-حول المدينة ككتاب((أم الحواضرفي الماضي والحاضر)) لصاحبه محمد المهدي بن علي شغيب، و((نفح الأزهار عما في قسنطيتة من الأخبار))، لسليمان الصيد. و((مدينة قسنطينة)) لمحمد الهادي لعروق وعبد العزيز فيلالي. و((تاريخ حاضرة قسنطينة)) للحاج أحمد بن المبارك العطار وآخرين غيرهم.

لايخفى أن كتّاب العرب درجوا على استخدام عبارة **أدب الرحلات** للإشارة إلى كتابات الرحّالة العرب والأجانب التي بصفون فيها البلاد والأقوام والتي يذكرون فيها أحداث تجوالهم ودوافع رحلاتهم وما فد يصادف ذلك من بلورة انطباعات شخصية أو اصدار أحكام تقويمية لما شاهدوه وما سمعوه. ونظرا لارتقاء الوصف في كثير من أعمال الرحالة وبلوغه حدا كبيرا من الدقة، علاوة على الأسلوب القصصي السلس المشرق، أُدخِلت أدبياتُ الرحلة ضمن فنون الأدب العربي وأصبحت قراءة أدب الرحلات متعة ذهنية كبرى ومصدرا لوصف الثقافات الإنسانية ورصد بعض جوانب حياة الناس اليومية في مجتمع معين وخلال فترة زمنية محددة.

إن الإجحاف الذي لمسته في حق أدب الرحلات ببلادنا شجّعني أكثر على الإهتمام بهذا الفن ونّمى لديّ رغبة جامحة في خوض غماره مادة وقضابا وغذّى لديّ حرصا شديدا على استنطاق النصوص الرحلية علهّا تجود بـــمـــا تكتّم ّعليه صخر قسنطينة العتيق.

ولإبراز هذا العمل كان عليّ أن أحتمل المعاناة في جمع المادة الموزّع معظمها في مصادر ومراجع عزيز منالها. ولقد ضاعف من إحساسي بالمعاناة ندرة المصادر والمراجع كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فجمع المادة تطلب مني جهدا كبيرا، كما تطلب إعدادها وتصنيفها ثم

دراستها **وترجمة جل مصادر الفصل الثالث الأجنبية** جهدا آخر في ظروف صعبة هي في أيسر أحوالها ضرب من النضال الضاري والتضحية الجسيمة، وكان عليّ أن أقدّم **قسنطينة** سعيدا راضيا فهان في سبيل هذا الهدف كل صعب، وماذلك إلا بالعزيمة الصلبة والصبر الصبور.

ولقد سلكت في هذا البحث منهجا تاريخيا تحليليا نقديا منطلقا من الرحلات الأساسية الهامة (أكثر من عشرين رحلة (20))لتحديد الاتجاهات في رحلات الرحالة والقضايا التي انعكست من انطبعاتهم على أقلامهم فقسمته إلى ثلاثة فصول مسبوقة بمدخل بعد هذه المقدمة.

فأما المدخل فتناولت فيه مفهوم المدينة بصفة عامة والعربية بصفة خاصة متطرقا إلى العرب وحظهم من التمدّن وخصائص مدنهم العربية الاسلامية وملامحها الأساسية التي تميّزها عن المدينة الغربية في كثير من الأحيان، وكيف أن العرب عرفوا حياة المدن (وهو ما حاول كثير من الأجانب نفيه عنهم)، لأخلص في نهاية المدخل إلى الحديث عن عوامل نمو المدن وعوامل زوالها، وكل هذا محاولة منيّ إلى الوصول إلى غاية أسمى في بحثي وهي أن مدينة قسنطينة مدينة عربية من كبريات المدن العريقة في العالم بكل المقاييس – وإن أنكر المرجفون، وشكك المشككون- حتى وإن كانت لها جذور غير عربية**...!**

وفي **الفصل الأول** تحدثت **عن المدينة العربية في أدب الرحلات**، ولقد تناولت عددا معتبرا من المدن العربية العتيقة العريقة وما جاء حولها من أوصاف وحقائق و مشاهدات لعدد من الرحّالة العرب والأجانب الذين حطوا بها الرحال عابرين أو زائرين أو مقيمين**...**

ولقد كان لكل منهم عينه التي ينظربها إلى هذه المدينة أو تلك مزيحين الستار عن الحياة بهذه المدن من شتىّ مناحيها مؤكدين أن العرب عرفوا حياة المدن والتمدين قبل كثير من الأمم.

وفي **الفصل الثاني** قدّمت استهلالا تحدثتُ فيه عن أصل تسمية مدينة قسنطينة وأهم محطاتها التاريخية الكبرى **ثم ركّزت** على موضوع بحثي وهو **مدينة قسنطينة في أدب الرحلات**

من خلال إحدى عشرة (11) رحلة عربية تتبعتها كرونولوجيا بدءً برحلة الإدريسي ((نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)) في القرن 6هـ**/**12م وانتهاء برحلات ثلاث تونسية في العهد الإستعماري الفرنسي محاولا الوقوف على أوضاع المدينة وأهلها عبر أزمنتها المختلفة، ومدى تطابق وجهات نظر الرحالين واختلافها.

وفي الفصل الثالث والأخير مهدت بتمهيد قصير عن دوافع الرحلة الأجنبية للبلاد العربية وتناولت بالحديث **مدينة قسنطينة في الرحلات الغربية** (الأجنبية) من خلال ثماني (08) رحلات جلها تصور المدينة خلال العصرين (التركي) والاستعماري الفرنسي محاولا من خلالها ابراز وجهات نظرهم التي تكاد تكون صورا مكررة، لذلك لجأت إلى الإنتقاء، ثم اتبعت الفصول الثلاثة بخاتمة أجملت فيها بعض ما تفرق من شتات النتائج والآراء والتي لا أزعم لها كثيرا من الصواب بعد الدراسة والتحليل، ثم أردفتها بفهارس المصادر والمراجع التي كانت سندي المباشر الذي لا يبرح غرفتي، وأدليت ببعضها لأنها تأبى التخفي، وسكتُّ عن الأخرى لامتزاجها بي وامتزاجي بها حتى ليصعب تمييزها عن كياني**!**

وبديهي أنه ولكي يتم انجاز هذا البحث أن أنتهج منهجا يلائم طبيعة الموضوع فاستعرت من المناهج مايتمشّى وطبيعة النصوص الرحلية التي اعتمدتها في الدراسة. ونظرا لكون الرحلة عملا يقوم على السرد رأيت من الأفضل مساءلة هذه النصوص ضمن ما تقتضيه السردية وفق إجراءاتها المنهجية للكشف عن الخصائص الأدبية فيها، كما عمدت إلى توظيف بعض أدوات البحث كالإستعانة بما ورد في كتب المؤرخين الذين عايشوا الأحداث والتي مكنتني من النبش في ذاكرة عصور الرحالة العرب والأجانب من خلال رحلاتهم لأبّين ما يمكن أن تحوي في أحشائها من الجواهر الكامنة المنسية والتي تتجاذبها مجالات معرفية متنوعة ما بين تاريخ وجغرافيا واجتماع وأدب وغيرها..كما انتهجت المنهج الوصفي الذي مكنني من الوقوف على وصفية النصوص الرحلية كظاهرة أدبية إذ من المؤكد أن هذا المنهج غايته وصف الظاهرة الأدبية في حدودها الواقعية شكلا ووظيفة. ثم وجدتني ورغبة منّي في دعم الصورة الرحلية بالواقعة التاريخية أميل إلى اعتماد المنهج التاريخي الذي يهتم بتطورالظاهرة الأدبية بغض النظر عن كونها فنية أوفردية أو اجتماعية، ويحاول الكشف عن نشأتها وتتبع مراحل تطورها إلى حين اكتمالها أو اندثارها. وأخيرا ولرصد مواقف الرحالة استعنت بالمنهج التحليلي. وما من شك في أن هذه المناهج مجتمعة كانت لي أكبر عون على تجاوز قدر كبير من عقبات البحث والتي يأتي في مقدمتها الجهد المضني في الحصول على المصادر التي تتسم بالندرة في معظمها، وصعوبة توظيف المنهج الناسب لقرب هذه النصوص الرحلية من التاريخ وكونها لا تستجيب في أحايين كثيرة لبقية المناهج... وبعون من الله ثم مساعدة بعض الأصدقاء قمت بزيارة عدة جامعات بأرض الوطن اطلعت في مكتباتها على بعض النصوص الرحلية والرسائل الجامعية المتصلة بموضوع بحثي وجمعت الكثير من مراجع الدراسة بتوجيه من أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور **عبد الله حمادي** الذي كان لي ينبوعا ثرّا من المعارف لا ينضب فدلّني على عيونها، زيادة على رعايته لهذا البحث منذ نشأته كفكرة إلى أن آتت الفكرة أكلها بإذن ربها...

فإليه أتوجه بخالص شكري وأصدق تقديري مشفوعين بتحيات الإجلال والإكبار..

كما أتوجه بجزيل الشكر وصادق الامتنان إلى كل من مدّ لي يد العون في عملي هذا ولو بالتشجيع والدعاء والكلمة الطيبة **وكلاً جزى الله عنّي خير الجزاء...**

المدخل

مفهوم المدينة

- المدينة لغة واصطلاحا.
- العرب والتمدين.
- خصائص المدينة العربية.
- الملامح الأساسية للمدينة العربية والإسلامية .
- عوامل نمو المدن وعوامل زوالها.

أولا : مفهوم المدينة لغة:

لا يجد الباحث في المعاجم اللغوية العربية فروقا كبيرة لمعنى مدينة ، و إن كنا نجد بعضهم ينقل ما يخالف رأي الآخر مخالفة طفيفة تتعلق بباب النسبة إلى المدينة، أو بالزيادة عليه أو بالنقصان مما لا ترى ضرورة لذكره.

ففي معجم (تهذيب اللغة) للأزهري ورد معنى المدينة مسندا إلى أقوال « الليث " العالم اللغوي الكبير يقول الأزهري: « و قال الليث : المدينة اسم مدينة الرسول عليه السلام خاصة و النسبة للإنسان مَدنيٌّ و حماسة مدينيَّة (وجارية مدينيَّة) و كل أرض بُنِيَ بها حصن في أصْطِمَتِهَا فهي مدينة و النسبة إليها مَدَنِيٌّ، ويقال للرجل العالم بالأمر هو ابْنُ بَجْدَتِهَا و ابن مدينتها ... أي العالم بأمرها»[1].

و لا يخالف صاحب لسان العرب ما ورد في معجم (تهذيب اللغة) فقد ورد في هذا المعجم أن المدينة : « الحصن يُبْنَى في أصْطِمَةِ الأرض مشتق من ذلك و كل أرض يبنى بها حصن في أصْطِمَتِهَا *فهي مدينة و النسبة إليها مَدَنِيٌّ »[2]

و رغم التلاقي الملموس في معنى(المدينة) بين معجم " لسان العرب " ومعجم "تاج العروس" فإننا نقف على خلاف بسيط بينهما، ففي حين يشكك معجم تاج العروس في صحة الإقامة بالمكان،كمعنى « لمدَن » لا نقع على مثل هذا التشكيك في لسان العرب، فصاحب معجم تاج العروس يقول: «مدن بالمكان (أقام)، والأزهري يقول: و لا أدري ما صحته[3] .لكن المعجم السابق لا يشك في صحة أن مَدَنَ مُدُنًا إذا أتاها»[4] كما ورد في تهذيب اللغة و لسان العرب .

وفي القاموس المحيط نقع على زيادة في توضيح معنى مدَن إذ قرنه بترك الخشونة و السكن في المدينة فقال : « تَمَدْيَنَ تَنَعَّمَ »[5].

ولعل المعجم الوسيط هو المعجم الذي استطاع جمع شتات معاني(المدينة)، إذ ورد فيه أن: « (مَدَنَ) مدونًا: أتى المدينة (تَمَدَّنَ) : عاش عيشة أهل المدن وتنعَّم وأخذ بأسباب الحضارة » . (المدنية): الحضارة و اتساع العمران، (

---

[1]- الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد ، تهذيب اللغة ، مادة (مدن) تحقيق يعقوب عبد النبي ، الدار المصرية للتأليف و الترجمة مطابع سجل العرب مهمل التاريخ .

* **الأصطمة:معظم الشيئ أو وسطه .**

2 - ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف ، الدار المصرية للتأليف و الترجمة القاهرة مهمل التاريخ ، مادة (مدن)

3- الزبيدي محمد مرتضى ، تاج العروس ،منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ، مهمل التاريخ ، مادة (مدن)

4- لسان العرب ، (مادة مُدن) .

5 - الفيروز آباد مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، دار الجبل، بيروت، مهمل التاريخ ، مادة (مدن).

المدينة): المِصْرُ الجامع (ج) مَدائِن ومُدُن. ويثرب مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، غلبت عليها[1].

و;;اللاّفت للنظر هو أن هذا المعجم يوحّد بين معنى تمدَّن وتَمدْيَنَ. مع زيادة فكرة التَّنَعُّمِ في التمدين كما أشار إلى ذلك معجم القاموس المحيط من قبل .

و الملاحظ في المعاجم الآنف ذكرها عند تعرضها لمادة (مدَن) هو تكرار ورود الصيغة (دَيْنٌ)، بل إن الزمخشري قد ذكر المدينة في مادة (دَيْنٌ) « ولفلان مَدِينٌ عبد و أمة ويقال يا ابن مَدِينَةٍ، و دَيَّنْتَهُ أمْرُك: ملَّكْتُهُ إياه »[2].

وهذه الكلمة (دَيْنٌ) مقطع من كلمة مدينة، وهي تعني فيما تعني« السلطان و الملك والحكم، والدَّيَّان القاضي والحاكم والمُجازي الذي لا يضيع عملا، بل يجزي بالخير والشر »[3].

و لذلك يشير ابن خلدون في المقدّمة إلى أن « المدن الأمصار ذات هياكل و أجرام عظيمة

و بناء كبير و هي موضوعة للعموم لا للخصوص، فتحتاج إلى اجتماع الأيدي و كثرة التعاون وليست من الأمور الضرورية للناس التي تَعُمُّ بها البلوى حتى يكون نزوعها إليها اضطراريا، بل لابد من إكراههم على ذلك وسَوْقِهِمْ إليه مضطرين بعصا الملك أومرغبين في الثواب والأجر الذي لا يكفي بكثرته إلا الملك و الدولة، فلا بد من تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة و الملك»[4] . وهذه النظرة من ابن خلدون تكشف عن ضرورة سيادة الدولة من أجل الاستقرار الحضاري والنظام في المدن والأمصار، وهي نظرة تتطابق مع المقطع السابق، لأن المدينة أصلا هي مقر ذلك الحاكم الذي يوفر العدل والسلطة فيها بالترغيب والترهيب و هو ما يمنح المدينة معنى سياسيا، و لعل ذلك المعنى هو الذي قاد بعضهم إلى القول بأن: « المدينة كلمة أرامية الأصل تطلق فيما تطلق على المكان الذي يسوده العدل إذ أن المقطع (دَيْنٌ) فيها يدل على العدل »[5].

من خلال استعراضنا للمعاجم السابقة يمكننا استخلاص أمرين يتعلقان بمعنى المدينة، الأول يتصل بمسألة الإقامة والاستقرار في المدينة ذلك أن جميع المعاجم تكاد تُجْمِعُ على أن (مدن المكان) استقر فيه باستثناء الشك الذي وجدناه في معجم تاج العروس، و منه نستفيد أن المدينة تعني المكان الذي يوفر لسكّانه الاستقرار، لكن هذا الإجماع يرافقه أمر آخر يتعلق بالمجيء إلى المدينة دون الاستقرار فيها و

---

1 - مصطفى إبراهيم و آخرون ، المعجم الوسيط ، مادة (مدن) ، مطبعة القاهرة 1961.

2 - الزمخشري ، أساس البلاغة ، تحقيق عبد الرحيم محمود ، ط 1 ، مطبعة أولاد ورفان ، 1953 مادة (مدن)

3- القاموس المحيط، مادة (دَيْن) و هي كذلك في لسان العرب

4 - ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، 1982، ص. 243 - 609

5 - فايز ترحيني (المدينة معناها و نشأتها) مجلة الفكر العربي، السنة الرابعة، 1983 تشرين الأول - نشرين الثاني، العدد 29 ص28

هذا يعني أن المكان الذي يُهبط إليه لتحقيق الحاجات من غير ما استقرار أحيانا كما ذكر ذلك في معجم تاج العروس.

والثاني يتعلق باشتراط وجود الحصن، بل إن جميع المعاجم تقريبا تشير إلى أن المدينة: « الحصن يبنى في أصطمة الأرض » هذا الحصن هو الذي يمنح المدينة معناها ويفسر التصاق السمة العسكرية بالمدينة القديمة وهو ما جعل – في رأينا – الحصون الحربية المسماة بالثغور تأخذ كمصطلح معنى المدينة فيما بعد.

وأيا ما كان الأمر فإن تناول المعاجم لمعنى المدينة لا يعطي غير الدلالة اللغوية الصارمة للفظة، ولكن التطور الذي تحكّم بأشكال المدينة ومنحها دلالات متنوعة فلم تعد تعني فقط الإقامة بالمكان أو بناء الحصن وإنما تعني: « الفن بِتَشَعُّبَاتِهِ الكثيرة من هندسة ونحت وأدب، وتعني التاريخ والسياسة والتجارة،كما تعني الشوارع والعمارات والإنشاءات المدنية والدينية والأرض بترابها ومائها، وتعني أيضا ماضي الإنسان المتطور نحو الأكمل، إذ هي صورة لكفاحه المزمن. وباختصار إن المدينة سجل لقضية الإنسان و حضارته »[1].

ثانيا :مفهوم المدينةاصطلاحا:

مهما تعددت الأسس والنظريات التي اعتمدها المؤرخون والمهتمون بشؤون الحضارة في تفسير نشأة المدينةفإن أغلبها على نظرة أحادية لا تغطي غير جانب من الجوانب المختلفة: الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية والثقافية.

ولعل نظرية المؤرخ الفرنسي(فوستيل دي كولنجل) الذي يفسر نشأة المدينة العتيقة معتمدا على عقيدة القدماء من اليونانيين والرومان كما جاءت في أقدم المراجع اليونانية واللاتينية، هي أول نظريةفي مجال نشأة المدينة،وهذه الإشارة جاء بها الدكتور ألبير نصري نادر وأقام بحثه عليها « المدينة الكلاسيكية: مدن اليونان والرومان»[2]. وخلاصة النظرية الدينية تلك:

« اجتمع عدد من العائلات وكونوا مجموعة سكانية ومثلهم فعل الرومان »[3]

وقد أقامت هذه المجموعات شعائر مشتركة متميزة فاتسعت بذلك الفكرة الدينية « إذ أنه تكونت لدى هذه المجموعات فكرة عن آلهة أسمى من الآلهة المنزلة، و من تجمع عدة مجموعات تكونت القبيلة واتخذت لها إلهًا حاميًا وشيدت له هيكلا. وللقبيلة اجتماعاتها وقراراتها الملزمة لجميع أعضائها، وكانت لها محكمتها وقانونها فتكونت هكذا نواة المدينة العتيقة »[4].

---

1 - فايز ترحيني المرجع السابق، الصفحة نفسها .

2 - المرجع نفسه ص 44 إلى 63.

3 - المرجع نفسه ، ص 50 .

4 -المرجع نفسه، السنة الرابعة 1982 تشرين الأول – تشرين الثاني العدد 29 ص 50 .

ومعنى ذلك أن المدينة ظهرت على أساس ديني واتسعت تدريجيا باتساع الفكرة الدينية.

ثالثا: العرب والتمدين:

إن الباحث في كتب التاريخ يجدها تذكر أسماء مدن كثيرة شيدت في أرجاء العالم العربي، والمتصفح للتوراة يعثر على كثير من تلك الأسماء، بل كثيرا ما يقرأ عن حياة أهلها ومصائرهم التي آلوا إليها، فهذا الكتاب يذكر أن كُوش بن حام بن نوح ولد نمرود الذي يعد أول جبار في الأرض « كانت أول مملكته بَابِل وأَكَدْ وكُلْنة في أرض شنعار و من تلك الأرض خرج آشور فبنى نينوى وساحات المدينة وطالح وراسِن بين نينوى وطالح هي المدينة العظيمة »[1].

وكانت تخوم الكنعانيين من صيدون وأنت آت نحو جَداد إلى غزة وأنت آت نحو سَدوم و عَمُورة و آدمَة و صبو ئيم إلى لأشَع »[2].

والحديث عن الدن كثير فهذه بابل وأورشليم ونينوى ومدن مصر الحصينة ومدن يهوذا، بل إن لفظة المدن والمدينة لا تكاد تفارق سفرا و لا نبوءة من أسفار التوراة ونبوءاتها. وهناك كتب التاريخ التي ذكرت المدن العربية القديمة مما يجعلنا نسلّم بوجود التدين في البلاد العربية منذ فجر التاريخ، فقد كانت بلاد ما بين النهرين « مركزا لنشوء القرى والمدن القديمة منذ فجر التاريخ، بل إن طلائع المدن الأولى قد برزت في هذه المنطقة منذ حوالي 4000 سنة قبل الميلاد»[3] فقد نمت هذه المدن على طول الأنهار حيث تتوفر المياه والتربة الخصبة ونذكر من هذه المدن القديمة : بابل، وآشُور وأُور وكِيِشْ وغيرها من المدن، و نجد حضارات عريقة في مناطق شبه الجزيرة العربية نذكر منها منطقة – وادي حضرموت - « حيث توجد عدة قرى

ومدن قديمة مثل: تَارِينْ وصَيُونَ وشُبَامْ »[4]، و لا نود الخوض في طبيعة هذه المدن وأوجه نشاطها لأن ذلك يبعدنا عن الهدف المنشود.

---

1 - الكتاب المقدس (العهد العتيق) سفر التكوين الفصل العاشر الآيات 10 ، 11 ، 12 .

2 - المرجع نفسه الآية 19 .

3 - عباس حسين عبد الرزاق: نشأة مدن العراق و تطورها. بغداد مطبعة الإرشاد 1977 ص 8 .

4 - عبد العزيز الدولاقي، مجلة المستقبل العربي عدد 13 – 3 – 1980 من مقالة (المدن العربية بين الأصالة و المعاصرة) ص 22 .

وفي عصر الجاهلية نجد أن حياة العرب في الجزيرة العربية كانت تقوم في الغالب على الترحال وعدم الاستقرار مما جعلهم أهل بدوٍ بعيدين عن التحضر والتمدين، هذا وقد كان للتجارة أحيانا دور في إيجاد بعض المدن التي اشتهرت في المنطقة كأسواق تجارية، فحدثتنا كتب التاريخ عن نَجْرَان و مكة و يَثْرِب وغيرها من المدن التي كانت ملتقى القوافل التجارية من مختلف المناطق.

وقد كان لاحتكاك الغرب التجاري مع الشعوب الأخرى من روم وفرس وأحباش عامل تمدين وحضارة، حيث أفادت العرب من حضارة هؤلاء علما وثقافة ومعتقدا.

ومما تقدم نستطيع القول إن العرب عرفوا المدن والأسواق وتعاملوا فيها وقد كان تعاملهم هذا تجاريا وأدبيا وثقافيا واجتماعيا، غير أن اعتماد الغالبية العظمى من عرب الجاهلية على حياة الرعي والتنقل هو الذي وسم حياتهم بالبعد عن بذور التمدين ذلك حتى في العصور الإسلامية اللاحقة حيث استمرت بعض القبائل على نمط البداوة بكل مظاهرها الجاهلية، وقد استفاد اللغويون من هذه القبائل في نقل اللغة العربية الفصحى التي تفسدها المدن ولم تؤثر فيها الشعوب الأخرى.

ولو أردنا الحديث عن المدينة الإسلامية من حيث نشأتها وتطورها لوجدنا مادة غزيرة حول ذلك، تحتاج إلى بحوث منفصلة، ففي العصور الوسطى شهدت المدينة الأوروبية تراجعا كبيرا حينما اجتاحت الغارات الجرمانية الشرسة المدن وخربتها شر خراب، و وأصبح الوسط الأوروبي ريفيا، وانتقل النشاط بشكل عكسي من المدن إلى الأرياف والضِّيَاع، فأصبحت المدينة نتيجة لذلك لا تحفل إلا بالجانب الديني وحده، في تلك الفترة كان العالم يشهد نمو المدينة الإسلامية التي كانت تمور بالحياة السياسية والفكرية والاقتصادية[1].

وعلى الرغم من أن المدينة الإسلامية كانت ذات طابع تجاري عموما و« أن الضجيج لم ينقطع منها لاكتظاظها بالناس والباعة المتجولين وأصحاب الحرف الصغيرة... »[2] فهي تعطي صورة المدينة الاستهلاكية التي تمتاز بالبساطة في طبيعة المعاملات قياسا بالمدن المعاصرة.

وقد أدى التنوع الطبقي من ناحية والنشاط البشري العام من ناحية أخرى إلى جعل المدينة الإسلامية تَمُورُ بالحركة والحياة لأنها اسْتَقْطَبَتْ الفعاليات الإنسانية على الصعيد الاجتماعي والسياسي والعسكري والديني والفكري، ورافق هذا التنوع بُرُوزُ مجموعة من المصطلحات للمدينة مثل : الثغر والقصبة والرباط والقرية والعواصم. ومع التطور التاريخي تخلت المدينة العربية عن بعض معانيها الاصطلاحية ولاَسِيَمَا ما يتعلق بالجانب العسكري.

---

1 - نشرت مجلة عالم الفكر بحثا خاصا عن المدينة الإسلامية في المجلد 11 لعام 1980 العدد الأول.

2 - عاشور سعيد عبد الفتاح، مجلة عالم الفكر 1980 المجلد الحادي عشر العدد 1 أفريل، مايو، يونيو من مقالة (الحياة الاقتصادية في المدينة الإسلامية.)

ولم يكن تطور المدينة العربية في العصور الإسلامية اللاحقة بشكل ملموس تطورا يتمايز فيه أي عصر عما سبقه إلا في بعض الفنون العمرانية، والمستحدثات الحضارية والاجتماعية الوافدة، بل إن الهجمات والغزوات من مَغُولِيَّةٍ وتَتَارِيَّةٍ قد ساهمت إلى حد ما في تخريب كثير من المظاهر الحضارية للمدينة العربية الإسلامية بشكل شل حركة التقدم الحضاري العربي وأضعف المدينة العربية التي كانت قلعة للعلم والثقافة ومركزا كبيرا للمعرفة والتحصيل، فكان طلاب العلم والمعرفة يحجون إليها من كل حَدْبٍ و صَوْبٍ.

وقد عرفت المدينة العربية الحديثة ظاهرة فريدة تمثلت في الاستعمار الغربي الذي وضع العرب وجها لوجه أمام تحدي الغرب الناهض، وانفتح نتيجة لذلك المجتمع العربي على رياح التمدين الآتية من وراء البحر حاملة مستحدثات جديدة ساهمت في تغيير كثير من أنماط الحياة.

وحين حصلت البلدان العربية المستعمرة على استقلالها، بدأت المدينة العمرانية تشهد النهوض الاجتماعي والعلمي والعمراني والاقتصادي فظهرت نتيجة لذلك بعض العادات والتقاليد الاجتماعية الجديدة، جعلت الإنسان العربي لا يستطيع الانسجام بسهولة مع المدينة، وهو الذي تعوّد على عيشة الريف وطبيعته البعيدة عن التعقيد، فظهرت من ثم نزعة النفور والتمرد على المدينة، حيث كانت جذور هذه النزعة موجودة أصلا في روح الحضارة الغربية، فالمدينة المعاصرة تبدو «مجرد كتلة من البشر والأشياء قلما يتقابلون أو ينظرون إلى بعضهم إلا لكي يرفضوا أو يتجاهلوا بعضهم... ذلك أن ضياع الذات هو شرط للانتماء إلى قوم يجعل من إلغاء الذات مادة التاريخ»[1].

ونجد أنفسنا هنا أمام قضية تتصل بموضوع بحثنا، هذه القضية خاصة بطبيعة المدينة العربية، فهل أصبحت هذه المدينة من حيث النمو العمراني والتطور التقني في مستوى المدينة الغربية ؟

أي هل تعادل القاهرة وبغداد وبيروت و**قسنطينة** مثلا باريس ولندن حتى يهاجمها بعض الرحالة الغربيين وينفّروا منها ؟!

مما لا شك فيه أن المدينة العربية قد اكتسبت كثيرا من الصفات التي تحملها المدينة الغربية، ونقصد بهذه الصفات الوسائل التقنية التي أصبحت بحكم التواصل مُبَاحَةً لكل الأمم، فقد عرفت المدينة العربية كثيرا من مبتكرات الحضارة الغربية المعقدة، بل إن التأثير لم يقتصر على الوجه المادي فقط، بل تعداه إلى المجال الفكري و الروحي أيضا، مما ترك شُرُوخًا كبيرة في نفس الإنسان العربي الذي أحس بالغربة في عالم المدينة الحديثة، هذا من جهة، و من جهة أخرى نجد أن

---

1 - برهان غليون، مجلة الفكر العربي المعاصر العدد 39 ، أيار – حزيران 1986 من مقالة (التغيير المكاني والاجتماعي ، ترجمة محمد علي مقلد) .

المدينة كوحدة مكانية تمثل إطارا للحضارة المعاصرة وإفرازاتها السياسية والاجتماعية ومن ثم فإن موقف الرحالة منها موقفه من هذه الحضارة وإفرازاتها السياسية والاجتماعية والفكرية.

رابعا : خصا ئص المدينة العربية :

تميزت المدن الإسلامية بكونها إنشاءات جديدة اعتمدت على نظام تخطيطي سابق، وقد ارتبط إنشاؤها بالفتوحات الإسلامية فكانت بادئ ذي بدء قواعد عسكرية أقيمت في النقاط الحساسة من محاور الفتوحات وسرعان ما أخذت صورة المصر حيث ارتقت إلى مرتبة عواصم إقليمية لإدارة الأقاليم المفتوحة.وقد أنشئ أغلبها في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كالبصرة، والكوفة و الفسطاط ،كما أن هذه المدن تتميز بميزة أخرى، وهي أنها أنشئت في ظروف حرب لذا فقد مرَّ تشكيلها المادي بعدة مراحل ،ولم تعرف بناء قويا إلا في عهد بني أمية. فمدينة البصرة مثلا مصّرت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حوالي 14

و قيل 17 هـ، و ارتبط تمصيرها بالفتوحات فكان لاختيار موقعها أهمية كبرى، و يروي ياقوت الحموي أن المسلمين كتبوا إلى الخليفة عمر بن الخطاب:« إنّا وجدنا بطاسان مكانا لا بأس به، فكتب إليهم أن بيني و بينكم دجلة، لا حاجة في شيء بيني و بينه دجلة أن تتخذوه مصرا، ثم قدم عليه رجل من بني سدوس يقال له ثابت، فقال : يا أمير المؤمنين إني مررت بمكان دون دجلة فيه قصر وفيه مسالح للعجم يقال له الخريبة، و يسمّى أيضا البصيرة بينه و وبين دجلة أربعة فراسخ له خليج بحري فيه ماء إلى أجمة قصب فأعجب ذلك عمر »[1].

ومدينة الكوفة كان تمصيرها كما يروي ياقوت الحموي في« أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السنة التي مصّرت فيها البصرة سنة 638 م / 17 هـ و لقد كان لاختيار موقعها اعتبارات اجتماعية وعسكرية واقتصادية تبرز من خلال كتاب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما مؤسسها، حيث ورد فيه : « إن العرب لا يُصلحها من البلدان إلا ما أصلح الشاة و البعير فلا تجعل بيني و بينهم بحرا بالريف »[2].

---

1 - كشريدصلاح الدين: المدينة الجديدة، نشر مؤسسات بن عبد الله، تونس ص 99.

2 - محمد الدوادي : المسجد في القرآن و السنة، د . م . ج الجزائر 1988 ص 99.

أما عن تخطيطها، فأول مكان حدده سعد هو مكان المسجد و هو مركز المدينة و قد اعتمد على طريقة رمي السهم لتحديد الفراغ، فقد رمى سهما مَهَبَّ القبلة فعلم موقعه، ثم سهما على موقع المسجد و دار الإمارة في مقام الغالي و ما حوله، و اقتطع لأهل اليمن في الجانب الشرقي، ولأهل نزار في الجانب الغربي من وراء تلك العلامات، و ترك ما دونها للمسجد و دار الإمارة »[1].

ويروي ابن خلدون « أن أهل الكوفة استأذنوا عمر بناء الكوفة بالحجارة لما شب حريق بالقصب الذي بنوا به، فقال: افعلوا و لا يزيدنّ أحد على ثلاثة أبيات و لا تطاولوا في البنيان وألزموا السُّنّة تلزمكم الدولة ... »[2].

خامسا : الملامح الأساسية للمدينة العربية الإسلامية :

كان الإسلام منذ البداية دينا حضريا بالمعنى الدقيق للكلمة أو دين مدن إن صح التعبير ولسنا نقصد بذلك أن انتشار الإسلام أو تقبّله واعتناقه كان مقصورا على أهل المدن دون غيرهم، ولكن المقصود هو أن الحضارة الإسلامية كانت دائما حضارة مدن، فقد ازدهرت النظم الإسلامية في عدد كبير من أمهات المدن التي لعبت دورا هاما خلال عصور التاريخ الإسلامي كله، وفيها كانت تتركز مظاهر الحضارة الإسلامية المميزة مثل المساجد الكبرى والمدارس الدينية، والزوايا الصوفية. ولقد ظل هذا النظام قائما حتى القرن التاسع عشر، فظهرت الزوايا السَّنُوسِيّة في ليبيا في المراكز الحضرية، وليس بين البدو أو سكان الصحراء.

وقد ولد النبي صلى الله عليه وسلم في مدينة هي مكة المكرمة التي عرفت بأم القرى، وحين أمر بالهجرة هاجر إلى مدينة أخرى هي المدينة المنورة، ولم يهاجر إلى الصحراء ،وليس من شك في أن عنصر الاستقرار يعتبر أحد المتطلبات الأساسية لظهور الدين ونشأته وتطوره ونجاحه وانتشاره. وعلى الرغم من أهمية موضوع المدينة الإسلامية فالملاحظ أن هذا الموضوع لم يدرس دراسة مقارنة متعمقة في أضيق الحدود. ومع ذلك فإن لدينا عددا لا بأس به من الدراسات المفردة عن مدن إسلامية معينة بالذات ولكنها دراسات قليلة على أي حال.

وقد يسأل سائل: ما الذي يعطي المدينة الإسلامية شخصيتها بحيث توصف بأنها إسلامية ؟

وليس المقصود بالإسلام هنا مجرد العقيدة الإسلامية أو الممارسات والشعائر، وإنما المقصود بالإسلام الثقافة الإسلامية ككل. وعلى اعتبار أن الإسلام هو أساس للحياة فضلا عن كونه عقيدة وشعيرة، وبذلك فهو الحياة كلها بصبغة واضحة متميزة هي التي نسمّيها (إسلامية) ومن هنا يكون الجواب أنه لابد من وجود

---

1 - محمد الدوادي، المرجع السابق، ص 105.

2 - محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، عالم المعرفة ع 128 الكويت آب 1989م، ص ص 17 –18.

معالم معينة في المدينة تعطيها ذلك الطابع الإسلامي وتميزها عن غيرها من المدن، هي معالم وملامح قد يكون بعضها ماديا محسوسا ولكن البعض الآخر هو بغير شك ملامح ومعالم معنوية أو نوعية تتعلق بأنماط السلوك والقيم والعلاقات الاجتماعية بين سكانها.

وما من شك في أن الحياة الاجتماعية في المدن الإسلامية هي نتاج لتاريخ طويل تمتزج فيه عناصر الإسلام والعروبة بالعناصر المحلية القومية، وهذا هو الذي يميز مدينة إسلامية معينة عن مدينة إسلامية أخرى رغم وجود أساس واحد مشترك بينها جميعا.

فقد يتشابه التنظيم الاجتماعي في المدن الإسلامية كلها في عصر من العصور لحد كبير ولكن الثقافات في تلك المدن تختلف على الأقل من بعض الوجوه نتيجة التأثير المحلي أو الثقافة الفرعية التي تتمثل في اختلاف العادات والتقاليد، بل أحيانا اختلاف اللغة أو على الأقل اللهجات.

ومثل هذا السؤال نجد له إجابات شافية لدى عدد من العلماء الرحالين الذين يجمعون بين المعرفة الواسعة والمعلومات التفصيلية وقوة المخيلة وخصوبة الإحساس الفني مما ساعدهم على أن يقدّموا لنا بعض الأفكار التي تساعد على ظهور شخصية المدينة، والطابع المشترك الموحّد الذي كان يسود المدن الإسلامية عموما.

فمن هؤلاء من يرى أن شكل المدينة الإسلامية كان يتحدد ولو جزئيا بمتطلبات السلطة التي كانت تحدد مثلا مكان القلعة وأسوار المدينة وبواباتها، ولكن من الناحية الأخرى كانت تتحدد بمتطلبات الإسلام بحيث تتوفر فيها مظاهر إسلامية معينة تساعد الناس على أن يحبّوا الحياة الإسلامية بكل معانيها وقوتها وعمقها.

من هذا المنطلق كنا نجد المسجد الجامع يبنى في وسط المدينة وأسفله المدارس الدينية ومن وراء ذلك تأتي أضرحة الأولياء والمدافن والجبّانات التي كانت في الغالب تقام وراء أسوار المدينة.

وعلى الرغم من تعدد أشكال المدن العربية وكثرة اختلافاتها وتنوعاتها في مساحاتها الشاسعة خلال الفترات الطويلة إلا أننا يمكن أن نجد في كل منها عددا من الملامح الأساسية، ويمكن حصرها في خمسة أشار إليها الرحالون العرب والأجانب على وجه سواء وهي:

أولا: القلعة: إذ لا بد من وجود القلعة التي تقوم بطبيعة الحال على موقع له طبيعته الدفاعية بل إن هذا الموقع ذاته كثيرا ما يكون هو العامل المتحكم لقيام المدينة ذاتها في تلك المنطقة بعينها.

ثانيا: وجود مدينة أو حي (ملكي)، كثيرا ما ينشأ الحي في مركز حضري كان موجودا

من قبل بالفعل ولكن قد يتم إنشاء ذلك الحي الملكي في أحيان أخرى في أرض جديدة تماما، فيصبح هو ذاته مركزا ينمو من حوله التجمع الحضري نتيجة لنزوح كثير من الناس إليه، ممن تجذبهم أضواء السلطة والثروة والشهرة التي يضفيها على كل من يتصل به، و ليس المقصود بذلك هو مجرد قصر ملكي، وإنما هو وجود (مجمع) يضم قصور الأمراء والمصالح الحكومية والإدارات وأماكن سكن الحراس وما إلى ذلك، و قد يقوم ا المجمع في القلعة ذاتها.

ثالثا : وجود مركز المدينة يضم المسجد الجامع والمساجد الكبرى والمدارس الدينية والأسواق المركزية، بكل ما تضمنه وتلحق به، إلى جانب وجود مناطق خاصة للتجّار والحرفيين،

كما تقام فيه مساكن الطبقات الغنية وكبار رجال الدين، أي أن هذا الحي المركزي يضم المشتغلين بالنشاط الاقتصادي (التجّار) والنشاط الديني (رجال الدين و العلماء) على السواء.

رابعا: وجود منطقة تضم الأحياء السكنية التي تتميز بخاصيتين اثنتين:

الأولى: هي علاقة الترابط بين الفوارق العرقية.

الثانية: هي الاستقلال النسبي لكل حي من هذه الأحياء أو لكل مجموعة من الأحياء معا. و هذا طبيعي حيث يميل أبناء الدين الواحد أو المهنة الواحدة، أو الحرفة إلى التجمع معا نظرا لما في ذلك من شعور بالأمن والأمان والتماسك، وبخاصة حين تكون المدينة جديدة وسكانها وافدين جددا فتميل كل فئة إلى التجمع معا والإقامة في منطقة أو حي واحد.

خامسا : وجود ما يمكن تسميته بالضواحي:

والمقصود بالضواحي الأحياء الخارجية حيث قد يقيم الوافدون الجدد الذين لم يستقروا بعد، وحيث يمكن أن تمارس بعض الأعمال المعينة، وكثيرا ما كانت توجد مناطق القوافل على أطراف المدينة، وعلى الطرق الرئيسية أي أن تلك المواطن كانت تقام خارج أسوار المدينة ذاتها. كما أن المدافن كانت هي أيضا تقام خارج أسوار المدينة.

سادسا: عوامل نمو المدن وعوامل زوالها:

لعل خير من تناول هذا الموضوع بإسهاب العلامة ابن خلدون لذلك رأيت أنه من الأجدى أن استند إلى بعض آرائه وأفكاره . يقرر العلامة ابن خلدون في مقدمته أن

تخطيط المدن تنازع الحضارة[1] وذلك أن الحضارة هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والمباني والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله[2]، ويلاحظ أن المباني القائمة في المدن لا تكون كلها خاصة بالأفراد بل إن قسما منها يكون من المرافق العامة التي يشترك فيها ويستفيد منها جميع السكان.

ومن الطبيعي أن هذه المرافق تحتاج إلى رعاية الدولة، ولذلك يرى ابن خلدون أنه « لا بد في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك »[3].

هذا ويربط ابن خلدون - عند عرضه لأطوار الدولة المختلفة – بين رفاهية الدولة حين تصل إلى طور الفراغ والدعة وبين تحصيلها بثمرات الملك، ومن ذلك تشييد المباني الحافلة والمصانع (المباني) العظيمة والأمصار المتسعة والهياكل المرتفعة، وذلك بفضل ما تحصله من أموال عن طريق ضبط الدخل العام[4].

ويضيف ابن خلدون عاملا هاما في ازدهار العمران الحضري وذلك حين يقرر أن مباني الدولة تكون على نسبة قوة الدولة في أصلها وهو ما نجد مصداقا له فيما شهدته مصر في عصر الناصر محمد بن قلاوون.

ولا يقتصر دور الدولة على زيادة معدل نمو وازدهار المدن القائمة بل تستحدث مدنا جديدة وخاصة زمن الفتوحات الكبرى، حيث تكون في حاجة إلى استحداث بعض المدن والثغور لإيواء حامياتها، وحماية حدودها الجديدة من غارات الدول المجاورة لها شأن قسنطينة أيام ماسينيسا في العهد النوميدي القرن 3 ق م، فقد أراد لها ماسينيسا أن تكون في مستوى قرطاج وأن تكون حاجزا مانعا قويا وصخرة متينة تتحطم عليها محاولات القوى الأجنبية، ولم يكتف بتحصينها، وتطويرها فحسب، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حيث قام بتقوية جيشه وتنظيمه تنظيما محكما، وتطوير قتاله وتسليحه تسليحا جيدا ونظم الإدارة وطوّر الزراعة والصناعة ... »[5].

ويمكن تطبيق قوله على الفتوحات الإسلامية الأولى وما تلاها من إقامة أمصار جديدة وسلسلة من الثغور البرية والبحرية على طول الحدود.

---

1 - عبد الرحمن ين خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، ص 609.

2 - المرجع نفسه، ص 304.

3 - عبد الرحمن ين خلدون، المرجع السابق، ص 609.

4 - المرجع نفسه، ص 311.

5 - المرجع نفسه، ص 601.

ومثلما ربط ابن خلدون بين رقي الدول وما شهدته المدن من ازدهار ونمو فقد ربط أيضا بين اضطراب أحوال الدول في أواخر أيامها وما تتعرض له المدن من تدهور وخراب، وذلك لما يحدث في مثل هذه الفترات من أحداث ترتبط في أحيان كثيرة بطبيعة هذه المرحلة من حياة الدول.

وشواهد ابن خلدون على ذلك مستقاة من أحداث عصره وعلى ما هو مقرر في تاريخ الدول المتعاقبة. وتتمثل هذه العوامل والمظاهر فيما يلي:

عندما يفسد النظام الاقتصادي للدولة يضطرها إلى اتخاذ إجراءات اقتصادية قد تؤدي إلى تدهور حال المدن، ومن هذه الإجراءات مثلا: فرض الضرائب أو المكوس وزيادتها زيادة بالغة فتكسد الأسواق ويؤذن ذلك باختلال العمران، فيؤثر على الدولة، إذ لا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضمحل.

وأما ما يصاحب هذا التدهور الاقتصادي في الدولة فهو بطبيعة الحال ما تكرر حدوثه في **قسنطينة**، من تعرضها للمجاعات والأوبئة وإن تضافرت مع هذا كثرة الفتن لاختلال نظام الدولة السياسي، مثل قيام العربان بنهب المدن.

والقاعدة الأساسية هي أن عمر العاصمة أو المدينة هو عمر الدولة التي تشيدها، ومن ثم فمع امتداد عمر الدولة تشاد المباني وتتعدد وتتسع الأسواق وتزداد رقعة المدينة كما هي حال مدينة **قسنطينة** أيام قسطنطين في العهد الروماني (12م) فبعد أن استتب له الأمن والهدوء وتمكن من السيطرة على المناطق المجاورة والمحيطة بها، كرس جهده لتعمير المدينة وتنشيط التجارة والصناعة والزراعة بها، حتى تستعيد مكانتها في هذا الميدان[1].

وكذا أيام صالح باي في العهد العثماني 1771م - 1792م فقد « عمل صالح باي جاهدا على تجميل قسنطينة وتنظيم بناياتها وإشادة بعض المعالم العمرانية...»[2].

أما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة فإن الأمور تتغير إذ تخرّب العاصمة (كرسي الملك) بخراب الدولة و انقراضها، وتعليل ذلك هو فقدان العاصمة لوظيفتها السياسية وما يتبع ذلك من خروج الكثير من سكانها أصحاب الوظائف العامة التي لا توجد إلاّ في العاصمة، وقلة الاهتمام بها، فضلا عما قد ينظر إلى سكانها من أهم أشياع الدولة السالفة. بل قد تنقل الدولة الجديدة سكان العاصمة القديمة لتضمن سيطرتها عليها.

ولا يقتصر ابن خلدون على معالجة تدهور المدن على النحو السابق فحسب، بل يعطي تصورا آخر حيث تقف الظروف البشرية من وراء بقاء المدن على حالها،

---

1 - لعروق محمد الهادي : مدينة قسنطينة – دراسة جغرافية العمران ،دار البعث 1981 ص 48.

2 - ناصر الدين سعيدوني، دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر ،دار الغرب الإسلامي ط 1 ،2000م، ص 04.

وذلك إذا ما بقيت كرسيا للدولة الجديدة واستغنت الدولة بها عن اختطاط عاصمة جديدة على نحو ما حدث للقاهرة وفاس[1].

وهناك سبب آخر يحفظ للمدينة بقاءها وعدم تدهورها، وهو أن تكون قد أقيمت حيث وضعها الطبيعي ومن ثم يكون للمدينة ظهير بشري في ضواحيها وما قاربها في الجبال والبسائط من بادية تمدّها بالسكان، فيكون ذلك حافظا لوجودها وبقائها.

والسبب في ذلك هو ما يقرره ابن خلدون من تحوّل سكان الريف والبادية إلى سكن المدن (ظاهرة النزوح الريفي) وأما إذا لم يتوفر للمدن مثل هذه الظروف البشرية، فإن انقراض الدولة يؤدي إلى تناقص العمران وتشتت السكان ومن ثم خرابها، ومثال ذلك الفسطاط والكوفة والقيروان والمهدية وقلعة بني حماد[2].

ومن مظاهر هرم المدن ما يتجلى في انتقاص عمرانها ونقص صناعتها ذلك أن الصنائع مثلا إنما تكثر وتستجاد إذا كثر طالبوها، فإذا أصاب الضعف المدن أخذت في الهرم و تناقص فيها الترف، ومال سكانها إلى الاقتصار على الضروري، فتقل الصنائع التي كانت توابع الترف (السلع الكماليات) ومن ثم لا يجد أصحاب هذه الحرف إلا المهاجرة إلى مدن أخرى غيرها، وبذلك تظل المدينة في التناقص ما دامت الصناعات في تناقص إلى أن تضمحل كليّا.

كما أن تراجع عمران المدن لا ينحصر في تقلّص مساحتها وتناقص سكانها فقط، بل وفي تغير نمط المباني ومادة بنائها، ذلك أن المدن العامرة تكثر فيها المباني المشيدة بالحجر والجير والمنمّقة بشتى أساليب التنميق، فإذا تراجع عمرانها وخفّ سكانها وقلّت الصنائع ،كان من جملة ذلك عدم إجادة البناء واستخدام الطوب بدلا من الحجارة، فيصير بناء المدينة مثل بناء القرية وتظهر بالتالي على المدن سيماء البداوة.

وفوق هذا فإن قلة السكان وهجر المساكن وعدم القدرة على جلب مواد البناء الجديدة يدفع بالضرورة سكان المدن المتدهورة إلى استخدام أحجار البناء القديمة ونقلها من الدور القديمة إلى الحديثة[3].

ومثل هذه الدورة في المباني قد شهدتها مدينتا الفسطاط والقاهرة في مراحل من تدهور الأولى وخراب الثانية مع المجاعات والأوبئة على نحو ما ذكر المقريزي في خططه[4]، ولعل في ذلك تأثرا بأفكار أستاذه ابن خلدون حين خلص إلى مثل هذه النتائج وطبّقها على المدينتين.

---

1 - ابن خلدون، المرجع السابق، ص 611.

2 - المرجع نفسه، ص ص610 – 611.

3 - ابن خلدون، المرجع السابق، ص 640 – 641.

4 - المقريزي (تقي الدين العباس أحمد بن علي) : الخطط (المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار) ج 2 مؤسسة الحلبي و شركاؤه للنشر و التوزيع، القاهرة.1962، ص ص 108 / 132.

الفصل الأول

الفصل الأول

الفصل الأول

المدينة العربية في أدب الرحلات

- مقدمة .
- المدينة العربية في عيون الرحالتن العرب.
- المدينة العربية في عيون الرحالتن الأجانب.

مقدمة: كان للمدينة دورها البارز عند العرب وهناك من الباحثين من يرى بأن الجغرافية العربية التي تميزت بكونها جغرافية تهتم بالإقليم (إقليمية)، هي أيضا جغرافية مدن[1] وذلك راجع لاهتمام العرب بالمدن وتعمقهم في دراستها، أضف إلى ذلك وفرة المدن القديمة في عالمنا العربي الذي يعد بحق موطن الحضارة ومهد المدنية الأول أكثر من مدينة يمكن أن تدّعي بأنها أم المدن[2].

من هنا كان للدراسة التاريخية للمدن العربية أهميتها البالغة من حيث كون هذه الدراسة تبحث الأصول لإحياء التراث العربي والحفاظ على الكيان القومي، " فالمدن بالنسبة للعرب تاريخ محفوظ تَجسّد. ولن نكون مجافين للحقيقة إذا قلنا إن مجموع أعمار عواصم العرب القديمة قد يعادل مجموع أعمار بقية عواصم العالم مجتمعة...كذلك لقد قدّر أن أي عاصمة عربية قديمة في إفريقيا تزيد في عمرها على مجموع أعمار كل عواصم إفريقيا جنوب الصحراء، حيث أغلب المدن من أصل استعماري حديث"[3].

و لقد اهتم العرب بتعمير المدن وتشجيع الحياة الحضرية، وكان من الضروري أن تقترن هذه الحركة العمرانية الواسعة التي شهدتها المنطقة العربية منذ فجر التاريخ بدراسات متعددة للمدن بل إن استعراض الكتابات **الرحلية** العربية في هذا المجال يبرز بكل جلاء مدى اهتمام العرب بالمدينة. ومع أن هذه الكتابات كانت في مجملها قائمة على الوصف إلا أنها أسهمت في التعريف بالمدينة العربية بشكل عام من حيث الموضع والموقع والعمران والمساكن وتنظيم الموارد دون التعمق في دراسة وتحليل هذه الموضوعات.

و لقد جاء في كتاب «**مروج الذهب**» للمسعودي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين فتح الله على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك من الأقطار كتب إلى بعض الحكماء في ذلك العصر يقول: « إنّا أناس عرب وقد فتح الله علينا البلاد ونريد أن نتبوأ الأرض والأمصار فصف لي المدن وأهويتها ومساكنها وما يؤثّره التراب والأهوية في سكّانها»، فرد عليه الحكيم الذي لم يفصح لنا المسعودي عن اسمه ولا عن موطنه فقال: « أما **الشام** فنجٌّ ركام (أي مشبع بالرطوبة)أو ثجٌّ غمام أي (كثير الماء) وغدق رُهام (أي كثير المطر) يرطّب الأجسام، وأما أرض **مصر** فأرض قوراء (واسعة) غوراء (مطمئنّة)، ديار الفراعنة ومنازل الجبابرة تفضل بنيلها، وذمُّها أكثر من حمدها، هواؤها راكد وحرها زائد وشرها بائد... وأهلها مكر ورياء وخبث ودهاء، إلا أنها بلد مَكسبٍ وليست بلد مسكن لترادف فتنها واتصال شرورها. وأما **الحجاز** فحاجز بين الشام واليمن والتهائم وهواؤه حرور وليله بهور، ينحّف الجسم ويحشّف الأدمغة (يجعلها جافة) ويشجّع القلوب

---

[1] - عبد العالي عبد المنعم الشامي، جغرافية المدن عند العرب، عالم الفكر، المجلد التاسع، العدد الأول، 1978، ص 133.

[2] - د. جمال حمدان، المدينة العربية ، القاهرة، 1963، ص38.

[3] - المرجع نفسه، ص ص 38- 39.

ويسقط الهمم ويبعث على الإحن ويذهب بالرحمة ويكسب الشجاعة وفي أهله غدر ولهم خبث ومكر وديارهم مختلفة وهممهم غير مؤتلفة...
وأما **العراق** فنار المشرق وسرّة الأرض وقلبها إليه تطاردت المياه وبه اتصلت النضارة وعنده وقف الاعتدال فصفت أمزجة أهله ولطفت أذهانهم واحتدّت خواطرهم ... وقلب الأرض العراق ...وهو مفتاح الشرق ومسلك النّور، وأهله أعدل الألوان وأنقى القرائح وأفضل الأمزجة وفيهم جوامع الفضائل...»[1]
ولقد نقل لنا عدد كبير من الرحالين العرب والأجانب صورا حية صادقة عن المدن والمجتمعات العربية الإسلامية في المشرق والمغرب العربيين، وعن عادات السكان وتقاليدهم ونظمهم الإجتماعية وأحوالهم النفسية في فترات زمنية متباينة.
وكان وصفهم في أغلب الأحيان يصدر عن عاطفة قوية جياشة نحو ما يصفون سواء أكانت هذه العاطفة مبعثها الحب والإعجاب أم البغض والكراهية.
وقد انصبّ وصف هؤلاء الرحالة للمدن حول نواح ثلاث هي: المرافق والمشاهد والأرباض **فالمرافق** تضم الأسوار والحصون والمساجد والمدارس والحمامات والمياه والأسواق والمارستانات والمنازل والشوارع والأبواب. و**المشاهد** و تضم المقابر والموالد وآثار الأنبياء والعلماء والأولياء والمواقع الإسلامية والمعابد والكنائس والآثار غير الإسلامية. وأما **الأرباض** فتضم الأحياء والضواحي.
ومن **الرحالين** من لم يصف المدينة وفق هذه العناصر الثلاثة إلا أنه تعرض لبعضها تارة وأهمل البعض تارة أخرى
. هذا ولم يقتصر الوصف على المحتوى الإثنوغرافي* والمنهج وإنما أبرز أيضا العنصر الأدبي - لدى عدد منهم- متمثلا في جمال اللفظ وحسن التعبير وغلبة السجع.
ولقد سلك جل الرحالين إن لم نقل جميعهم منهجا معينا في وصف المدن والأقاليم التي حطوا بها الرحال قوامه المعاينة الشخصية عن طريق الملاحظة المباشرة والمعاشرة أي الاختلاط بالناس علّيتهم وعامتهم والذين يتخذون من بعضهم أو (الثقات من الرجال) كما سمّاهم المقدسي، مصادر إخبارية للمعلومات[2].
كما كشفت لنا نصوصهم الرحلية في وصف المدن بعض الصفات الشخصية التي يتحلى بها الرحالة كالصبر على الغربة ومعاناة السفر والتحقق من القول بالرجوع إلى مصادر الثقة والسعي بقدر المستطاع إلى الابتعاد عن الذاتية والانحيازية بحيث لا يأخذ الأمور على علاّتها ولا يصبغها بما تمليه عليه أهواؤه، بل يتوخى التحقيق فيها وسبر أغوارها عن طريق الاختلاط والحوار مع الفقهاء

---

[1] -المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، المطبعة التجارية الكبرى، ج2، ط4 ، مصر، 1964ص61. و ما بعدها.

* الإثنوغرافيا، كلمة معربة، تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة العادات والتقاليد والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة أومجتمع معين خلال فترة زمنية محددة.

[2] - المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص3،2 مكتبة خياط بيروت1961م

والأدباء والزهاد والمتصوفين[1]... إلا في القليل النادر حيث تغلب على بعضهم ذاتيته فتجده ينحاز إلى قوم دون قوم وإلى بلد دون آخر[2] ولعل هذا ما يؤكده المقدسي في كتابه (**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**) حيث يقول:" فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام أحدها ما عايناها والثاني ما سمعناه من الثقات، والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وغيره، وما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمتها، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها، ولا أهل زهد إلا وقد خالطتهم...حتى استقام لي ما ابتغيته في هذا الباب[3].

ولقد كان لعاملي الزمان والمكان بروز واضح في هذه النصوص الرحلية فقد نقف في وصف رحالة لمدينة على ما لا نقف عليه في وصف آخر لها وذلك لاختلاف الزمان أو العصر، فالقرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) مثلا يعتبر من أحفل القرون بأخبار الرحالين العرب وأسفارهم في الأقطار، فلقد تنقل الرحالون في مدن العالم الإسلامي شرقا وغربا وكتبوا عمّا لقوه من التجارب والمشاهدات في مؤلفات لم يزل بعضها حتى اليوم دليل المؤرخ والجغرافي والباحث الإثنوغرافي .ومع أن الرحلات في القرون التالية مباشرة كانت قد أخذت في الانحسار إلا أنه كان ثمة قلة من الرحالة الذين اشتهرت أعمالهم.

وفي الفترة التي قلّت فيها رحلات المشارقة كثر عدد الرحالين المغاربة الذين اتجهوا صوب الشرق لأداء فريضة الحج، وزيارة المدن الإسلامية الشهيرة مثل بغداد ودمشق والقاهرة ومن هؤلاء نذكر الرحالة الشهير ابن جبير (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) .إلا أن ذلك لم يدم طويلا، إذ أن انعكاسات فترة عصر الانحطاط والتأخر الذي عمّ أرجاء العالم الإسلامي منذ القرن التاسع تقريبا (الذي يعتبر خاتمة عصور الرحلات العربية في القرون الوسطى) ولمدة ثلاثة قرون بحالة من التردّي والانقسام والجهل، الأمر الذي أدّى بالناس إلى الزهد والقنوط واليأس . تَمثّل كل هذا في نوعية رحلات هذه الفترة حيث اهتم الرحالة بتقديم المواعظ والحكم والأدب والدعوة إلى التصوف وتسجيل أسماء الأولياء والصالحين والتبرّك بهم، وخير من مثّل هذا النوع من الرحلات عبد الله المرّاكشي العياشي (1626-1679م) صاحب كتاب **ماء الموائد** أو الرحلة العياشية الذي لم يكن وصف المدن وذكر أحوال الأقوام بها فيه سوى أمر ثانوي بالنسبة إلى موضوع المشايخ وآداب التصوّف.

والقارئ المتأنّي لهذه النصوص الرحلية الوصفية يقف على مدى ما فيها من مفاضلة بين المدن العربية الإسلامية من جانب أهلها وطرائق حياتهم وهي مفاضلة تبدو وكأنها قامت أساسا على منطلق ديني وأخلاقي بالإضافة إلى

---

[1] - ينظر في هذا السياق رحلة الورثيلاني.

[2] - شأن ابن سعيد الأندلسي والعبدري في وصفهما لبعض البلاد العربية.

[3] - المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص33.

مجموعة من الفضائل التي قد تحلّى بها بعض حكامها مثل (الكرم والجود والبذل وتكريم العلماء والفقهاء) أو تحلى بها

أهلها مثل (الإيمان والتقوى والعفة والضيافة واعتدال المزاج) أو بيئتها الطبيعية (التراب والماء والهواء).[1]

و ما من شك في أن نظرة الرحالين إلى المدينة العربية تختلف من عين عربية إلى أخرى أجنبية ولعل ذلك ماتجلّيه النصوص التالية:

أولا:المدينة العربية في عيون الرحالتن العرب:

1- الأصطخري: أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفاسي (275هـ -350هـ) صاحب كتاب "المسالك والممالك" الذي اهتم فيه بدراسة المدينة العربية داخل الأقاليم ووصفها وصفا دقيقا مُحدّدا مواقعها، ذاكرا آثارها. ولقد قسّم الأصطخري بلاد الإسلام إلى عشرين إقليما وأفرد صورة لكل إقليم من هذه الأقاليم ثم وضع صورة شاملة سمّاها " صورة الكل" أو صورة الأرض. كما لوّن المصورات الجغرافية. أمّا المدن فقد رسمها باللونين الأصفر والأحمر على أشكال مختلفة منها ما هو على شكل أوراق الأشجار ومنها ما هو على شكل مستطيل تعلوه دوائر صغيرة ملونة. *

أما المدن الرئيسة فقد رُسمت بدائرتين إلى ثلاث ولُوّنت بالأصفر أو الأحمر[2].

2- ابن حوقل: أحمد بن حوقل النصيبي البغدادي أبو القاسم (331هـ/943م) صاحب كتاب **(صورة الأرض)** أو المسالك والممالك أيضا وهو الاسم الذي ظهر به في طبعة ليدن 1873م وفيه يذكر الغرض الأساسي من كتابه وهو وصفه الأقاليم الموجودة على سطح الأرض ،كما أنه يذكر كل شيء شاهده في الإقليم وحدوده وأهم مقاطعاته ومدنه وجباله وأنهاره وبحيراته والصحراء الموجودة به.*

وهو يتحدث عن رغبته الملحّة في ركوب الأخطار ومحبة تصوير المدن وكيفية مواقع الأمصار وتجاور الأقاليم والأصقاع.ونلمس اهتمام ابن حوقل بالمدن من وصفه لها

في أكثر من موطن وصفا ابتعد فيه عن الجري وراء العجائب وحشد الغرائب على الرغم مما نسب إليه من المبالغة التي تصدر عادة عن عاطفة مفرطة أو سذاجة أو قلة ثقافة كما في قوله في وصف **دمشق**:« وبدمشق مسجد ليس في الإسلام أحسن

---

[1] - حسين فهيم، أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، ع 138 شوال 1409/جويلية 1989، ص198.

* انظر الملحق (1).

[2] - أحمد لوسة، الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية، نقابة المهندسين العراقيين، الباب الأول، ص160.

* انظر الملحق (2)

منه».[1] وجاء في وصفه مدينة **برقة** في ليبيا قوله :« فأما **برقة** فمدينة وسطة (متوسطة) ليست بالكبيرة الفخمة ولا بالصغيرة الزريّة ولها كور عامرة وهي في بقعة فسيحة تكون مسيرتها يوما وكسرا في مثله ويحيط بالبقعة جبل من سائر جهاتها، وأرضها حمراء خلوقية التربة وثياب أهلها أبدا محمرّة وهي بحرية برّية جبلية وهي أول منبر ينزله القادم من مصر إلى القيروان[2]...»

أما مدينة **طرابلس** الليبية فيصفها بقوله : «**أطرابلس** (هكذا) مدينة بيضاء من الصخر الأبيض على ساحل البحر خصبة حصينة كبيرة ذات ربض صالحة الأسواق كبيرة وكان لها في ربضها أسواق كبيرة فنقل السلطان بعضها إلى داخل السور، وارتفاعها دون ارتفاع برقة في وقتنا هذا ...»"[3]

ويصف مدينة **فاس** فيقول :« وفاس مدينة جبلية يشقها نهر وهي جانبان يليهما أميران مختلفان ..ونهرها كبير غزير الماء عليه أرضية كثيرة وهي مدينة خصبة مفروشة بالحجارة»[4].

ولقد قدّم أبو القاسم بن حوقل البغدادي وصفا عاما للعالم في عصره ضمّنه أول وصف دقيق لبلاد المغرب والأندلس في العصور الوسطى منبها بذلك إلى أهمية المغرب ومكانته، وتعتبر المادة التي قدّمها على جانب كبير من الأهمية لأنها ملأت فراغا كبيرا في المعلومات الجغرافية عن المغرب خاصة وأن ابن حوقل لم يكن رحالة دقيق الملاحظة فحسب ولكنه كان إلى جانب ذلك عالما جغرافيا متمكنا، وما يؤكد ذلك هو أن الجغرافي أبا إسحاق **الأصطخري** التقى به في بغداد سنة 340هـ/ 951- 952م وعرض عليه تصحيح كتابه "**مسالك الممالك** "وتتميم بعض خرائطه اعجابا بمهارته في صناعة الخرائط.

وتحدّث ابن حوقل عن أربعة وثلاثين (34)مدينة وقرية وقلعة وحصن بالمغرب.

ونميز في ظاهرة التمدين التي رصدها بين نوعين من المدن:

أولا**: المدن** التي وصفها **بالقديمة والأزلية** أو **الأولية** مثل مليلة وطنجة وسلا ،ويسمّى بعضها بالمدن الجاهلية خاصة تلك التي رأى فيها تماثيل أو رسوم تدل على وثنية أهلها مثل مدينة "**تشمس**"

ثانيا**: المدن المحُدَثة** أي **الإسلامية** مثل **فاس** التي أحدثها إدريس بن إدريس، ومدينة **طنجة** التي استحدثها الأدارسة على ظهر جبل يبعد ميلا من موقع **طنجة** الأصلية الذي كان على وجه البحر : و **زلول**التي استحدثها حسن بن كنون الإدريسي واتخذها قاعدة لحكمه.

---

[1] - ابن حوقل، صورة الأرض، ليدن، مطبعة بريل، 1932، ص 89-90.

[2] - المصدر نفسه، ص نفسها.

[3] - المصدر نفسه، ص83.

[4] - المصدر نفسه، ص85.

وتؤكد إشاراته هذه على أن ظاهرة التمدين قد انتعشت خلال العصر الإدريسي، وبالخصوص بعد خروج الأدارسة من **فاس** وانتشارهم بالمنطقة الشمالية حيث بنوا عددا من المدن اتخذوها قواعد لحكمهم.
وفي وصف ابن حوقل للمدن اهتم بظاهرة تحصينها و تسويرها وهي ظاهرة كانت بحكم الظرفية التاريخية المضطربة حاجة حيوية بالنسبة لبعض الإمارات، فقد كان الأدارسة مثلا يلجأون إلى التحصينات الطبيعية كقمم الجبال وطرقها الوعرة لتأسيس مدنهم وقواعدهم مثل مدينة "**الحجر**" التي كانت عبارة عن حصن منيع على جبل شامخ احتمى فيه الأدارسة وحموا فيه أملاكهم[1].
3- المقدسي: شمس الدين عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء 336هـ-390هـ
اشتهر هذا الرحالة بتعدد رحلاته وتميز عمّن سواه بكثرة ملاحظاته وسعة نظره وحرصه على الموضوعية ووصفه الشامل المتكامل للطبيعة والبيئة والبشر و ألسنتهم وتقاليدهم ومنتجاتهم الزراعية والصناعية وملابسهم ومساجدهم مما أهله لأن يكون أبرز رجالات الرحلة الوصفية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).
وضمّن المقدسي كتابه **(أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)** ما جمعه من معلومات ومشاهدات، فجاء سجلاً حافلا بالأوصاف الدقيقة للبلاد التي حلّ بها وما كتبه عن المدن العربية التي زارها ومرّ بها في رحلاته المتعددة وهي أوصاف يغلب عليها جمال الصياغة وحلاوة السجع وصدق التضاد وعمقه ودلالته.
جاء في وصفه لمدينة **الرملة** من فلسطين قوله:« الرملة قصبة فلسطين بهيّة حسنة البناء خفيفة الماء مرحة واسعة الفواكه....والتجارة بها مفيدة والمعايش حسنة ليس في الإسلام أبهى من جامعها ولا أحسن ولا أطيب من حواريها ولا أبرك من كورتها* ولا ألذّ من فواكهها. موضوعة بين رساتيق زكية ومدن محيطة ورباطات فاضلة واسعة وأمور جامعة، وقد خطت في السهل وقربت من البحر والجبل وجمعت التين والنخل، وأنبتت الزروع على البعل* وحوت الخيرات والفضل، غير أنها في الشتاء جزيرة من الوحل وفي الصيف ذريرة من الرمل لا ماء يجري و لا خضرة ولا طين ولا ثلج. كثيرة البراغيث عميقة الأثار وهي مالحة الآبار وماء المطر في جباب مقفلة والفقير عطشان والغريب حيران...»[2].
ويقول عن مدينة **صحار** العُمانية وقد أقام بها سنة كاملة :« وصحار هي قصبة عمان ليس على بحر الصين اليوم بلد أجل منه، عامر آهل حسن طيب نزه ذو يسار وتجارة وفواكه وخيرات من زبيد، وصنعاء، أسواق عجيبة وبلدة ظريفة

---

[1] - ابن حوقل، المصدر السابق، ص81.

* الكورة:مفرد جمعه كور وهي البقعة التي تجتمع فيها المساكن و القرى.

** من الأرض، ما سقته السماء.

[2] - المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص164.

ممتدة على البحر، دُورهم من الآجر والسياج شاهقة نفيسة والجامع على البحر له منارة حسنة طويلة في آخر الأسواق ولهم آبار عذيبة وقناة حلوة وهم في سعة من كل شيء، دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق وبغوثة اليمن وقد غلب عليها الفرس ،والمصلى وسط النخيل.
ومسجد صحار نصف فرسخ ثمّ بركت ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد بُني أحسن بناء وهواؤه أطيب هواء من القصبة، ومحراب الجامع بلولب يدور تراه مرة أصفر وكرة أخضر وحينا أحمر وفجوة في أحد الجبال كبيرة. بنيانهم طين والجامع مع وسط السوق...».[1]
و المقدسي في نصوصه الوصفية التي شغلت حيزا على امتداد ما يقارب الخمسمائة صفحة من كتابه السابق الذكر يبدو مخالفا سابقيه في مجال الأدب الرحلي والذين يؤخذ عليهم

غالبا اعتماد الجمع والنقل دون المشاهدة والمعاينة وتجشّم مشاق الرحلة، لذلك قال إنّ كتابه يفضُله « لأنه وليد البحث والسفر والجهاد في سبيل العلم ولقاء العلماء وكثرة الاطلاع وبذل الأموال على التنقل والترحال...»[2].
وكأننا به قد فهم مهمة الرحالة والمنهج الذي يتعين اتباعه في جمع المادة وأسلوب الجمع بل والصفات التي يجب أن يتحلى بها الراغب في الرحلة والسفر عبر المجهول. يصف مدينة **دمشق** فيقول:« وأما دمشق فاسم القصبة أيضا ومدنها بانياس، صيدا، بيروت، اطرابلس، عرقة. ولدمشق ستّ رساتيق : الغوطة، حوران، البتنية، الجولان، البقاع، و الحولة... ودمشق هي مصر الشام ودار الملك أيام بني أمية ثمَ قصورهم وآثارهم، وبنيانهم خشب وطين، عليها حصن أحدث – وأنا بها – من طين، أكثر أسواقها مغطاة ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسَن، وهو بلد قد خرقته الأنهار و أحدقته الأشجار وكثرت به الثمار مع رخص الأسعار وثلج وأضداد، لا ترى أحسن من حمّاماتها ولا أعجب من فوّاراتها ولا أحزم من أهلها، وهي طيبة جدا غير أن في هوائها يبوسة وأهلها غاغة وثمارها تفهة ولحومها عاسية ومنازلها ضيقة وأزقتها غامّة وأخبازها ردية والمعايش بها ضيقة ... والجامع أحسن شيء للمسلمين اليوم، ولا يُعلم لهم مال مجتمع أكثر منه قد رفعت قواعده بالحجارة الموجهة كبارا مؤلفة وجعل عليها، وجعلت أساطينها أعمدة سودًا مُلسًا على ثلاثة صفوف واسعة جدا، وفي الوسط إزاء المحراب قبة كبيرة، و أدير على الصحن أروقة متعالية بفراخ فوقها (أقواس) ثم بُلّط جميعه

[1] - المصدر نفسه، ص97-98.
[2] - المقدسي، المصدر السابق ، ص2-3.

بالرخام الأبيض، وحيطانه إلى قامتين بالرخام المجزّع ثم إلى السقف بالفسيفساء الملونة...».[1]

4- المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن عبد الله (ت346هـ) وهو من أشهر الرحالين العرب في القرن العاشر الميلادي وقد لقبه الأوروبيون **هيرودوت العرب** كما لقّبه ابن خلدون (إمام المؤرخين) فقال عنه « وصار إماما للمؤرخين يرجعون إليه أصلا ويعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم عليه»[2]. وأطلق **سارتون** اسمه على النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) إذ سمّاه عصر المسعودي[3].

وقد صف المسعودي البلدان التي زارها وصفا دقيقا قائما على المشاهدة في أسلوب سردي جذّاب ممتع كاد يجعل منه أحد أكبر قصّاصينا وروائيينا لولا أن البعض في ذلك الزمان كان يرى هوان شأن القصّ وضآلة قدر أصحابه.

ألّف المسعودي ما يزيد على أربعة وعشرين كتابا أهمها: **مروج الذهب ومعادن الجوهر** وكتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران.

يقول المسعودي في وصف مصر ليلة الغطاس: «وليلة الغطاس لها بمصر شأن عظيم عند أهلها، لا ينام الناس فيها وهي ليلة إحدى عشر تمضي من طوبة* وستة من كانون الثاني، ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس بمصر والإخشيد محمد بن طفيح في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطيف بها وقد أمرنا فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألفا مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع، وقد حضرت النيل في تلك الليلة عدة آلاف من الناس المسلمين والنصارى ، منهم في الزوارق ومنهم في الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط لا يتناكرون الحضور ، ويحضرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي أو العزف والقصف و هي أحسن ليلة تكون بمصر...».[4]

5- الإدريسي: 493هـ1160م الملقب بالشريف لامتداد نسبه إلى الحسين بن علي ابن أبي طالب (ض) وهو أحد أبرز الرحالين والجغرافيين العرب في القرون الوسطى (القرن السادس هجري) الثاني عشر الميلادي وصاحب كتاب(**نزهة المشتاق في اختراق الأفاق)** الذي ذكر فيه أهم المدن والحصون محددا مواقعها وأظهر اهتمامه

---

[1] - المصدر نفسه، ص 172.

[2] - ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت ط2، المجلد1، سنة 1971، ص52.

[3] - فؤاد قنديل، أدب الرحلات مكتبة الدار العربية للكتاب القاهرة 2002 ص211.

* طوبة:من اشهر السنة القبطية، يصادف شهر جمادى الأولى، (أنظر الملحق3).

[4] - المسعودي أبو الحسن، مروج الذهب، ج1، ص343.

الزائد بدراسة المدن التي زارها خاصة في الأقسام التي أفردها لإفريقيا الشمالية وإسبانيا وصقلية حيث اهتم خلافا للأقسام الأخرى من كتابه بالإعتماد على الملاحظة الشخصية فوصفها وأجاد الوصف وحرص على حشد المعلومات المختلفة المتنوعة في شتى مناحي الحياة بهذه المدن مما جعل عمله متميزا جامعا إلى حد كبير ،كل ذلك إنما تأتى له بفضل رغبة نهمة وشهوة جامحة للعلم ودقة في الملاحظة وسفر طويل التّهم جل عمره حتى سمعناه يردد:

لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ قَبْـرِي ضَاعَ فِي الغُرْبَةِ عُمْرِي
لمْ أَدَعْ لِلعْيـن مَا تَشْـ تَاقُ فِي بَـرٍّ وَبَـحْرِ
وخَبِرْتُ النّاسَ والأرض لَـدَى خَيْـرٍ وَشَـرِّ
لمَ أَجِدْ جَـارًا وَلَادَاً رًا كَمَا في طَـيِّ صَدْرِي
فَكَـأَنِّي لمَ أَسِـرْ إلاَّ بمَيْـتٍ أَوْ بِـقَـفْرِ.[1]

ومن جيد شعره قوله على بحر الخفيف :

إنَّ عَيْباً عَلَى المَشَارِقِ أَنْ أَرْ جع عنهَا إِلىَ دُيـولِ الْمغَارِبْ
وعَجِيبٌ يَضِيعُ فيهَا غريبٌ بَعْدَمَـا جاءَ فِكْرُهُ بِالغَرايِبْ
وَيُقَاسُ الظمَا خِلاَلَ أَنَـاسٍ قَسَّمُوا بَيْنَـهُمْ هَدَايَا السَّحَايَبْ.

يصف الإدريسي مدينة **بيروت** فيقول:« بيروت مدينة على ضفة البحر عليها سور حجارة كبيرة واسعة ولها بمقربة منها جبل فيه معدن حديد جيد يقطع ويستخرج منه الكثير ويحمل إلى بلاد الشام، وبها غيضة أشجار صنوبر مما يلي جنوبها تتصل إلى جبل لبنان ... ومنها إلى دمشق يومان...»[2].

أما مدينة **فاس** فيصفها بقوله :« ومدينة فاس مدينتان بينهما نـهر كبير يأتي من عيون تسمى عيون صنهاجة ، وعليه في داخل المدينة أرجاء كثيرة تطحن بها الحنطة بلا ثمن ،له خطر . والمدينة الشمالية فيها تسمى القرويين وتسمى الجنوبية الأندلس . والأندلس ماؤها قليل، ولكن يشقها نهر واحد يمر بأعلاها ، وينتفع منه ببعضها، وأما مدينة القرويين فمياهها كثيرة تجري منها في كل شارع وفي كل زقاق ساقية متى شاء أهل الموضع فجّروها فغسلوا مكانهم منها ليلا فتصبح أزقتهم ورحابهم مغسولة وفي كل دار منه صغيرة كانت أم كبيرة ساقية ماء نقيا كان أو غير نقي، وفي كل مدينة فيها جامع ومنبر وإمام وبين المدينتين أبدا فتن ومقالات. وبالجملة أن أهل مدينتي فاس يقتل فتيانها بعضهم بعضا... وبمدينة فاس ضياع ومعايش ومبان سامية ودور وقصور ..ولأهلها اهتمام بحوائجهم ومبانيهم وجميع آلاتهم ونعمها كثيرة والحنطة بها رخيصة الأسعار جدا دون غيرها من البلاد القريبة منها وفواكهها كثيرة وخصبها زائد وبها في كل مكان منها عيون

[1] - صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، مطبعة الحلبي، القاهرة، 1936، ص175.

[2] - الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، لطبعة الأولى، بيروت،1989م ج1 ،ص249.

غزيرة وجهاتها مخضرّة مونقة وبساتينها عامرة وحدائقها ملتفّة وفي أهلها عزة ومنعة...»[1].

6- البكري: أبو بكر عبد الله الأندلسي:(405هـ-487هـ)(1014م-1094) صاحب "**المسالك والممالك**". يصف البكري **مدينة الجزائر** وصفا يُظهر أنها مدينة عريقة في القدم، وأن آثارها كثيرة حتى يُظن أنها كانت عاصمة للبلاد في وقت من الأوقات، وأن عظمة كنيستها التي حُوّلت إلى مسجد تدل على قيمتها التاريخية، وأنه كان لها شأن عظيم في العهد الروماني حيث كانت تتركز بها الديانة المسيحية، وتقوم بها المدرسة الوهبية...« جزائر بني مزغنى هي مدينة جليلة قديمة البنيان فيها آثار للأوّل وآزاج محمكمة تدل على أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم ، وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة ملونة صغار مثل الفسيفساء فيها صور للحيوان بأحكم عمل وأبدع صناعة لم يغيرها تقادم الزمن ولا تعاقب القرون ، ولها أسواق ومسجد جامع . وكانت بمدينة بني مزغنى كنيسة عظيمة بقي منها جدار مدوّر من الشرق إلى الغرب وهو اليوم قبلة للشريعة للعيدين مجصّص كثير النقوش والصور ومرساها مأمون له عين عذبة يقصد إليها أهل السفن من أهل إفريقية والأندلس وغيرهما، وهو مرسى مأمون...».[2]

7- أما صاحب الإستبصار (مجهول)، في أواخر السادس الهجري فيصف مدينة **مراكش** بقوله :« ومدينة مراكش اليوم من أعظم مدن الدنيا بهجة وجمالا بما زاد فيها الخليفة الإمام وخليفته أمير المؤمنين أبو يعقوب وخليفتهما أبو يوسف (ض) فإن الإمام بنى بها جامعا عظيما ثم زاد فيه مثله أو أكثر في قبلته، ورفع بينهما المنار العظيم الذي لم يشيّد في الإسلام مثله وأكمله ابنه وخليفته أبو يعقوب (ض). وجلب الخليفة الإمام المياه من أودية درن وغرس بْحِيرَة عظيمة بغرب المدينة قبل نفيس دورها ستة (6) أميال وبنى فيها وخارجها صهريجين عظيمين كنّافي تلك المدّة نعوم فيهما...

وأحدث الخليفة بعده ابنه أبو يعقوب بَحائرَ مثلها في الغرس بل أجمل وجلب لها المياه وأخذها في صهاريج أعظم من المتقدمة ولم يبق في مدائن الأرض أعظم منها...».[3]

8- ابن سعيد الأندلسي: أبو الحسن علي بن موسى :605-785هـ/1208-1286م أشهر الأدباء الرحالين في القرن السابع الهجري وصاحب كتاب" **المُغرب في حُلَى المَغرب**" الذي دوّن فيه رحلته واعتُمد عليه كثيرا في استقصاء أخبار ومعالم الأندلس والمغرب.

---

[1] - الإدريسي، المصدر السابق، ص121.

[2] - البكري، المسالك والممالك (المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب) دار المثنى، بغداد، 1965، ص52.

[3]- مجهول المؤلف، كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق زغلول عبد الحميد، الاسكندرية، 1958، ص ص209-210.

يقول في وصف **مدينة بلنسية** وخيراتها :" كورة بلنسية من شرق الأندلس ينبت بها الزعفران وتعرف بمدينة التراب وبها كمثرى تسمى الأرزة في قدر حبة العنب ، قد جمع مع حلاوة الطعم وذكاء الرائحة إذا دخل عرف بريحها ويقال أن ضوء بلنسية يزيد عن ضوء سائر بلاد الأندلس.

وبها منازه ومسارح ومن أبدعها وأشهرها الرصافة ومبنية أبي عامر"[1]، ولعل في هذا الوصف ما يدل على قدرة ابن سعيد الفائقة على الملاحظة والالتقاط إذ الملاحظ أنه قلما يتحدث الرحالة عن الضوء في مدينة (وأنها أكثر ضوء من غيرها).

ويصف **مدينة مراكش** في عصر الموحدين وهي المدينة التي سكن بها ردحا من الدهر حتى عرفها ظاهرا وباطنا وتبادلا من المودة ما ملأ عليه حناياه وغض طرفه عن كل ما يزري بها من الهنَّات حتى قال«.. وهي مما سكنت بها وعرفتها ظاهرا وباطنا ، ولا أرى عبارة تفي بما تحتوي عليه ويكفي أن كل قصر من قصورها مستقل بالديار والبساتين والحمام والاصطبلات والمياه وغير ذلك، حتى أن الرئيس منهم يغلق بابه على جميع خوله وأقاربه وما يحتاج إليه ولا يخرج من بابه إلى خارج داره لحاجة يحتاجها ، ولا يشتري شيئا من السوق لمأكل، ويقري أولاده في مكتب.

وبظاهرها مدينة اختطها المنصور يعقوب -يقصد القصبة التي بناها المنصور- ولخواصه بمراكش وبها قصر الخلافة الذي بناه ،به دور عظيمة وبها بستان يعرف بالبخير طوله اثنا عشر ميلا وبه برْكة عظيمة لم يعلم مثلها. وبمراكش جامع جليل يعرف بالكتبيين طوله مائة وعشرة أذرع وعلى بابه ساعات مرتفعة في الهواء خمسين ذراعا كان يرى منها انقضاء كل ساعة صنجة* زنتها مائة درهم تتحرك لنزولها أجراس تسمع على بعد تسمى عندهم بالبجانة ».[2]

كما أنّ ابن سعيد يجنح في أحيان كثيرة إلى المبالغة في الوصف خاصة إذا تعلق الأمر ببلاده، فالكمال مقصور عليها دون سواها من البلاد، وفي نصوصه الوصفية ما يؤكد هذه الحقيقة، يقول في وصف جزيرة الأندلس ومن خلالها يعرض لمصر -دون مبرر- :« ولقد تعجبت لمّا دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التي يكدّر العين سوادها ويضيق الصدر بضيق أوضاعها، وفي الأندلس جهات تقرب فيها المدينة العظيمة الممصرة من شلها، والمثال في ذلك أنك إذا توجهت من أشبيلية فعلى مسيرة يوم وبعض آخر **مدينة طريش،** وهي في نهاية من الحضارة والنضارة ، ثم يليها الجزيرة الخضراء كذلك ثم مالقة ، وهذا كثير

1- ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت1982 ج2ص116.

* صنجة:صفيحة مدورة من النحاس الأصفر تضرب على أخرى مثلها للطرب .

1- ابن سعيد الأندلسي، المصدر السابق، ج3، ص346 .

في الأندلس ... وأنا أقول كلاما فيه كفاية ..مُذ خرجت من الأندلس وطفت في بَرّ العدوة في المغرب الأوسط فرأيت بجاية وتونس ، ثم دخلت الديار المصرية فرأيت الأسكندرية والقاهرة والفسطاط ، ثم دخلت الشام فرأيت دمشق وحلبا وما بينهما ، لم أر ما يشبه رونق الأندلس في مياههما وأشجارها إلا مدينة فاس بالمغرب الأقصى ، ومدينة دمشق بالشام ، وفي حماة مسحة أندلسية ولم أر ما يشبهها في حسن المباني والتشييد والتصنيع إلا ما شيد في مراكش في دولة بني عبد المؤمن ، وبعض الأماكن في تونس وإن كان الغالب على تونس البناء بالحجارة كالإسكندرية ، ولكن الإسكندرية أفسح شوارعا وأبسط وأبدع ، ومباني حلب داخلة فيما يستحسن لأنها من حجارة صلبة وفي صنعها وترتيبها إتقان...[1].».

ومن جيد شعره الوصفي قوله في **مدينة الصالحية** بمصر:

تَأمّلْ لِحُسْنِ الصَّالِحِيّةِ إذاَ بدَتْ وَأبـرَاجُهَا مِثْلُ النُّجُومِ تَلاَلاَ
وَوَافىَ إلَيْهاَ النِّيلُ بَعْدَ غاَيَــةٍ كمَا زاَر شَغُوفٌ يرُومُ وِصَالاَ
وعاَنَقَهَا مِنْ فَرْطِ شَوقٍ مُحِبُّهاَ فَمَدَّ يَـمِينًا نحْوَهَا وَشِـمالا[2]

وعندما خرج ابن سعيد الأندلسي لزيارة الفسطاط لفت انتباهه مشهد لم يألفه من قبل فأهل القاهرة «لم يكونوا يأكلون في الأسواق أو قارعة الطريق فحسب بل كانوا يأكلون في المسجد الجامع مما أثار دهشته إذ عاين عند انتهائه إلى جامع عمرو جامعا كبيرا قديم البناء غير مزخرف ثم لم يلبث أن أبصر العامة رجالا ونساء قد جعلوه معبرا بأوطئة أقدامهم يجوزون فيه من باب ليقرّب عليهم الطريق . والبيّاعون يبيعون أصناف المكسّرات والكعك ، وما جرى مجرى ذلك ، والناس يأكلون منه في أمكنة عديدة غير محتشمين لجري العادة عندهم بذلك، وفضلات مأكلهم مطروحة في صحن الجامع وفي زواياه والعنكبوت قد عظم نسجه في السقوف....

والعجيب بعد ذلك هو ما يختم به ابن سعيد وصفه لجامع عمرو إذ يقول :« إلا أن مع هذا كله على الجامع المذكور من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس مالا تجده في جامع أشبيلية مع زخرفته والبستان الذي في صحنه . ولقد تأملت ما وجدت فيه من الارتياح والأنس دون منظر يوجب ذلك وعلمت أنه سرّ مودع من وقوف الصحابة (رض) في ساحته عند بنائه...».[3]

9- لسان الدين بن الخطيب: الأديب والرحالة الأندلسي (1374/1313هـ)، حين ضعف شأن مدينة **مراكش** في عصر بني مرين، لاتخاذهم مدينة فاس حاضرة لهم فتأثر عمرانها بذلك ، وانخفضت مكانتها السياسية وصف ابن الخطيب أسوارها

---

[1] - المصدر نفسه، ص456.

[2] - ابن سعيد الأندلسي، المصدر السابق، ص471.

[3] - منقول عن المقريزي، ، الخطط المقريزية، مؤسسة الحلبي وشركائه للنشر والتوزيع، القاهرة، ج 1، ص341.

الحصينة بقوله:« اقتعدت البسيط المديد واستظهرت بتشديد الأسوار وأبراج الحديد وبكى الجبل من خشيتها بعيون العيون ، فسالت المذانب كصناع القيون، وقيّدت طرف الناظر المفتون أدراج الشجر بها وغابات الزيتون ...زينها الزمن بعصر وخيرها بمد لا يقصر، وفواكهها لا تحصى ولا تحصر ، فإذا تناصف الحر والبرد ، وتبسّم الزهر وخجل الورد ، وكسا غدرانها الحائرة الحلق السرد قُلت أنُجِز للمتقين من الجنةالوعد وساعد السعد ، وما قلت إلا بالذي علمت سعد»[1].

ثم يصف خرابها في عصر بني مرين في أسلوب طغى عليه الجِرس الموسيقي المتولّد عن شدة الألفاظ المسجوعة فيقول :« وخرابها موحش هائل ، وبعد الأقطار عن كثير من الأوطان بها حائل ، وعدوها ينتهب في الفتن أقواتها ، وجرذان المقابر تأكل أمواتها وكانت أولى المنازل بالأغياء ، لو أنهها اليوم معدودة في الأحياء»[2].

10- ابن جبير: من الرّحالة الذين تمّتعوا بشهرة عريضة واعتُمد على مؤلفاتهم المؤلفون من بعدهم ، واهتموا في كتاباتهم بوصف المدن بصورة دقيقة تتناول جميع مرافقها من مساجد وأسواق وحتى الشوارع والمنازل والأبواب وكذا الضواحي.

هو أبو الحسن محمد بن أحمد (540هـ-626هـ/1145م-1292م) الأديب الشاعر الفقيه وأشهر رحالة القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) صاحب (**تذكرة الأخبار عن الاتفاقات والأسفار)** المشهور برحلة ابن جبير والتي ضمّنها أخبار رحلاته الثلاث للحج ، وما شاهده من أحوال البلاد والعباد في المدن التي عبرها أو حطّ الرحال بها بطريقة سردية محببة إلى النفس، تنم عن حسّ قصصي متدفق حتى وإن جافاه الوصف المتعمق للمشاعر والأحاسيس في أكثر مواطن الوصف. والكتاب يكشف عن صدقه في التعبيروتصوير المشاهد وعدم سعيه إلى الغرائب والعجائب شأن من سبقه.

يصف ابن جبير **مدينة دمشق** وصفا لا يرقى إلى مستوى ما في وصف المقدسي السابق للمدينة نفسها من حيث الإحاطة بالجزئيات ودقة الملاحظة فيقول :« دمشق جَنّة المشرق ومطلع حسنه المؤنس المشرق ، وهي خاتمة بلاد الإسلام التي استقرينا بها وعروس المدن التي اجتليناها، قد شُملت بأزاهير الرياحين، وتجلّت في حلل سندسية من البساتين وحلت في الموضوع بالمكان السكين، وتزينت في منعتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه صلى الله عليهما منها إلى ربوة ذات قرار ومعين، ظل ظليل وماء سلسبيل تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل ، ورياض يحي النفوس نسيمُها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى

---

[1] - لسان الدين بن الخطيب، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس، تحقيق مختار العبادي، الأسكندرية، 1958، ص108.

[2] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

صقيل وتناديهم هلمُّوا إلى معشر للحسن ومقيل، وقد سَئِمَتْ أرضُها كثرة الماء حتى اشتاقت إلى الظمإ فتكاد تناديك بها الصمُّ الصلاب: اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب..قد أحدقت بها البساتين إحداقا الهالة بالقمر واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر، وامتدت ببريق غوطتها الخضراء امتداد البصر ... إن كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها، وإن كانت في السماء فهي بحيث تساميها وتحاذيها... وفي داخل البلد كنيسة لها عند الروم شأن عظيم تعرف بكنيسة مريم ليس بعد بيت المقدس عندهم أفضل منها هي حفيلة البناء تتضمن من التصاوير أمرا عجيبا تُبهت الأفكار وتستوقف الأبصار ومرآها عجيب وهي بأيدي الروم ولا اعتراض عليها فيها...»[1].

ويصف **مدينة نصيبين** ـ أبقاها الله ـ فيقول:« شهيرة العتاقة والقدم ، ظاهرها شباب وباطنها هرم، جميلة المنظر متوسطة بين الكبر والصغر يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مَدَّ البصر، قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه وتطّرد في نواحيه، وتحفّ بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الأشجار يانعة الثمار ينساب بين يديها نهر ، قد انعطف عليها انعطاف السوار ، والحدائق تنتظم بحافتيه، وتفيء ظلالها الوارفة عليه، فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانئ حيث يقول:

طَابَتْ نُصَيْبِينُ لِي يَوْماً فَطِبْتُ لهَا   ياَ لَيْتَ حَظِّي فيِ الدُّنِيَا نُصَيْبِينُ.

11- العبدري: (ولد688هـ-1289م): محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعيد : أحد مشاهير الأدباء واللغويين الرحالة في القرن السابع عشر الهجري الثالث عشر الميلادي صاحب (الرحلة العبدرية) أو المغربية التي دوّن فيها تفاصيل مشاهداته في المغرب العربي ومدنه وطرقه وسبل عيش سكانه وطبائعهم وذلك في أسلوب أدبي وصفي قوامه العبارة العذبة والألفاظ المختارة بدقة فائقة وحسن التصوير والصدق في النقل وإن كنّا نقف في بعض مشاهداته على أحكام قاسية يعزوها بعض النقّاد والدارسين إلى« شظف العيش في الريف الجبلي بـ(الصويرة) من مراكش بعيدا من العمران حتى جفت طباعه وغلظت

روحه، أضف إلى ذلك أنه كان رجلا متشائما سيء الظن،وهو إلى هذا كله لا بد قد عانى الكثير وقاسى من الناس والظروف ما لاقبل له به، وما لا يقدر عليه».[2]

ثم يقول في وصف **تونس** مبرزا تفوقها على غيرها من المدن بحسنها الخلاّب ومعمارها الجذّاب : «وتونس حرسها الله ذات أبنية كبار حسان ذات الأبواب الجميلة المصنوعة من الرخام ..للمدينة عدة أبواب يمكن الدخول منها ، وخارج كل منها بناية جميلة تكاد تكون في اتساع المدينة نفسها .. ولو أن تونس يتاح لها نهر يروي عطشها لفاتت جميع الحواضر الإسلامية .. ولكن من سوء الحظ فماؤها

---

[1] - رحلة ابن جبير، بيروت للطباعة والنشر، لبنان، ص234-235.

[2] - فؤاد قنديل، أدب الرحلات ، ص472.

نزر يسير ، والناس يشربون ماء الأمطار الذي يخزّنونه في الآبار ... والماء الذي تحمله قناة زغوان إلى المدينة إنما يحمل إلى قصر السلطان وحدائقه ، وثمة كمية ضئيلة يسمح لها بالوصول إلى جامع الزيتونة، ومن هذه يستقي الغرباء وأولئك الذين ليس في بيوتهم آبار ... وجامع الزيتونة يعتبر من أجمل الأبنية الحجرية، يتوسطه صحن واسع تدور به أروقة معمّدة... وتونس مدينة كبيرة الأهمية إذ هي عاصمة إفريقيا أي ما يسمّى اليوم القطر التونسي..ولم أر في الشرق ولا في الغرب قوما كأهلها في دماثة الخلق ورقة الطبع ، وفي أهلها من بلغ في العلم الدرجة القصوى ، ومنهم من يمتاز بعلو الهمة ... وهناك من يترك عمله ليستمتع بصحبة عالم..."[1].

وهو وصف كما يلاحظ مغاير تماما لما وصف به مُدُنا أخرى كما سنرى في مواضع لاحقة من البحث.

ويصف مدينة بونة(عنابة) فيقول : وجدناها بطوارق الغِيَر مغبونة مبسوطة البسيط ولكنها بزحف النوائب مطوية مخبونة، تلاحظ من كثب فحوصا ممتدة وتراعي من البحر وجزره ومدّه، تغار لها العيون من جور النوائب، وتأسى لها النفوس من الأسهم الصوائب وقد أزعج السفر عن حلولها فلم أقض وطرا من دخولها...ومن أغرب المسموعات أن صادفت

وقت المرور بها زورقا للنصارى لا يبلغ عمارته عشرين شخصا وقد حاصروا البلد فقطعوا الدخول والخروج وأسروا من البشر أشخاصا..."[2]

ولعل هذا الوصف لم يرق أهل بونة وإلاّ بما نفسّر ردَّ أديبهم ومؤرِّخهم أحمد بن علي البوني صاحب (التعريف ببونة الإفريقية) حين يقول :« وأما كلامه (يقصد العبدري) في بلدنا بونة فلا يقبل ذلك إلا كل ذي نفس بتصديق الكذب مغبونة ، أيمكن في عقل عاقل أن تكون بلد فيها من رجال المؤمنين مِئون حذرون يغلبهم من الكفار عشرون ؟! كلا لا يقبل هذا عقل عاقل وإنما هو كذب من الناقل (يقصد العبدري) وما خلق الله تعالى العقل في الإنسان إلاّ ليميز في الإنسان بين الكذب والصدق..."[3]

وللإشارة فإن العبدري أدخل مدينة بونة ضمن منظومته الشعرية للرحلة ، ومماقال فيها:

---

[1] - العبدري، الرحلة العبدرية، تحقيق محمد الفاسي، الرباط 1968،ص39ــ41.

[2] - العبدري، المصدر السابق، ص37.

[3] - أحمد البوني بن علي، التعريف ببونة إفريقيا ،تقديم عثمان الكعّاك،الدار التونسية للنشر،تونس1972ص.112

وَبُونَةٌ قَدْ أَبَانَتْ مَنْ أَبَانَتْ   صُرُوفُ الدَّهْرِ مَنْ سَامَ سَرَى

وحقيقة الأمر أن العبدري لم يبالغ في وصفها بأسلوبه الرشيق وعباراته المنمقة وهي تعاني أوضاعا سيئة قاسية خاصة عندما انهارت تجارتها واضمحلت صناعتها بفعل التنافس والتناحر بين فروع الأسرة الحفصية في كل من تونس وقسنطينة وبجاية فلم تتمكن المدينة من المحافظة على سير الحياة العادية بها رغم فترة الاستقرار القصيرة التي عاشتها بين سنتي 759هـ و762هـ عندما أصبحت عاصمة للأمير الفضل الحفصي. فعادت أحوالها إلى الانكماش والتقهقر من جديد منذ أن أقطعها أبو العباس ملك بجاية الحفصي لابن أخيه عبد الله محمد سنة 762هـ.

وما كان من نتائج هذا الوضع السيئ إلاّ أن شق سكان عنابة عصا الطاعة على الحكام الحفصيين وتمكنوا في نهاية الأمر من طرد عامل السلطان الحسن الحفصي ، وتوجيه الدعوة بعد ذلك إلى خير الدين بربروسة سنة 940هـ 1533م طلبا للنجدة من سوء أحوالهم...

وأما ما عدّه العبدري من أغرب المسموعات لأن عشرين شخصا فقط يتحكمون بمدينة فهذا دليل على انحطاط أمرها وذبول حيويتها من كثرة الغارات عليها.

وفي **المقدمة** يحاول ابن خلدون أن يعلل أسباب تواتر غارات النصارى على بونة، وطمعهم بها بالبنية الجغرافية لموقعها الذي لا يقوم في موضع متوعّر من الجبل، كما أن أهلها كانوا من «الحضر المتعوّدين للدعة وقد خرجوا عن حكم المقاتلة ، وصاروا عيالا، وليس بساحتها عمران للقبائل أهل العصبيات...»، شأنها في ذلك شأن طرابلس من المغرب وسلا والاسكندرية من المشرق ، وهي بموقعها هذا على نقيض سبتة وبجاية وبلد القل على صغرها والتي اختطت في هضاب الجبال وتكاثرت القبائل والعصائب حولها. فكان لها بذلك منعة من العدو فيئس من طروقها لما يكابد من وعرها»[1] .

ويصل العبدري إلى مثار سخطه وعتابه ورضاه وإعجابه، ونعني جانب الدين ومجالاته والعلم ورجالاته فيقول:« وأهلها يواظبون على الصلاة فيه (الجامع)مواظبة رعاية ولهم في القيام به تهمّم وعناية، فهو بهم مأهول عامر يتخلل أنسه مسلك الأرواح ويخامر، وهذا البلد بقية قواعد الإسلام ومحل حلله من العلماء الأعلام ، وله من حسن المنظر وطيب المخبر... ولأهله من حُسن الخلق والأخلاق ما أنبأ عن طيب الهواء والماء والتربة والأعراق، غير أنه اعتراه من الغِير ما شمل في هذا الأوان البدو والحضر وقد غاض بحر العلم الذي كان به حتى عاد وشلا* وعفا رسمه حتى صار طللا ، وبه آحاد من طلبة العلم وقد اقتصر

---

[1] - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص349.

* الوشل :القليل من الدمع (الماء الفليل).

على مطالعة الصحف والدفاتر وسلكوا في ترك تصحيح الرواية طريقا لم يرضه الأعلام والأكابر"[1].
ويبدو من الفقرة الأخيرة أن العبدري لم يعترف بالعلم للذين اقتصروا على مطالعة الصحف والدفاتر (أي الناقلين) ونحن نعلم أن أحد أبناء بجاية البررة " أحمد الغبريني" ترجم في مؤلفه " عنوان الدراية" لمائة وخمسين من أعلام بجاية وما جاورها من القرى..!!.
والعبدري نفسه اجتمع بعدد غير قليل منهم كناصر الدين المشدالي وغيره.
وفي طريق العودة يصف **مدينة تونس** ثانية فيقول: ثم وصلنا إلى مدينة تونس مطمح الآمال ، ومصاب كل برق ومحط الرجال من الغرب والشرق، ملتقى الركاب والفلك وناظمة فضائل البَرّين في سلك، فإن شئت أصحرت في موكب وإن شئت أبحرت في مركب ، كأنها ملك والأرباض لها إكليل وأرجاؤها روضة باكرتها ريح بليل، إن وردت موردها نفعت غليلا، وإن وردت فرائدها شَفيت حشا عليلا، جُلّيت بها عروس الفردوس ، وحلت بها على ممر الجروس الطروس ، لاتنشد بها ضالة من العلم إلا وجدتها ولا تلتمس فيها بغية معوزة إلا استفدتها، أهلها ما بين عالم كالعلم رافع بين أهله للعلم ، ومعطل حد الظبي بحد العلم وسلم على ربع بذي سلم شاك من وجده فرط الألم فاقت بحسن معانيها وإتقان مغانيها غيرها من المدن وطالت وسطت بنخوتها على قواعد الشرق والغرب وصالت، وترجم حسنها البهيج وعرفها الأريج عن معناها ، ولو نطقت لقالت:

أناَ الغَادَةُ الحَسْناءُ فاقَ جمَالُـها   فقَالَتْ يـَمينًا لاَ خُطِبْتُ علَى زَوْجِ
إذاَ الغَانِيَاتُ ارْتَدْنَ وَصْلَ بعُولَةٍ   فمَابِي ولاَ فَخْرُ إلَى الزَّوْجِ مِنْ حَوْجِ
أُغَادِي إذَا شِئْتُ ظبيا بِقَـفْرةٍ   وأطْرُقُ نوُنَ اليَمّ فيِ ظُلَـمِ المَوْجِ
وَفِيَّ لمِكْدُود الحَجِيجِ اسْتِرَاحَـةٌ   فَهُمْ يَرِدُونـيِ الدَّهْرَ فَوْجًا علَى فَوْجٍ.
وإنـيِّ إلـىَ البَيْتِ العَتِيقِ كَسُلَّمٍ بِهِ   ترَتَقِي مَنْ فِي الحَضِيضِ إلَى الأوَجِ.

و**هذه** المدينة كلاها الله من المدن العجيبة الغريبة وهي في غاية الاتساع ونهاية الإتقان والرخام بها كثير وأكثر أبواب ديارها معمول به عضائد وعتب، وجل مبانيها من حجر منحوت محكم العمل، ولها أبواب عديدة وعند كل باب منها ربض يتسع على قدر البلد المستقل، ولو اتفق أن يكون بها ماء جار لكانت معدومة النظير شرقا وغربا ولكن ماءها قليل وفي ديارها مصانع لماء المطر وهو المستعمل عندهم وأما الساقية المجلوبة من ناحية **زغوان** فقد استأثر بها قصر السلطان وجنانه إلا رشحا يسيرا سُرّب إلى ساقية جامع الزيتونة يرتشف منها في أنابيب من رصاص ويستقي منها الغرباء ومن ليس في داره ماء ويكثر عليها الإزدحام..."[2].

---

[1] - العبدري الرحلة، ص27.

[2] - العبدري، المصدر السابق، ص966.

12- التيجاني: أبو عبد الله بن محمد بن أحمد: من الرحالة الذين خالفوا التقاليد المألوفة عند الرحالين الذين درجوا على وصف ما اجتازوا به من الآفاق وقت مفارقتهم أوطانهم إلى حين عودتهم إليها وصفا يتماشى مع ما تصبو إليه أنفسهم وترتاح إليه خواطرهم ، ويتفق مع ميلهم الغريزي وتكوينهم العلمي، فيقصرون تقييدهم على ما كان يقصد من ترحالهم كالتعرف على رجال العلم والدين ولا سيما أهل الحديث وأئمة الفقه، ويغضون الطرف عما سوى ذلك من وصف البلاد وما امتازت به، وما احتوت عليه من معالم ورسوم وعادات، فقد وفق إلى مراعاة ذوق جمهور القرن بمشاهداته عامة متنوعة تشمل كل ما يمكن أن يقال ويكتب عن البلد المزُور من سائر نواحيه الجغرافية والتاريخية والعمرانية والاقتصادية بحيث يجعل القارئ رفيقا ملازما له في سفره وصاحبا في تنقلاته ومنصتا لحديثه ومشاركا له في مشاهداته.

قال في وصف **مدينة سوسة** التونسية بين سنتي 706هـ و 708هـ :« ثم ارتحلت عن أهريقيلية يوم الجمعة ثاني جمادى الأخرى فنزلنا بسوسة وهي مرحلة قريبة، وسوسة مدينة كبيرة على سفح جبل عال وعليها سور منيع من الصخر ينتهي البحر إليه ويضطرب فيه، وبها آثار للأوَّل، وإليها تنسب الثياب الرفيعة السُّوسية، والمسافرون يقصدونها من الآفاق، وبها جامع للخطبة حسن كان بناؤه في ولاية أبي العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب سنة ست وثلاثين ومائتين على يد خادمه. وكانت سوسة إذ ذاك قرية .. ولم تزل سوسة معروفة بالامتناع عمّن رامها، وأهلها يوصفون بالبأس والرهبة والنجدة وحسبك من امتناعها ونجدتهم أن أبا يزيد سعى إلى تملّكها وفعل فيهم الأفعال الشنيعة من قتل الرجال وسبي النساء وقطع الأعضاء وبقر البطون ، خالفوا عليه وبايعوا أبا القاسم الشيعي..

وقد قال أحمد بن أفلح[1] من قديم شعرائها:

مَدِينَةٌ سُوسَةَ بِالْغَـرْبِ ثَغْرٌ	تَدِيـنُ لَهُ المَدَائِنُ وَالثُّغُـورُ
لَقَدْ لُعِنَ الذين بغَـوا عَلَيهَا	كَمَا لُعِنَتْ قُرَيْضَةٌ وَالنَّضِيـرُ
أتاَهَا الخَارِجُـونَ لِيَمْلِكُوهَا	فَكَـانَ مِنَ الإلَهِ لهَا نَصِيـرُ
ولَوْلاَ نَصْرَهُ لَـدَهَتْ دَوَاهٍ	يَشِيـبُ لهَا الطِّفْلُ الصَّغيـرُ
سيَبْلُغُ ذِكْرُ سُوسَةَ كُلَّ أَرْضٍ	ويَغْشَـى أَرْضَهَا الجَمْعُ الغَفِيرُ.

13- الهروي: أبو الحسن علي بن أبي بكر /ت 711هـ 1215م: الذي لم يترك ـ كما ذكر ابن خلكان ـ بلدا ولا بحرا ولا سهلا ولا جبلا من الأماكن التي يمكن قصدها

[1] - هو سهل بن ابراهيم الوراق كما ورد في كتاب المسالك والممالك للبكري، ص35.

ورؤيتها إلا رآه، ولم يصل إلى موضع إلا كتب خطه في حائطه، ولقد شاهدت ذلك في البلاد التي رأيتها مع كثرتها.."[1]

وضمّن كتابه (**الإشارات إلى معرفة الخيارات**) مشاهداته الوصفية لمعالم المدن التي زارها وعايش أهلها ودرس آثارها، خاصة مساجدها مما يؤكد نزعته الصوفية التي نلمسها في أسلوبه الوصفي.

يقول الهروي في وصف **مدينة طبرية** من فلسطين « وأما حمّامات طبرية التي يقال إنها من عجائب الدنيا فليست هذه التي على باب طبرية على جانب بحيرتها فإن مثل هذه كثيرا رأينا في الدنيا وأمّا التي من عجائب الدنيا فهو موضع من أعمال طبرية شرقي قرية يقال لها الحسينية في واد وهي عمارة قديمة يقال إنها من عمارة سليمان بن داوود وهو هيكل يخرج الماء من صدره وقد كان يخرج من اثنتي عشرة عينا كل عين مخصوصة بمرض، إذا اغتسل فيها صاحب ذلك المرض برئ منه بإذن الله تعالى ،والماء شديد الحرارة جدا صاف عذب طيب الرائحة ويقصدها المرضى يتشفّون به وعيون تصبّ في موضع كبير حار يسبح الناس فيه، ومنفعته ظاهرة وما رأينا ما يشابهه إلا الشَّرَمْيَا المذكورة في موضعه..».[2]

16- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب) 891هـ صاحب (كتاب البلدان) الذي جمع فيه خلاصة رحلاته الكثيرة التي امتدت شرقا إلى الهند وبلغت أقصاها غربا برحلته إلى بلاد المغرب والأندلس والتي وضعها نحو عام278 هـ(891م)إبّان وجوده في مصر. يصف مدينة بغداد وصفا تميز بسهولة العبارة التي تنثال بلا افتعال تناول فيه تقريبا مختلف ألوان الحياة فيها وإن كان لم يستطع أن يخفي عاطفته تجاه وطنه إذ نراه يخلع عليه وعلى أهله صفاتٍ لا تتوفر لبلد آخر ،فهو يرى أنها وسط العراق والمدينة العظمى التي «ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبَرا وأكثر مياه وصحة هواء ،لأنه يسكنها من أصناف الناس وأهل الأمصار والكُوَرِ . انتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية، وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم فليس من أهل بلد إلا لهم فيها محلّة ومتجر ومتصرف، فاجتمع فيها ما ليس في مدينة الدنيا ثم يجري في حافتيها النهران الأعظمان دجلة والفرات فتأتيهما التجارات والمير* برا وبحرا بأيسر السعي حتى تكامل بها كل متجر يحمل من المشرق والمغرب من أرض الإسلام وغير أرض الإسلام»[3].

15- الحسن بن محمد الوزان : الفاسي الزياني(894هـ/1489م) المولود بغرناطة (القرن *15*) صاحب الرحلة الشهيرة **وصف إفريقيا** ،المعروف **بالأسد الإفريقي** lion

---

[1] - ابن خلكان، وفيات الأعيان، الجزء الثالث، القاهرة، 1983، ص31.

[2] - ياقوت الحموي، معجم البلدان مطبعة السعادة، جزء 5.6 مصر 1966.

* المير: ج مفرده ميرة وهو الطعام والمؤونة.

[3] - اليعقوبي، كتاب البلدان، القاهرة، 1987م.

l'africain . استقر **بعنابة** حوالي سنة (239هـ 1516م) ووصفها بقوله :« تشتمل عنابة على ألفي (2000) منزل وهي مكتظة بالسكان إلا أن المنازل الجميلة قليلة بها وفيها جامع جميل جدا بني على شاطئ البحر، وسكانها طيبون ومنهم التجار والصناع والنسّاجون ... وفي الجانب الشرقي منها قصبة عظيمة محصنة تحصينا محكما بناها ملوك تونس ويسكنها الولاة وتمتد الأراضي المزروعة خارج المدينة إلى مسافة (40) أربعين ميلا طولا و(25) خمسة وعشرين ميلا عرضا.
وهذه الأراضي صالحة للحبوب وتسكنها قبيلة مرداس العربية تقوم بفلحها وتمتلك كثيرا من البقر والضأن، وتنتج هذه المواشي من السّمن كميات يبيعها أصحابها في سوق عنابة بثمن قليل لوفرتها وكذلك بالنسبة للقمح وتأتي سفن عديدة كل عام من تونس وجربة وسائر موانئ القطر وكذا من جنوة لتشتري القمح والسمن من عنابة حيث تستقبل استقبالا حسنا[1].. ».

وهذا الوصف الذي يظهر مدينة عنابة في صورة قشيبة تنمّ عن رفعة المكانة ورغيد العيش نعدمها عند العبدري الذي تناول بدوره وصف المدينة كما سبقت الإشارة إليه.

ويصف **مدينة فاس** ويسهب في كلامه عنها مشيدا بنظافة المدينة ورقي العمران فيها فيقول:« وبعد دخول الماء إلى المدينة يتوزع بواسطة العديد من القنوات تسوق معظمه لبيوت سكان المدينة وإلى حاشية البلاط الملكي وكذلك إلى الأبنية الأخرى. ولكل جامع أو مسجد نصيبه من هذا الماء وكذلك الحال بالنسبة للفنادق والمستشفيات والمعاهد ويوجد بجوار الجامع مراحيض عامة وهي أبنية مربعة الشكل تحوي على طرفيها حجيرات ذات أبواب صغيرة، ويوجد في كل مرحاض حوض ويخرج هذا الماء فينظف المراحيض ويكسح فضلاتها وأوساخ المدينة ويرمي بها في النهر...».[2]

ثم يصف لنا حمّامات **مدينة فاس** فيقول: وفي فاس مائة حمّام جيدة البنيان ولا تفتقر للعناية وبعضها صغير والآخر كبير وجميعها من نفس الطراز أي يتألف كل منها من ثلاث حجرات أو بالأحرى من ثلاث قاعات وتقع في هذه الحجرات مقصورات صغيرة مرتفعة نوعا ما يصعد إليها بخمس أو ست درجات ووضعت صنابير فوق أحواض ولكنها كبيرة جدا ، وعندما يريد أحدهم أن يستحم في أحد هذه الحمامات فهو يدخل من أول باب ثم يلج في غرفة باردة حيث توجد بركة صغيرة لتلطيف حرارة الماء عندما يكون شديدا لسخونة ومن هنا ينتقل عبر باب آخر إلى غرفة ثانية تكون أكثر سخونة بقليل حيث يقوم الخدم بغسل جسمه وتنظيفه ومن ثم يجتاز هذه الغرفة كي ينتقل إلى الثانية.

---

[1] - الحسن بن الوزان الحسن، وصف إفريقيا، ترجمة ايبولار الفرنسية، جامعة سعود الإسلامية، 1399هـ، ص427-431.

2 - الحسن بن الوزان الحسن، المصدر السابق، ص220.

ويسترسل في وصف مدينة فاس فيتحدث عن جوانب الحياة الاجتماعية وما فيها من حسنات ومثالب إلى أن يصف العطارين وباعة العقاقير والأدوية فيقول: «ويقوم إلى جانب تلك القيصرية وإلى الشمال منها سوق العطارين ،ويشغل هؤلاء شارعا ضيقا حيث توجد زهاء مائة وخمسين دكانا وينغلق هذا السوق من نهايته مباني جميلة لا يقل جمالها عن متانتها.
ويتكفل العطارون بنفقات حراس مسلحين يتجولون ليلا مع فوانيس وكلاب وهنا يجري بيع منتجات العطارة والطب ولكن لا تستحضر هنا المواد الطبية من شراب أو مرهم أو لعوق، وذلك لأن الأطباء يهيئون ذلك في بيوتهم ويرسلونها لدكاكينهم حيث يصرفهامستخدموهابناء على وصفة طبية وتتجاور دكاكين الأطباء هذه مع دكاكين العطارين.».[1]

هذا ولا يغفل الحسن الوزان وصف العادات المتبعة في حفلات الزواج والأعراس في مدينة فاس والتي لا تزال على حالها تقريبا « وحينما يذهب الرجل ليأتي بزوجته إلى منزله يقوم بإدخالها في صندوق خشبي مثمّن الأوجه ومغطّى بجميل الأقمشة من الحرير والبروكار ، ويحمل الحمّالون هذا الصندوق فوق رؤوسهم ، ويتألف الموكب من أصدقاء الزوجة وأصدقاء الزوج ومن قارعي الطبول والمزامير والنافخين بالنايات وحملة المشاعل العديدة ويسير أصدقاء العريس في مقدمة الموكب حاملين مشاعلهم أما أصدقاء والد الزوجة فيتبعون العروس»[2].

16 ـ العيا شي: عبد الله بن محمد بن أبي بكر، يصف مدينة القدس وهو في طريقه إلى البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج :« ودخلنا مدينة القدس وقت العصر، وصلينا العصر بقبة الصخرة وأنزلنا حوائجنا أولا بزاوية المغاربة حتى لقيت الشيخ محمد الصيد في نفس رواق الشيخ منصور الكائن تحت الصخرة المقدّسة وقد كتب إليه الشيخ عبد القادر كتابا يوصيه بنا بإعطائنا بيتا بإزاء الرواق ونقلنا إليه حوائجنا ، وكان داخل المسجد فاغتبطنا به لتمكننا من الجلوس في المسجد والصلاة فيه في أي وقت أردناه ... وهذا المسجد المقدّس آية من آيات الله في فخامة البناء وسعة ظله والمقرار ،فيه أشجار كثيرة من التين والزيتون عظيمة، تحت كل شجرة مصطبة مبنية بالحجر المنحوت على قدر ما تظله أغصان الشجرة فيه شكل محراب ..يجلس الناس تحتها للصلاة والقراءة ويأوي إليها الفقراء المتشّردون.
وطوله من الجهة الشرقية ستمائة ذراع وخمسة وستون ذراعا بالذراع المالكي وعرضه أربعمائة ذراع وستون ذراعا بالذراع المالكي ، وأما الأروقة التي في داخله والبيوت التي في خارجه فشيء كثير وفي وسط المسجد قبة الصخرة مائلة

---

1 - الحسن بن الوزان الرحلة ، ص 242.

2 - المصدر نفسه، ص 255.

في الهواء مثمّنة الشكل بها أربعة أبواب. دور القبة كلها نحو من خمسمائة قدم وحيطان القبة وأرضها كلها مزخرفة بأنواع من الفسيفساء المصبوغة بأصباغ مختلفة ونقوش عجيبة وهي في غاية الارتفاع وإتقان البناء

وأبوابها في غاية العظمة والإتقان وداخل الأبواب دوبيز فيما بين الأساطين على دور الصخرة ، وفي داخل الأساطين الصخرةُ المقدسة يحيط بها شباك من خشب دره نحو تسعين خطوة والصخرة لونها يميل إلى الزرقة في غاية الصلابة وشكلها بين استدارة يغلب عليها الطول وغلظتها نحو ذراعين ،وعلى ظهر الصخرة ندوب ومربعات صغيرة وكثيرة كأنها أماكن أحجار قطعت منها...». [1]
ولعل هذا الوصف الدقيق ينمّ عن دقة الملاحظة والبراعة في التصوير حتى لكأننا به ينقل إلينا المشاهد مجسّدة تكاد تلامسها بالأيدي شأن الجرماز الذي قال فيه البحتري في سينيته الخالدة :

يغتلي فيهم ارتيابي حتّى　　تتقراهم يدايا بلمس[2]

17 - الدكتور حستن مؤنس : صاحب كتاب(رحلة الأندلس) بهدب كحّلت بسحر الأندلس التي تراقصت ظلال مدُنها أطيافا من الذكريات الأليمة العذبة حتى لكأنّي به يردد مع القائل:

ذِكْرَياتٌ دَاعَبَتْ فِكْرِي وظَنيِّ　　لَسْتُ أَدْرِي أَيّهَا أَقْرَبُ مِنِيِّ.

يصف الدكتور مؤنس مدن الأندلس وينقل لنا مشاهداته فيها وقد مزجها بخيط رفيق من سحر الحضارة وعبق التاريخ، يقول في مدينة طليطلة :« لا زالت طليطلة تحتفظ إلى اليوم بالطابع الذي خلّفناها عليه أيام خرجت من أيدينا صيف 1085م ،شوارعها الضيقة النظيفة أرضها المبلّطة بقطع الحجر الصغيرة وبواباتها العربية الخالصة وأشهرها بوابة الشمس **بويرتاد** (سول) ثم قطع كثيرة من سورها القديم. أما عن آثارنا فيها في مجموعها أطلال مبان ومساجد، وبضعة أقواس وعقود وكنيسة صغيرة كان أصلها جامعا وقطع من السور وجزء من القنطرة المشهورة نهر **تاجه** وبعض أقباء تكتشف بين الحين والحين تحت بيوت قائمة. وقنطرة طليطلة التي تعبر عليها وأنت قادم من مدريد قديمة من أيام القوط ولكن العرب الذين أعادوا بناءها مرارا عديدة وآخرها أيام المنصور بن أبي عامر في سنة 197هـ وكان الذي أشرف على بنائها حاكم البلد خلف بن محمد العامري بناها على قوس واحدة ، وأما الأبواب العربية لسور طليطلة فأبقاها إلى الآن وأحفظها لشكله باب شقرة ويسمى الآن (**بويورتا دي سياجرا...**)».[3]

---

[1] - العياشي، الرحلة، طبعة حجرية د ون ط، مكتبة جامعة الأمير عبد القادر تحت رقم 19/911 ص315.

[2] - البحتري، الديوان دار بيروت للطباعة والنشر، 1980، المجلد 1، ص 192.

[3] - حسين مؤنس، رحلة الأندلس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط2، 1405هـ 1985م، ص 270.

ثانيا ـ المدينة العربية في عيون الرحا لتن الأجانب:

حين بدأ اهتمام الغربيين ببلاد الشرق ومبعث ذلك أسباب كثيرة مختلفة رأينا منهم من قصد هذه الديار مستطلعا حال بلدانها وآثارها ،دارسا لغاتها وتاريخها وصنفوا في ذلك الكتب وكتبوا المقالات ووضعوا الخرائط ،ومنهم من وجّه اهتمامه إلى مصنّفات المصنفين الأقدمين فأقبلوا عليها يتدارسونها- وكانت يومذاك مخطوطات تفرّق شملها في خزائن كتب العالم- محققين وناشرين بعضها إلى لغاتهم، ومنهم من انصرف إلى التأليف في وصف المدن.

ومع بدايات القرن التاسع عشر تعدّى الانجذاب إلى الشرق **مرحلة الدهشة والانبهار** لدى الرحالين الأجانب إلى محاولة اكتشاف جديد للشرق والرغبة في معرفة أدق عن الآخر ما بين روائع آيات الماضي ومعاقد التاريخ من ضفاف النيل وطور سيناء إلى بيت لحم والناصرة وبيت المقدس، إلى مكة والمدينة إلى المغرب العربي باختلاف مناطقه وما يحفّ بهذه الأصقاع من آثار مقدسة ، وما نهض في أحضان هذا التاريخ من إبداعات فكرية وحضارية تكونت حصيلة ضخمة من معارف أوروبا عن الشرق شكلت ما يعرف بـ(علم الإستشراق) وتلقى المستشرقون تدريبا أكاديميا مكثفا وأصبح لكل جامعة أوروبية برنامج دراسي كامل في الإستشراق، وقد حظي هذا الاتجاه بالدعم المالي من الحكومات والجمعيات والمؤسسات العلمية. كذلك لا يمكننا تجاهل الدور الكريه الذي لعبه هؤلاء المستشرقون في التمكين للاستعمار الأوروبي وتوسّعه ، فكانت عيونهم تجوس خلال بلاد الشرق . ولم يكن ما كتبوه مجرد تسجيل لانطباعاتهم ، إذ نجد كثيرا من التفاصيل في عرض دقيق للمدن العربية وفحصا للتقاليد وأنماط السلوك ودراسة للأوضاع الإجتماعية والثقافية لاتخلو من نوازع سياسيةواستكشاف لما يحقق مصالح دولهم. ومن هؤلاء الرحالين نذكر:

1- كي ليسترنج Guy Lest range الرحالة ا لانجليزي مؤلف كتاب **بلدان الخلافة الشرقية**[1] الذي زار بلاد فارس ومكث فيها ثلاث سنوات من 1877 إلى 1880 م، توفي سنة1933 م.

يصف هذا الرحالة مدينة **البصرة** بالعراق :« والبصرة وقد اشتق اسمها من الحجار السود أنشئت في أيامهم في سنة 18هـ (638م) وأقطع سوادها القبائل العربية التي نزلت فيها بعد تقويض الدولة الساسانية وسرعان ما اتسعت هذه المدينة فإذ هي والكوفة تصبحان من عواصم العراق الجديدة ... والبصرة على نحو اثني عشر ميلا من فيض دجلة في خط مستقيم ، وقد شق إليها من دجلة نهران : نهر معقل من الشمال الشرقي وتأتيه السفن النازلة من بغداد ، ونهر الأبلة وتسير فيه السفن من البصرة نحو الجنوب الشرقي فتخرج إلى خليج فارس عند عبدان. ويتألفهما توسط بين هذين النهرين وبين مياه الفيض في الشرق، الجزيرة الكبرى ،

---

[1] - مطبعة الرابطة، بغداد، ترجمة بشير فرنسيس، 1373هـــ / 1954م

على ما كانت تسمّى به بلدة الأبلة في الزاوية الجنوبية الشرقية لهذه الجزيرة فوق مصب نهر الأبلة في الفيض.
وكانت البصرة تقوم على امتداد النهر الموصل بين نهري معقل والأبلة، وكانت دورها من ناحية البر غربا تطيف بها البادية بشكل قوس ،وللبصرة في هذه الجهة باب يقال له باب البادية ... وأكثر دورها بالآجر وحول أسوارها أرض خصبة تسقيها أنهار صغار كثيرة ويليها بساتين النخيل الواسعة، وبالبصرة ثلاثة جوامع الباب الغربي في وجه البادية وهو القديم وجامع ثان في الأسواق بهي جليل عامر آهل ليس بالعراق مثله على أساطين مبيّضة جامع ثالث على طرف البلدة.
و في البصرة ثلاث أسواق فيها الدكاكين والحانات وهذه الأسواق كأسواق بغداد سعة وكان المربد من أكثر مجالها في الباب الغربي وفيه تحط القوافل الآتية من البادية وهو أكثر أقسام المدينة اكتظاظا وبها قبر طلحة والزبير»[1].

ويتحدث عن أنهار البصرة فيقول :« واشتهرت البصرة في كل الأزمنة بأنهارها وقد عدت على ما ذكر ابن حوقل في المائة الرابعة (العاشرة الميلادية) فزادت على مائة ألف نهر تجري في أكثرها الزوارق ونهر معقل هو النهر الكبير الآتي من جهة بغداد حفره معقل بن يسار الصحابي أيام عمر الفاروق . وهذا النهر ونهر الأبلة وهما يمتدان من البصرة نحو الجنوب الشرقي وكان طول كل منها أربعة فراسخ وكانت بساتين نهر الأبلة بامتداد الجانب الجنوبي للجزيرة الكبرى إحدى جنان الدنيا الأربع* والأبلة هي تعريب اسمها اليوناني Apologos[2] ».
2 - جون لويس بوركهارت أو الشيخ ابراهيم: من أوائل الرحالة الذين زاروا بلاد العرب في عصر الأمبراطورية العثمانية ولد بمدينة (لوزان) بسويسرا سنة 1784م قضى ثلاث سنوات في سوريا متخفيا في زي تاجر مسلم (1809-1812) باسم الشيخ ابراهيم ثم توجه إلى لبنان وحوران ثم سلك طريق الحج إلى القاهرة ثم قام برحلة إلى بلاد النوبة وافدا من الهند ومنها اخترق الصحراء إلى (سواكن) ثم عبر البحر الأحمر إلى جدة وأتم رحلته في بلاد العرب سنة 1815م.مات بالقاهرة التي استقر بها ودفن بها سنة 1817م.
من مؤلفاته (رحلات في بلاد النوبة والسودان) 1819م (رحلات إلى سوريا والأرض المقدسة) 1822م(رحلات في بلاد العرب) 1829م.ومما جاء في مشاهداته وصف **مكة المكرمة:** (البلد الأمين) «تقع هذه المدينة بواد رملي ضيق اتجاهه الأساسي من الشمال إلى الجنوب لكنه يحيد ناحية الشمال الغربي عند أقصى جنوب المدينة. يتراوح عرض هذا الوادي ما بين مائة وسبعمائة خطوة والجزء

---

1 - كي ليسترنيج،بلدان الخلافة ص 64-65.

* الجنان الأخرى: هي غوطة دمشق شعب بوادي في فارس وادي الصفد بين سمرقند وبخارى.

2 كي ليسترنج المصدر السابق، ص 67-68.

الرئيسي من المدينة يقع في العرض الأكبر للوادي، أما الجزء الأضيق فعبارة عن صفوف من البيوت والمتاجر المتفرقة، والمدينة نفسها تغطي مساحة نحو 1500 خطوة طولا من الحي المسمى (الشبيكة) إلى أقصى (المعلاة) غير أن مساحتة الأراضي الواقعة تحت سيطرة مكة من (جرويل) حيث مدخل جدة

إلى الحل المسمّى (المعابد) على طريق الطائف تبلغ 3500 خطوة ويتراوح ارتفاع الجبال المحيطة بهذا الوادي ما بين 200و500 قدم .

قبل تشييد المدينة كان الوادي يسمّى بوادي مكة أو بكّة، كما أسماها العرب وتقع السلسلة الرئيسية على الجانب الشرقي للمدينة ّوينحدر الوادي جنوبا حيث الحي المسمى (المسفلة) أي المكان المنخفض، وتنثال مياه الأمطار نحو جنوب المسفلة في الوادي المفتوح المعروف بوادي (الطرفين) بعض منازل المدينة مشيدة على جوانب الجبال خاصة السلسلة الشرقية، حيث المساكن البدائية لقريش، ويبدو أن المدينة القديمة كانت هناك .

مكة مدينة لطيفة التصميم، شوارعها بصفة عامة أعرض من شوارع المدن الشرقية ، منازلها شامخة مبنية من الأحجار ، النوافذ العديدة المطلة على الشارع توحي بانطباع أكثر حيوية من مثيلاتها في مصر وسريا وكثير من النوافذ يتجه إلى الخارج (مشربيات) .ومثل مدينة جدة فإن مكة تحوي عددا من المنازل ذات الطوابق الثلاثة قليل منها مطلي باللون الأبيض..».[1]

3 - لود فيكو دي فار تيما الإيطالي: أو "الحاج يونس"، قام برحلته إلى الشرق فيما بين عامي 1503/ 1509م فأبحر من البندقية قاصدا مصر ثم توجه إلى بلاد الشام ليطوف بعدها ببلاد العرب (الحجاز) ثم اليمن فالخليج العربي فبلاد فارس.

قال يصف **مسجد الرسول** صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة « يبلغ مائة خطوة طولا وثمانين خطوة عرضا، ويوجد باب في كل جهة من جهاته الثلاث أما الرابعة فلا أبواب فيها، والسقف يرتفع على عقود تعتمد على أعمدة من الحجارة المطلية باللون الأبيض. عند كل باب من الأبواب الداخلية نجد عشرات من الكتب التي تتناول حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم...».[2]

4 - ريتشارد بيرتون: أما الرحالة الإرلندي الشهير ريتشارد بيرتون الذي بدأ رحلته إلى البلاد العربية (مصر ، بلاد العرب والشام)سنة 1853 م، وبعد أن طوّف بمكة المكرمة، انتقل إلى المدينة المنورة ليصف لنا عمارتها وجبالها و أوديتها ودروبها، وعادات أهلها وتفاصيل حياتهم اليومية ولم يفوّت هذا الرحالة وصف المدينة

---

[1]- بوركهارت، رحلات في بلاد العرب، منقول عن مجلة العربي، وزارة الإعلام بدولة الكويت، العدد 1508 مارس 2001، ص 63-64.

[2] - فارتيما، منقول عن مجلة العربي المرجع نفسه، ص64.

المنورة حتى وهو في جلسة ضيافة فقد سجل لنا مشاهداته من خلال نافذة منزل مضيفه الشيخ حامد بحي المناخة ،يقول :« رغم أن منزل الشيخ حامد لم يكن واسعا، فإن المناظر المتباينة التي تبدو من نوافذ (المقعد) تجعل منه مكانا حيويا، فناحية الشرق تشرف على ميدان (بر المناخة) وسور المدينة وما خلفه من منازل والباب المصري، ومآذن الحرم النبوي وجُبل أحد على البعد. ومن ناحية الشمال ترى مسجد محمد صلى الله عليه وسلم وجزء من جدار الحصن ...والطبقة العليا في مجتمع المدينة تأثرت بالفخامة التركية والمصرية في معيشتها...وتتشابه مساكن الفقراء...ولم تقع عيني على وجه امرأة عدا الجاريتين الزنجيتين اللتين لم تتخليا عن مظاهر الحياء والاحتشام. تتكون المدينة المنورة من ثلاثة أجزاء، المدينة ذاتها والقلعة وضاحية مساحتها أصغر بقليل من إجمالي مساحة الأجزاء الثلاثة، والمدينة ذاتها أكبر من السويس بحوالي الثلث أو نصف مساحة مكة تقريبا.
وللمدينة سور بيضاوي غير منتظم ، به أربع بوابات ، فالباب الشامي في الجانب الشمالي الغربي للسور يفضي إلى جبل أحد وقبر حمزة رضي الله عنه والجبال، وباب الجمعة في السور الشرقي يفضي إلى الدرب النجدي (الطريق المؤدي إلى نجد)ومقبرة البقيع ،وبُني الباب الشامي وباب الجمعة تجاه الشمال، ويوجد باب الضيافة أما الباب المصري فيقع إلى الغرب ويفضي إلى سهل يسمّونه (بر المناخة)والبابان الشرقي «باب الجمعة، والمصري قد شيّد عليهما مبنيان ضخمان جميلان، لكل منهما برجان متقاربان دهنا على شكل أشرطة عريضة حمراء وصفراء وألوان أخرى وهذان البابان لا يبعدان في شكلهما عن المدخل القديم لقلعة "صلاح الدين في مصر»[1].

5- كابتن نيبور الألماني : صاحب **رحلة إلى مصر** (1762 م): زار هذا الرحالة الألماني مصر، واهتم في رحلته اهتماما كبيرا بتسجيل ما يرى ويسمع من أقوال الناس وأعمالهم وسكانهم ونظام الحكم عندهم، وأساليبهم في اللهو والتسلية وجوانب التخلف فهو لا يجد عند المصريين صحفا، ويلوم – شأن الورثيلاني والعبدري كما سنرى – أصحاب الحل والربط على تفرقتهم بين المسلمين وغير المسلمين، فهؤلاء يركبون الخيول وأولئك لا يركبون إلّا الحمير، ولا يجوز لهم البقاء فوقها إذا مرّ بعض الوجهاء..
ويصف الرحالة مدينة القاهرة ويسجل مدى معاناته من أجل إنجاز هذه المهمة (الوصفية) وهي ملاحظة بقدر ما تعكس عنصرية العربي - حسب الرحالة - تعكس مدى محافظته وغيرته فيقول:« وأيا كان الأمر فليس هناك من يتوقع أن أسجل له تاريخ المدينة (القاهرة) فليس من شأني إلا أن أسجل موقعها ومساحتها كما ألفيتها أنا نفسي وتحقيقا لهذا الهدف رسمت على اللوحة الثانية خريطة للقاهرة والمدن

---

[1] - ريتشارد بيرتون، منقول عن مجلة العربي، العدد السابق ص65.66.

القريبة منها وهي بولاق ومصر العتيقة والجيزة، ولقد كانت تلك مهمة شاقة بحق وخطيرة إذا أخذنا في الاعتبار تعنت أهل القاهرة مع الأجانب الذين لا يدينون بدينهم ، وهي مهمة لم يقدم عليها لهذا السبب أوروبي من قبل ولن يقدم عليها أوروبي مرة أخرى في وقت قريب، ولكن تجاسرت وقمت بقيا س أطوال كل شارع بالخطوات وبخاصة تلك التي تنتهي إلى نهايتين وقمت بتحديد اتجاهاتها مستعينا ببوصلة صغيرة.

وهناك بين هذه الشوارع الرئيسية الكبيرة أحياء كثيرة بعضها يتكون من شوارع صغيرة كلها شوارع ذات نهاية واحدة، وهي تلك التي يقيم فيها أصحاب الحرف بصفة عامة، وغيرهم من فقراء الأهالي الذين لا يعملون كما هو مألوف في المدن الشرقية في بيوتهم بل يعملون في دكاكين صغيرة بالسوق أي شوارع السوق كما أشرت من قبل ولهذا فليس من المعقول أن يذهب أحد في أثناء النهار إلى هذه الأحياء بحثا عن رجل في مسكنه.وليس من المألوف في البلاد الشرقية أن يذهب أحد لزيارة زوجة أو ابنة صديق له في بيته»[1]

ويصف **مساجد القاهرة** بأنها كثيرة بحيث يعجز المرء عن وضع قائمة لأسمائها وتحديد مواضعها على خريطة ولذلك يقرر أن يكتفي « بملاحظة بعض الأمور منها أن لبعض المساجد أكثر من منارة (برج) وأن المنارة لا تنتهي في أعلاها بناقوس بل بشرفة أو شرفتين أو ثلاث شرفات يقف فيها الناس ويؤدون الصلاة ويقول المسلمون أن دق النواقيس من شأن الحيوان المسخر للنقل، فقد اعتادوا أن يعلّقوا لجِمـالهم وبغالهم في القوافل أجراسا صغيرة. وليس بالمساجد من زخارف سوى منبر بسيط وسجاجيد كبيرة ثمينة أو حصر من القش تكسو أرضه وكتابات كبيرة مذهبة هي في المعتاد آيات من القرآن الكريم...».[2]

6- ناصر خسرو الفارسي : الذي قام بأسفار دقيقة شملت مناطق واسعة من العالم وبخاصة بلاد العرب حيث زار المدن الكبرى من بلاد الشام مثل حلب وحماه، ثم اتجه لزيارة طرابلس وجبيل وصيدا وصور وعكا، وتابع سيره إلى الرملة فالقدس، ثم سافر إلى مصر كما أنه زار مكة والبصرة ... وأهم ما خلّفه في أدب الرحلات كتابه (سفرنامة) الذي يذكر فيه وصفا دقيقا للأماكن التي زارها وبخاصة المدن العربية، وفي وصفه للمدن اللبنانية، يقول عن طرابلس:" أرباض المدينة تملؤها البساتين ...وقصب السكر ينمو بكثرة ...ومثله البرتقال والليمون والتمر...وقد كانوا أيام وصولنا يستخرجون عصير قصب السكر. وفنادق المدينة تتألف من أربع طبقات أو خمس وقد تصل إلى ست...وبيوتها وأسواقها حسنة البناء ونظيفة...».[3]

---

1 - كابتن نيبور، رحلة إلى مصر، ترجمة مصطفى ماهر، المطبعة العالمية، مصر، 1977.ص205.

2 - كابتن نيبور، المصدر السابق، ص 221.

3 - ناصر خسرو، سفرنامة، ترجمة يحي الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1945، ص20.

ويصف مدينة **صور** بأنها من أكبر مراكز التجارة البحرية ، وبأن فنادقها كانت تتألف من خمس طبقات أو ست أما في وصفه لمدينة القدس فيتحدث عن شوارعها المبلطة ويذكر عدد السكان فيشير إلى أنهم عشرون ألفا، ثم يقول:« والأرض في نواحي القدس مستغلة استغلالا طيبا، والزيتون هناك كثير ...ويبلغ الدخل السنوي لبعض كبار الموسرين هناك نحوا من خمسين ألف مُد...».[1]

7- **مارغريت فان بار شيم** Marguerite vant Barchime الرحالة الإنجليزية فقد كتبت فصلا كبيرا في الجزء الأول من كتابها "كريسويل"creslwel تصف فيه قبة الصخرة فتقول في وصف شديد التقارب مع وصف العياشي الذي سبقت الإشارة إليه:« تمتاز قبة الصخرة بالزخارف الرائعة التي تكسو جميع أجزاء البناء من الداخل، وخاصة تلك الكسوة الثمينة النادرة من الفسيفساء العجيبة الصنعة الزاهية الألوان، المتنوعة الأشكال .

وفي قبة الصخرة من هذا النوع من الزخارف وحدة مسطحات تبلغ مجموع مساحتها أكثر من ألف متر مربع، وأول ما يلاحظ على هذه الزخارف فخامة ألوانها وتعدد أشكالها ودقة صناعتها وخاصة تناسقها ووحدتها بالرغم من اختلاف المسطحات التي امتدت عليها مساحة وحجما وحدودا وبروزا وتجويفا وبالرغم من تنوع موضوعاتها وأشكالها. ولا شك أن هذه الزخارف تعتبر مجموعة فخمة فريدة في تاريخ الفنون»[2].

8- جيرار دو نيرفال (الشاعر الفرنسي): في بداية القرن التاسع عشر (1843) كان نرفال أوّل من اهتم بالمدينة المصرية من أدباء فرنسيين كثر أمثال شاتو بريون، جوستاف فلوبير، أوجين ردمنتان، فيكتور هيجو وأناتول فرانس، وذلك في معالجة فنية رائعة، فقد أوحت له المدينة المصرية بجزء كبير من أعماله التي تضمنها كتابه (رحلة إلى الشرق).

كانت مدينة الأسكندرية التي وصل إليها من مرسيليا في 15 جانفي 1848م أول مدينة مصرية تراءت له، إلاّ أنّ أبنيتها الأوروبية خيّبت أمله وتركت في نفسه أثرا سيئا، ولم تحظ آثارها خاصة حمّامات كليوباترا وعمود الصواري باهتمامه، فسارع بالذهاب إلى القاهرة التي طالما حلم بها وهو شاب وتخيلها كأنها مدينة من مدن ألف ليلة وليلة.. كان يتعجل الذهاب إلى مدينة القاهرة، مدينة صلاح الدين الحية التي يأمل أن يجد فيها السلوى وكان يبحث عن "مملكة مجهولة بعيدة عن الحاضر.. عن وطن جديد وطن الوهم والسراب ،وها هي ذي المدينة التي سيبقى فيها ثلاثة أشهر ويكتشف فيها أسرار الشرق.

---

1 - المصدر نفسه، ص20.

2 - مارقاريت فان بارشيم كريسويل 1932، ج1، ص ص149- 228.

عندما قارن نارفال الخيال بالواقع اكتشف أن حكمه لم يكن خيالا ووهما بل اشتمل على جزء كبير من الواقع.كانت القاهرة بالنسبة له فردوس التغيير حقا عثر فيها على آثار العبقرية العربية والتاريخ الإسلامي.

استأجر نيرفال بالإسكندرية منزلا اختاره من بين عدة منازل أخرى زارها، ذكّرته بالقصور التي يسكنها الأمراء في جنوة وفينيسيا، فهي منازل « ذات أفنية تحيط بها الأعمدة وقاعات رائعة الزخرفة أرضيتها من المرمر وتكثر فيها النافورات، وحدائق تظللها أشجار ثمينة، وللأسف فإن الكثير من هذه المنازل مهدد بالإنهيار لأنه يرجع إلى عهد

المماليك ، لكن منازل القاهرة ليست كلها قصورا شامخة ، فمنازل القاهرة لا تتشابه، شأنها شأن العناصر المتباينة التي يتألف منها مجموع سكانها فإلى جانب القصور الحقيقية توجد مساكن بائسة فقيرة متهرئة.. وأما شوارع القاهرة الضيقة فكانت تعج بالحياالشرقية بكافة مظاهرها وكل ما فيها من بذخ وفقر تجلس فيها مثلا بائعات البرتقال والموز والقصب اللاتي يشبِّهُهن بالتماثيل القديمة وتماثيل كليوباترا.

وكان الناس في القاهرة يسيرون على الأقدام أو يركبون العربات لأنها وسيلة مواصلات ينفرد بها السادة ومن يلوذون بهم...

كما اهتم نرفال بوصف حمّامات القاهرة التي كانت «أبنية رائعة طالما ملأها الخيال الأوروبي بالغانيات والحوريات، وهي ملجأ رحيم في سِنّ الخمسين الحارقة» وتتميز هذه الحمّامات بقبابها المملوءة بالثقوب مما يجعلها تشبه السماء، والمستحمون يلتفّون في قطعة طويلة من قماش الكتان تجعلهم يشبهون التماثيل القديمة، ويتنقلون من قاعة فردوسية إلى أخرى مجاورة حيث (المكيساتية) وألوان شتى من العذاب الجسماني...

وعن الزي النسائي كتب نرفال صفحات مطوّلة ضمّنها جزء من كتابه الآنف الذكر تحت عنوان :(نساء القاهرة) من ذلك قوله:« إنّ زي النساء الغامض يجعل الحشد الذي يملأ الشوارع أشبه بالحفلة التنكّرية ... يسرح الخيال إزاء الغموض الذي يكشف وجوه النساء ولا يمتد إلى كل مفاتنهن، يفلت أحيانا من الأكمام الفضفاضة المرفوعة فوق الكتف ذراع مرمري شاحب، أو ترى يدا تزينها الخواتم والأساور الفضية، أو قدما عارية محملة برنة الخلخال ، هذا ما يمكن أن تفاجئ به العين ...تحدسه..، وتعجب به ...وأحيانا، تبتعد ثنايا الحجاب قليلا، وترى من خلال الفتحة التي تظهر بينه وبين القناع الطويل المسمى (برقعا) عينا جميلة وشعرا ملفوفا ضيق الثنايا مثلما في تماثيل كليوباترا، وأذنا صغيرة صلبة تهبط

منها على الجيد والخد عناقيد من القطع الذهبية أو الفضية ...عندئذ يشعر المرء بالرغبة في سؤال عَيْنيّ المرأة المصرية المحجّبة ، وهذا أخطر ما في الأمر...».[1]

وفي الجزائر زار كثير من الرحالين الغربيين **المدن الجزائرية** ، وسجّلوا ما شاهدوه في مدنها كل حسب وجهة نظره إذ أنّ نظرتهم لهذه المدن كانت متباينة إلى حد ما فقد اكتفى بعضهم بتقديم صورة وصفية لها بينما عمد البعض الآخر إلى تقديم وصف شامل لها، في حين اكتفى فريق ثالث منهم بما لها من ماض تاريخي فلم يول حاضرها كبير اهتمام لأنه يقف فيها على ما يثير انتباهه أو نهمه الوصفي.ولقد حاول كثير من هؤلاء الرحالين الذين زاروا الجزائر لسبب أولآخر أن يقدّموا صورة عنها ولو كانت مختصرة غير وافية وكثيرا ما كانت هذه الصور تمهيدا لدراسة نفسية الشعب الجزائري وعاداته وتقاليده وأساليب حياته وطرق معيشته ولما تخلفه الأحداث التاريخية في ذلك كله من آثار وسمات خاصة، وبعبارة موجزة لربط ماضيه بحاضره ،وهذا ما يجعل هذا الرحالة يختلف عن ذلك في الوصف ونقل المشاهد.
ومن رحّالي الغرب الذين كانت لهم باع طولى في مجال الرحلة إلى المدن الجزائرية نذكر:
9- مورتيس فاغنر **الألماني** (1813 -1887) صاحب كتاب ((رحلات في ولاية الجزائر في سنوات 1836-1837-1838م)) الذي أصدره سنة 1841م وتحدّث فيه عن مناطق مختلفة من الجزائر.
ففي صفحة 233 من كتابه يصف فاغنر مدينة عنابة التي كان قد زارها عام 1841م وأقام بها حوالي سبعة أشهر، (من25 ماي إلى نهاية شهر ديسمبر من السنة نفسها)، وقد وصلها على ظهر باخرة ،فيذكر أن أول ما جلب انتباهه القصبة التي عرفت على حد تعبيره «محنا كثيرة منذ 1832م حين تم فيها إرسال طلقة مدفعية ترحيبية للسفينة التي كانت في تلك اللحظة تقترب من الميناء أو بالأحرى تقترب من خليج المدينة لأن عنابة في واقع الأمر لم يكن بها ميناء يحمي السفن القادمة إليها من سطو الرياح وهوج العواصف»[2].
ثم يعقد الرحالة فاغنر مقارنة بين ميناء عنابة وغيره من الموانئ الجزائرية ولعل ذلك كان انطلاقا من الوضع الذي ألفى عليه الميناء (خليج المدينة)، فيشير إلى أنه يصنف في المرتبة

---

1 - سامية أحمد الأسعد، مجلة الهلال مصر، عدد 06، يولية، 1976.

2 - أبو العيد دودو، عنابة في نظر الرحالين الألمان، مجلة الأصالة السنة الخامسة جمادى الثانية رجب 1396هـ يونيو يوليو 1976 ص ص،185-200.

الثانية بعد ميناء مستغانم - أسوأ الموانئ الجزائرية – إذ أن السفن كثيرا ما تتعرض للغرق فيه مما يحول بينها وبين أن تتخذ مركزا تجاريا هاما[1].
وفي الصفحة 234 يتحدث عن منظر المدينة وما له من كبير الأثر في النفس ،فالمدينة تميزت بمناظر طبيعية خلاّبة تجلّت في الجبال العالية والصخور الجرداء والتلال المخضرة والسهول الشاسعة والوديان الواسعة، وهي مناظر تترك في النفس أثرا عميقا، أضف إلى ذلك أنّ المدينة نفسها مدينة العناب ذات طابع ريفي هادئ، ثم يذكر أن المدينة مقسّمة إلى حيين، حيّ سفلي كبير يقع في السهل وشوارعه واسعة ومضاءة نسبيا ولكنها ليست نظيفة ولا هي متناسقة، وتوجد بالميدان الكبير دور بنيت على الطريقة الفرنسية وحولها أشجار باسقة، ومنظر جميل إلاّ أن عيبها الوحيد يتمثّل في أن جدرانها تنهار في مواسم الأمطار، ونظرا إلى أن من ينزل بها لا ينوي الاستقرار بها لمدة طويلة فالمناخ غير صحي من جهة وهي لا تقدم شيئا لمن لا يحب الصيد والمناظر الجميلة. من جهة أخرى فقد أقيمت تلك الدور بسرعة وروعي فيها قلة التكاليف والجمال الظاهري دون أي اعتبار لما قد ينجم عن ذلك من أخطار... أما الحي الأعلى فهو يشبه ما هو موجود في مدينة الجزائر إلا أنه دونه علوا وانحدارا، ويحتل أحد التلال، ولا يزال يحتفظ بمظهره العربي ودوره أوطأ من دور مدينة الجزائر، وتكاد تكون كلها أرضية، ولا تحتوي على ما تحتوي عليه مدينة الجزائر من أعمدة ونقوش وزخارف يدوية[2].
ثم لا ينسى بعد ذلك أن يتحدث عن الجانب الديني للمدينة فيعترف أنه لم يبق بها من المساجد ما يلفت الانتباه فقد حُوّل أكبر مسجد بها إلى كنيسة[3].

وفي وصف دقيق **لمدينة الجزائر** يبرز اهتمامه بما انطبع في نفسه من مشاهد لها مدلولاتها النفسية يصف لنا جانبا من جوانب الحياة الاجتماعية في أدق تفاصيلها وجزئياتها فينقل لنا مشاهد عن مقاهي المدينة.
وفي بداية الحديث ينصح فاغنر المسافرين بزيارة المقاهي العربية التي يزيد عددها في القسم الأعلى من المدينة فقط مايربوعلى الستين ، ويذكر أنه كان يقضي كل أمسية في واحدة منها دون أن يندم على الوقت الذي قضاه فيها أبدا.

---

1 - أبو العيد دودو، المرجع السابق، ص200.
2 - المرجع نفسه، ص201.200.
3 - المرجع نفسه، ص202.201.

ويعتبر المقاهي من الأماكن التي تتيح للأجنبي أن يتعرف على الشعب ويتعلم لغته بل لا يوجد مكان يتعلم فيه التعابير الشعبية مثلما يتم ذلك في المقاهي. ويشير إلى أنّ الأهالي لا يتحدثون كثيرا فيها إلا أن الحضر أكثر استعدادا للحديث منهم في أي مكان آخر وأي وقت آخر من أوقات النهار. ومن هنا يستطيع الإنسان أن يدرس ملامح رواد المقاهي ، وهم جالسون فوق الأرض فيرى الحضري الهادئ جالسا قرب التركي في لباسه الفخم ويليه زنجي أسود كالقار يرتدي نفس اللباس وبعده عربي من البادية طويل القامة جميل المظهر وقد لوحت الشمس بشرته، يغطي عضلاته الفولاذية برداء طويل أبيض وفوق رأسه عمامة يلتفّ بها حبل من شعر الجمل (الوبر)، وغير بعيد منه قبائلي بقامته القصيرة ونظراته الثاقبة ثم ميزابي من الصحراء وبسكري من بلاد الجريد وبينهم فرنسي بلباسه العسكري أو بأحدث طراز ظهر في عاصمة بلاده.ويقع أجمل مقهى عربي في شارع البحرية ، وبها قاعة مقسّمة إلى مقصورات تستند على أعمدة وتتسع لعدد كبير من الزوار.

ويضيف فاغنر أنه شاهد مقهى من هذا النوع في أواخر سنة 1896م ولكنه أضيق وكان يقع في شارع (لالاهم) وقد أصبح كلاهما أثرا بعد عين، فقد اشتراهما الأوروبيون وأقاموا مكانهما بنايات على الطراز الفرنسي وجرّدوها من ملامح أصالتها الشرقية.

إن مقاهي اليوم مظلمة مستطيلة الشكل ولا تحتوي على عرصة واحدة وبها صفّان من المقاعد الحجرية، تغطيها حصائر من سعف النخيل، ويجلس فوقها الرواد على الطريقة الشرقية، ويقع المطبخ في مؤخرة القبو في منخفض ،وتُقدّم القهوة في فناجين صغيرة مصنوعة من الخزف فوق صحون من الصفيح، ويوضع فيها مسحوق السكر وهي قوية

الطعم إلى حد ما، ولكنها لذيذة، وتكاد رواسب البن تملأ نصف الفنجان. ويقدم للمرء معها غليون أحمر ذو قصبة طويلة وتبغ من النوع الممتاز وثمن ذلك كله سنتيم واحد، ولا يتصور المرء أن هناك متعة أقل ثمنا من هذه.

ويجلس صاحب المقهى في وقار عند المدخل دون أن يهتم بمحله الكبير ويستقبل الزائر الأوروبي قائلا:« مساء الخير يا سيدي وأخي في الدين وعليكم السلام»، ثم ينادي في اتجاه القبو: «صب قهوة – جيب سبسي» والطباخ من السود عامة ، أما النُّدَّلُ فهم من أبناء الحضر ووجوههم شديدة البياض مورّدة، وفوق رؤوسهم الحليقة قلانس حُمْر، وألبستهم في المقاهي التي يكثر فيها الرواد نظيفة وفاخرة في بعض الأحيان، ولا تتجاوز أعمارهم السادسة عشرة.

10- مورقان جوزيف :الإنجليزي صاحب كتا ب(الكامل في تاريخ الجزائر) يصف مدينة الجزائر في بداية العهد العثماني فيقول :«...وشكل مدينة الجزائر اليوم (زمن الرحالة) هو بالتقريب شكلها في بداية القرن السادس عشر، فأسوارها ظلّت كما كانت ولكن أضيفت إليها تحصينات جديدة غير أن ضواحيها القديمة الكثيرة قد اختفت الآن وكان ملوك تلمسان هم الذين بنوا قصبة مدينة الجزائر لكي يقيم فيها

ولاّتهم، وعندما أصبح سليم بن التومي زعيم المدينة جعل قصره في هذه القصبة ولكنه لم يتمتع بزعامته. وتقع المدينة في خليج واسع وقد بني جزء منها على أرض منبسطة تنتهي بالبحر عند سفح الجبل أما الجزء الآخر فمبني على منحدر يبتدئ حيث ينتهي الأول ويمتد على 21 درجة و20 دقيقة طولا و36 درجة و30 دقيقة عرضا..».[1]

11- الفنان نيكولاي نيكولاس: وصف هو أيضا مدينة الجزائر حوالي منتصف القرن العاشر بأنها « آهلة جدا بالسكان حتى بلغ عددهم ثلاثة آلاف موقدا حوالي (11 ألف نسمة) وفيهم الحضر والترك واليهود وغيرهم ومعظم الترك هناك مسيحيون اعتنقوا الإسلام وأغلبهم أسبان أو طليان في الأصل، وهم سكان شَرِسُو الطباع...».[2]

12- الدكتور -شو- Shaw [3]الرحالة والراهب الانجليزي الذي عاش بالجزائر ما يزيد عن العشر سنوات تجوّل خلالها في ربوع الجزائر وتعرّض لوصف كثير من المدن وأخلاق سكانها وعاداتهم وأساليب معيشتهم ، يصف حمّام ريغة الواقع غربي مدينة الجزائر فيقول :« إن أجمل الأحواض حمّام ريغة الذي يقدّر ضلعه باثني عشر قدما وعمقه أربعة، والماء عندما يصل إليه يكون في درجة من الحرارة معقولة جدا.وبعد الخروج من هذا الحوض ينتقل الماء إلى حوض ثان أصغر من الأول يستحم فيه اليهود لأنه لا يحق لهم أن يختلطوا بالمسلمين، ولقد كانت هذه الحمّامات في القديم تقع تحت بناية أنيقة ، وكانت الأحواض محاطة بأروقة من الحجارة ،أما اليوم فإن الحمّامات عارية . وعندما رأيتها كانت مليئة بالحجارة والنفايات وفي الربيع الذي هو فصل المياه يأتي إلى الحمّام عدد كبير من الناس ويقال إن تلك المياه تعالج النقرس واليرقان وغير ذلك من الأمراض المزمنة والمتأصلة».

وفي موضع آخر من كتابه يذكر «وباستثناء العاصمة التي سنذكرها فإن المدن في هذه المملكة قليلة الأهمية فتلمسان الواقعة على مقربة من الحدود المغربية في منتصف الطريق تقريبا بين البحر والصحراء كانت عاصمة للملكة التي تحمل اسمها، وهي مدينة بالغة الأهمية ... ومنذ أن سيطر الأتراك على هذه البلاد فإن تلمسان قد تدهورت وآلت إلى الانحطاط الكامل وذلك على الرغم مما لموقعها من مزايا ويحتمل أن عدد سكانها اليوم يقدر بحوالي ثلاثة آلاف نسمة...»[4].

---

1 - جوزيف مورقان، الكامل في تاريخ الجزائر، لندن، 1731، ص220.

2 - تاريخ الترك العام، باريس 1662 القسم الخاص بملاحظات نيكولاي، ص62.

3 - الدكتور شاو رحالة إنجليزي زار الجزائر في القرن الثامن عشر وكتب: رحلة في إيالة الجزائر، ترجمه من الإنجليزية إلى الفرنسية ماك كارتي.

4 - شاو، منقول عن مجلة الأصالة وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية السنة 3 العدد 14، جويلية أوت 1973 ربيع 1 /

ثم يتحدث عن وهران فيقول : وتقع وهران على بعد أربعة وخمسين ميلا شمال شرقي تلمسان، وهي ميناء ممتاز في الفصول العادية وتمتد على برزخ تقدّر مساحته بخمسة أميال جنوب غربي مرسى أرزيو الجميل ، عدد سكانها حوالي ثمانمائة ألف نسمة ،ومن الأكيد أن موقعها في أرض جميلة غناء خصبة للغاية، وكذلك مَرْسَوَاهَا الجميلان، وجوارها لجبل طارق وإسبانيا كل ذلك يجعل منها ثانية مدينة في المملكة"[1].

13- تيدنا 1758م: الرحالة الأسير:

يصف مدينة الجزائر التي حل بها في العهد العثماني مبديا إعجابه ببعض مناحي الجمال فيها ،متأسفا على ما شاهده في نواح أخرى وكأننا به يعيب على الباي وحاشيته تقصيرهم:« على كل حال ليس هناك أجمل من هذه المدينة وأفتن من الأرياف والتلال الخصبة التابعة لها والتي تملأ النظر بهجة ولكن الخسارة في أن داخلها لاينطبق على هذه الشمائل كلها ، فليس هناك شوارع جميلة فهي كلها ضيقة ومتسخة ومنخفضة وبسيطة البناء ،وحتى قصر الباي ليس فيه شيء يلفت النظر، لأنّ كل ما طفنا فيه ناقص الجمال[2]..».

وما نخلص إليه من المشاهدات والأوصاف التي قدّمها لنا هؤلاء الرحالون حول المدينة العربية هو إجماعهم على تميزها بجملة من الخصائص الطبيعية والبشرية ومنها:

أولا: الخصائص المكانية:

- **الحماية الطبيعية** : والمقصود بها ما تتميز به المدينة العربية من منعة فهي إما على هضبة متوعِّرة في الجبل وإما باستدارة بحر أنهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب بذلك منالها على العدو.
- **الحماية البشرية:** وهي مكمّلة للحماية الطبيعية وذلك بأن يدار على المدينة جميعها سياج أسوار يدفع العدوان الخارجي عند الغفلة أو الإغارة ليلا أو العجز عن المقاومة نهارا.
- **الموارد المائية** : وهي مما يجلب المنافع للمدن لذلك كان تواجد المدن على نهر أو بإزائها عيون عذبة ثرّة، فإن وجود الماء قريبا من المدينة يسهّل على السكان وفرة الماء وهي من الضرورة بمكان فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة.
- **النطاق الزراعي:** إذ الزروع هي الأقوات فإذا كانت مزارع المدينة قريبة منها كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله.

رجب 1393هـ ص 260.261.

1 - شاو، المصدر السابق، ص ص 262/ 261.

2 - أحميدة عميراوي، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر، دار الهدى، الجزائر ،2003.

- **توافر المراعي:** وذلك أن صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب، ولا بد لها من المرعى فإذا كان قريبا كان ذلك أرفق بحالهم لما يعانونه من المشقة في بعده.
- **توافر النباتات الطبيعية:** ومن ذلك الشجر للحطب والبناء.
- **الموقع:** فأجمل المدن هي التي على الساحل لأن قرب المدينة من البحر يسهل حاجيات سكانها القاصية من البلاد النائية.
- **المناخ:** ذلك أن طيب الهواء شرط للسلامة من الأمراض ،والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء في الغالب ، وقد اشتهرت بذلك مدينة قابس بتونس.كما أنهم في وصفهم يلتقون في نقاط معينة منها:
- **وصف الأمصار:** والمقصود بها العواصم التي يحلها السلطان وتجتمع فيها الدواوين والوزارات وتقلد منها الوظائف العامة ، وتضاف إليها مدن الإقليم.
- **وصف تخطيط المدينة العربية:** التي تعكس براعة العرب في تخطيط العمران وما تميز به من مراعاة الانسجام والتناسق.
- **وصف شوارع المدن:** فمعظم المدن لها شارعها الأعظم الذي يتسع أضعاف شوارعها الأخرى، ثم تأتي بعد ذلك (السكة) وهي أوسع من الزقاق وسميت كذلك لاصطفاف الدور فيها، ثم يأتي الزقاق.

وتتميز المدينة العربية بضيق شوارعها الذي جاء استجابة للمناخ الحار وشدة وهج الشمس وأشعتها في فصل الصيف خاصة، وكان ضيق الشوارع سببا في زيادة مساحة الظل في الطرق.

- **وصف المنازل** : وأهم ماتميزت به المنازل العربية والإسلامية على اختلاف أنواعها وجود صحن أو فناء مكشوف قد تكون فيه أشجار وأحيانا يتوسط كتلة المبنى وتلتف حوله بقية الوحدات المعمارية الرئيسية منها والثانوية كي تستمد منه معظم حاجياتها من الضوء والتهوية ثم يستمد الباقي من الطرق والشوارع الخارجية. وأما الأبواب فكانت صغيرة وجانبية ومن المتبع دائما ألا يتواجه بابان على جانبي الطريق للتخلص من نظرات الفضوليين
- **وصف الأسواق:** عرفت المدن العربية الأسواق المنظمة الخاضعة لنسق معين من الارتفاع والاتساع وعلى الرغم من شدة الحاجة إلى الأسواق في قلب المدينة إلا أن ذلك لم يكن بالضرورة عامّا في كل المدن ولا عامّا في كل التجارات والحرف والصناعات فهناك حرف قد خصصت لها أماكن خارج المدن، وسلع لا تعرض إلا خارجها.

وهناك من يرى أن تخطيط الأسواق إنما جاء إلى نسبة اتصالها بالجوامع وأن الأسواق القريبة هي أسواق الشمَّاعين لوجوب الاستضاءة بالشموع في الصلوات، وهناك سوق العطارين والقرّابين..

- **وصف الحمَّامات:** للحمام أهمية كبيرة في الحياة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي فإن عادة الاستحمام متأصلة في سلوك المسلمين ولقد كانت

الحمامات من مرافق المدن الهامة التي لم يغفلها الرحالون وأكدوا أنها تعطي المدينة ا لعربية صفتها الحضرية.

وتبعالطبيعة المجتمع العربي الإسلامي كان للنساء حمّامات خاصة، ولهذه الحمّامات مواصفات منها أنها تتوسط المدينة وأن تكون مصارف الماء فيها واسعة مستقلة ليؤمن عليها من الاختناق وأن تكون بيوتها متوسطة.

وأما عن تخطيط هذه الحمّامات فقد شيدت على نظام يضمن للمستحم عدم تعرضه للإيذاء بالانتقال السريع من البرد إلى الحر أو العكس.

- **وصف الأبنية الدينية:** يجمع الرحالون على أن المدينة العربية تميزت بالعديد من المباني والمنشآت الدينية التي لا يقتصر دورها على الشعائر الدينية بل يتعدى ذلك إلى تقديم خدمات تعليمية وثقافية واجتماعية وصحية ومن هذه المنشآت المساجد والخوانق والرباطات والزوايا.
- **وصف المساجد:** فضلا عن قيام المسجد بعدة مهام دينية وتعليمية وثقافية، فإن مساجد الصلوات الخمس تتعدد في المدينة الواحدة حتى تعد بالمئات وقد كانت إقامة بعض المساجد " المسجد الجامع" من مسؤوليات الحاكم والوالي. ونظرا لأهمية المسجد الجامع في المدينة فقد نظر إليه البعض على أنه أساس التنظيم العمراني، وأنه بهذا يحتل موضعا هو بمثابة القلب أو المركز الرئيسي للمدينة وتنتشر حوله الأحياء المختلفة بما حوته من دور ومساكن وأسواق ورحبات وغيرها.
- **وصف الزوايا والرباطات:** وصف الرحالون الزوايا والرباطات وبالغوا في وصفها على اعتبار أنها مؤسسات دينية عامة تؤدي في غالب الأحيان خدمات ثقافية واجتماعية وصحية ففيها ينقطع أصحاب التصوف وأهل التقشف و"البركات" للعلم والعبادة، وفيها يتم تدريس مذاهب الفقهاء على اختلافها، كما أن بعضها يقوم بإيواء الغرباء والوافدين من الفقراء وأهل المسكنة، وهي بذلك بديل عن أماكن السكن العامة.

ولقد كانت دور العبادة والعلم هذه من الأعمال الخيرية التي تنافس في تشييدها السلاطين والحكام والأمراء والأعيان والتجار وأهل الثروة ثم أوقف هؤلاء على هذه المؤسسات من العقارات والأراضي الزراعية وغيرها ما مكنها من أداء وظيفتها في المجتمع ووسع من اختصاصاتها.

- **وصف المقابر والأضرحة:** اتخذت المقابر حسب شهادات الرحالين مواضع في الجهات الجنوبية أو الغربية من مراكز العمران دون الجهات الشمالية لمراعاة اتجاه الرياح السائبة وكانت تنشأ على حافة الصحراء أو في الجزر الرملية أو بين العمور أو على التلال الكفرية اليابسة كأثر للمراكز العمرانية القديمة أو كبقايا للمقابر القديمة السابقة للفتح الإسلامي.أما الأضرحة وهي المقابر ذات القباب فقد كثرت في منطقة المقابر وفي داخل المساجد بالمدن حتى صارت

من سمات المدن الإسلامية وكثيرا ما كان المشيد لهذه الأضرحة والمقابر يقيم لنفسه ولغيره من سكان هذه المؤسسات مقابر.
ومما سبق ندرك أن المدينة العربية قد حظيت بالاهتمام الواسع من قبل الرحالين،ولقد أبرزت كتاباتهم (نصوصهم) التي أشرنا إليها، الدور الذي كان لهذه المدينة في تحقيق رغبات الإنسان والتجاوب مع طموحاته وتطلعاته، فهي سجلّ محفوظ يروي تاريخنا عبر الزمان والمكان، كما أنها بتنظيمها وتخطيطها، بأشكالها وصفاتها ،تعدّ الصورة الصادقة المعّبرة عن حالة المجتمع العربي بكل تفاصيلها، إنها متحف يحفظ الكثير من تراثنا القومي...بل إنها بأصالتها أصدق تعبير عن الحضارة العربية الإسلامية بكل وجوهها ومعانيها..

الفصل الثاني

الفصل الثاني

الفصل الثاني

مدينة قسنطينة
في الرحلات العربية

- أصل التسمية.
- قسنطينة عبر التاريخ .
- مدينة قسنطينة في رحلة
  - الإدريسي.
  - المقدسي.
  - البكري.
  - العبدري.
  - صاحب الأستبصار.
  - الحسن بن الوزّان
  - ابن الحاج النميري.
  - الحستن الورثيلاني .
  - محمد الخضر بن الحستن
  - أحمد حســـتن المهيري
  - سعيد أبي بكر

أولا : أصل التسمية:

قسنطينة مدينة الهوى و الهواء و قبلة العشّاق و الرحّالتن:

اختلفت الآراء وتباينت في أصل تسمية مدينة قسنطينة بهذا الاسم، وأقرب هذه الآراء من الحقيقة الرأي القائل بأن الاسم « قسنطينة » مركّب إضافي من كلمة « قصـــر » و«طينة» فاجتمعت الكلمتان بحكم النطق المتغير والتطور الزمني في كلمة «قسنطينة » وذلك بإبدال الصاد سينا والراء نونا. ويرى بعض المؤرخين وخاصة الفرنسيون منهم والذين يدينون بالولاء إلى الرومان أن هذا الاسم المستقر (قسنطينة) راجع في الأصل إلى الرومان. و لو تتبعنا هذا الاسم عبر أزمنة المدينة المختلفة لوجدنا له تغيرات تكاد تلتقي جميعها في اسمها الحالي.

فعلى أيام العلامة ابن القنفذ القسنطيني «أحمد بن الخطيب » المتوفى سنة 1081[1] هـــ كانت تسمّى « حصن طينة ». ولو رجعنا إلى أرجوزة هذا العلامة «سراج المقات في علم الأوقات»[2]، لوقفنا على هذا الاسم في آخر رجزه إذ يقول:

يُعـــرَفُ بابنِ قُنْفُذٍ اشْـــتِهَارُه   مِنْ حِصْـــنِ طِينَةَ تِلْكَ دَارُهْ

أَتَى بِهـــَذَا الرَّجْزِ المُهَـــذَّبِ   بِفَاسٍ الكبرى مِنْ أَرْضِ المَغْرِبِ[3]

و في سنة 1150هـــ نقف على تسمية أخرى للمدينة و ما هي في الواقع إلا تغيير حاصل في بعض أحرف الكلمة فبعد أن كانت على أيام ابن قنفذ تعرف (بحصن طينة)أصبحت (قصر طينة) ما يؤكد ذلك هو ما جاء في قصيدة طويلة من الشعر الملحون يستنجد فيها صاحبها..العلماء والصالحين من المغرب الأقصى بصفة خاصة وأولياء المغرب العربي بوجه عام، ومما جاء في هذه المطولة قوله:

وِينْ أَهْلْ جِيجَلْ وَ أَهْلْ زْوَاوَة   وَ أَهـــْلْ كُـــلْ قْبِـــيلْ وُ نَسْبَة

وِيْنْ أَهْـــلْ بْـــجَايَة وَ جْبَارْ   كُـــلْ جِـــهَة يِمْـــنَة وِ إيسَـــارْ

---

1 - أبو العباس أحمد بن علي الشهير بابن الخطيب و بابن القنفذ القسنطيني (740 - 810هـ) (1339 ـــ 1407م.)

2 - هي مخطوطة بالمكتبة الوطنية التونسية تحت رقم 4629.

3 - سليمان الصيد : نفح الأزهار عما في قسنطينة من الأخبار .المطبعة الجزائرية للمجلات و الجرائد .الجزائر 1984 ص 110.

وِيْنْ مَنْ لهمْ عَــقْلِي طَـــــارْ   فَالْهْـــــوَى وَ دْلِــيلِي فَتْــنُوهْ

وِينْ أَهــْلْ (قْصَرْ طِينَة) وِينْ   بَنْ سْلِــيمَانْ وُ بَــدْرْ الــدِّينْ

والعَــرُوسِي و أَهْــلْ الوَطْنِيِينْ   والجــريدِي و ناســًا طَعْــنُوهْ

وِينْ أهْـــــلْ الزِيـــَانْ أخْفَافْ   و أهْــلْ كُلْ قبْيلَـــة و اشْرَافْ ؟

هذا الاسم « قصر طينة » عرفت به المدينة أيضا في عصر الشيخ ابن الفكّون (ق 11 هــ - 17م،و دليل ذلك نص رسالة بعث بها إليه العلامة إبراهيم الشهير بابن قدّوره . فبعد الصلاة والسلام على النبي الكريم ثم عرْض موضوعه يختم رسالته بقوله : « ثم إني أهْدي سلامي التام الشامل مصحوبا بالتحيات و الإعظام محفوفا بالتبجيل والإجلال و الإكرام إلى مقام العلوم التي بحرها زاخر وزيّنه بالحسن الناظر، وجمّله ورفعه إذ كان عمدة ، وخفض الجم له ،من شرفت به – قصر طينة – فصارت تربها من أطيب تربة و أفخر طينة ، و أصبحت ترفل على كل قرية و مدينة»[1].

وعلى أيام مفتي قسنطينة الشيخ حركات بن عبد الرحمن بن باديس-حسب رأي سليمان الصيد- كانت المدينة معروفة باسم « قصر طينة » أيضا فقد جاء في الصفحات الأخيرة من كتاب فقهي مخطوط قول صاحبه « ... إلى أن اجتمعت مع الشيخ العالم العلاّمة ،حافظ العصر أبي زكرياء يحيى الشاوي حين قدم لبلادنا قصر طينة سنة ثلاث و سبعين وألف (1073) يقصد الحجاز».

أما الشيخ العلاّمة صالح بن مهنّا القسنطيني[2] المتوفى سنة 1019 م فقد ذكر قسنطينة باسم (قصر طينة)في تعليقه القيّم على رحلة الشيخ الورثيلاني " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار " إذ قال :« و قلت وقسنطينة بلدة قديمة جاهلية من البلاد التي وقع عليها الفتح بافريقية و سمّيت باسم بانيها قسطنطين من أسماء الرومان كالقسطنطينية العظمى ، و قيل أصل هذا

---

[1]- **سليمان الصيد، المرجع السابق، ص 13.**

[2] - **هو صالح بن محمد بن محمد بن مهنا ولد في قرية العشرة (كركرة) قرب بلدة القل سنة 1840.**

الاسم - قصر طينة – منسوب إلى امرأة من الرومان اسمها طينة ، فأضيف إليها ثم دخله التصحيف و التحريف فقيل قسنطينة بالميم أو النون ... »[1].

و في (معجم البلدان) لياقوت الحموي الرومي البغدادي نقف على الاسم (قُسنطينة) حيث عرفها بقوله :« قُسَنطِينة: بضم أوله و فتح ثانيه ثم النون و كسرة خفيفة ، و هاء ، مدينة و قلعة يقال لها قُسنطينة الهواء ، و هي قلعة كبيرة جدا ، حصينة عالية لا يصلها الطير إلا بجهد ، وهي من حدود إفريقية مما يلي المغرب . لها طريق و اتصال بآكام متناسقة جنوبيها تمتد منخفضة حتى تساوي الأرض . و حولها مزارع كثيرة ، و إليها ينتهي رحيل عرب إفريقيا مُغربين في طلب الكلإ، و تزاور عنها قلعة بني حماد ذات الجنوب في جبال و أراض وعرة ...»[2].

و جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن قسنطينة سمّيت في القرون الأولى (سيرتة) و كانت عاصمة سلاطين نوميديا فكان لصفاكس منهم قصر عظيم و (لماسينيسا) و الملوك الذين جاؤوا بعده قصور عُنوا بها و زيّنوها ونظّموها و جلبوا إليها التجار اليونانيين و الرومان. وفي عهد سيزار في القرن الأول (ق م) دخلت مدينة (سيرتة) تحت حكم روما، وفي سنة 311م حطّمها القائد ماكساس. ولما ربح قسطنطين الحرب أعاد بناءها وذلك حوالي سنة 313م ومنذ ذلك التاريخ لم تعرف هذه المدينة بغير هذا الاسم نسبة إلى مجددها قسطنطين (288م – 337م) لتدخل قسنطينة بعد ذلك تحت الحكم الوندالي من سنة 432م إلى 534م، ثم البيزنطي من سنة 534م إلى سنة 674م[3].

و في العهد الفنيقي « أطلق الفينيقيون على المدينة أسم (كرطة) أو (كرثن) و هي لفظة سامية كنعانية معناها (القلعة) أو المدينة،وهو الاسم الذي حرّفه اللاّتينيون فيما بعد إلى سيرتا»[4]. ومن أسمائها:

بلد الهواء أوبلدة الهوى،وقد فسّر سيدي عمر الوزان معنى الكلمتين في رسالة ضافية بعث بها إلى حسن آغا والي الجزائر يقول فيها:« فالبلدة هذه المسمّاة بلدة الهوى،حسّي ومعنوي، فهواؤها

---

[1] - **سليمان الصيد: نفح الأزهار، ص 17.**

[2] - **ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1995، ط 2 ، المجلد 4، ص 349.**

[3] - **دائرة المعارف الإسلامية، ج 1 ص 885.**

[4] - **محمد الهادي لعروق، مدينة قسنطينة، ص 19.**

الحسّي لا يزيد ولا ينقص في مرآة البصر، وهواؤها يزيد وينمو بحسب الليالي والأيام كما هو مشاهد لكل ذي بصيرة[1]...».

أما لاروس العالمي فلم يرد في تعريفه المدينة أكثر من قوله :« سيرتا:مدينة عتيقة حصينة في نوميديا هي اليوم قسنطينة» Cirta anc cap de numidie auj. Constantine

ثانيا: قسنطينة عبر التاريخ :

واسأل معالمها الصوامت واستمع	فمن المعـــالم مايجيب سؤالا
ومن المعــــــالم ما يفـــوه بحـــال	ما لا يفوه به الفصاح مقالا
واذكر أوائــــــلها بــــني فنـــيقيا	واذكر بها الرومان والوندالا
واذكر بها اتراكها وإن اعــــتدوا	حالا فقد حرسوا الرعية حالا
واذكر من البايات فــيها صالحا	فقـــد اعتنى وبنى بها فأطالا
واذكر من البــــايات أحمد إنـــه	**ذاد العدى عنها وصال وجالا**[2]

مع ما حازته مدينة قسنطينة من الشهرة و التميز بعراقة تاريخها و حضارتها و تراثها ظلت، مستعصية على كل باحث أو دارس أراد الولوج إلى كنه المدينة وتاريخ تأسيسها، لذلك جاءت الآراء حول نشأتها و بانيها الأول متضاربة لا تعدو أن تكون ضربا من الافتراض والتخمين في معظمها وأشهر هذه الآراء:

-رأي يذهب إلى أن بانيها هو قسطنطين الذي بنى القسطنطينية Constantinople (إستانبول) حاليا والذي اعتنق المسيحية واقترن اسم قسنطينة باسمه.

-رأي يرى أن الباني هو باني قرطجنة في زمن عاد قبل عهد إبراهيم الخليل عليه السلام وهذا الرأي تكاد تجمع عليه الدراسات والأبحاث التاريخية الحديثة.-أما الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري فيذكر في كتابه (تحفة الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر) أن قسنطينة أصلها لقبائل كتامة و دخلها الفينيقيون ملوك الشام من كولونية لما خرجوا إلى إفريقـــــية وصور سنة 836 ق.م ، وكانت تسمى في القديم سيرتا ، و كانت عاصمة (أدربال النوميدي) سنة 428 م و

---

[1] - **محمد المهدي بن علي شغيب، أم الحواضر في الماضي والحاضر، مطبعة البعث، قسنطينة 1980 ،ص 10 .**

[2] - **محمد العيد آل خليفة الديوان،مطبعة البعث قسنطينة1967 م .ص341.**

استولى عليها و على تلك النواحي الوندال من اسبانيا، و لم يزل ملكهم فيها إلى أن استولى عليها المسلمون[1].

و في عدد من الدراسات و عمليات التنقيب الحديثة ما يدل على أن مدينة قسنطينة كانت عاصمة لقبائل (الماسيل) المنتشرة في الإقليم الشرقي من بلاد الجزائر ، و الإقليم الغربي للديار التونسية، و قد اشتهرت هذه القبائل بتربية المواشي و الأغنام و خدمة الأرض لأن أراضي هذه المنطقة صالحة للزراعة .و بحكم مجاورة هذه القبائل لقرطاج المتحضرة التي تأسست سنة 814 ق م استطاعت الانتقال من العصر الحجري إلى العصر التاريخي لترتقي من قرية صغيرة إلى مدينة كبيرة لها دورها السياسي و الإداري و التجاري الهام و لتصبح السوق العالمية الثانية بعد مدينة قرطاج خاصة في عهد الملك(ماسينيسا) الذي كان معجبا بحضارة قرطاج لأنه نشأ في أحضانها و حارب من أجلها حتى أصبحت العادات و التقاليد الفينيقية هي السائدة في مدينة قسنطينة كغيرها من المدن الفينيقية[2].

سعى ماسينيسا لأن يجعل من قسنطينة مدينة نوميدية بحجم مدينة قرطاج وعمل على أن يتخذ منها حاجزا منيعا يحول دون وصول الأعداء إليها فعمـــل على تقوية جيشه و تنظيمه و تطوير أساليبه القتالية و نظم الإدارة و طور الزراعة و الصناعة و احتكر التجارة الإفريقية كما استهوى قلوب التجار من الأجانب كالإغريق و الر ومان والقرطاجنيين والأثيوبيين وغيرهم.

و اتسع عمران المدينة بما شهـــدته من بناء القصور الملكية و البيوت الخاصة و الصـــومعات والمعابد و منازل الطبقة الميسورة و مساكن الجيش ثم الطبقات الاجتماعية الأخرى كلها كانت داخل أسوار المدينة .غير أن هذا التطور و الاستقرار اللذين عاشتهما قسنطينة في ظل العهد النوميدي و الذي بلغت عظمته و ذروته في عهد الملك ماسينيسا ،حرك أطماع الرومان فيها و دغدغ رغبتهم في الاستئثار بخيراتها و أملاكها ، فأخذوا يتطلعون إلى احتلالها و في عهد « سيزار » في القرن الأول (ق م) دخلت مدينة قسنطينة (سيرتا) تحت

---

[1] - الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق د ممدوح حقي ،دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت ،ط2 ،1964 ،ص ص19-20

[2] - عبد العزيز فيلالي و محمد الهاد ي لعروق (مدينة قسنطينة) دار البعث للطباعة و النشر قسنطينة 1984 ص 18 ، 19.

حكم روما ، و حوالي سنة 311م) حطمها القائد (ماكساس[1]).

وظلت المدينة على هذه الحال قرابة الأربع سنوات إلى أن أمر بإعادة بنائها الملك الروماني قسطنطين الأكبر(271م) 337م سنة 311م وأعادلها شيئا من وهجها الحضاري الذي عرفته من قبل ، ثم دخلت قسنطينة تحت الحكم الوندالي في العقد الثالث من القرن الخامس الميلادي(432م إلى سنة534م) ثم البيزنطي (من سنة 534م إلى سنة م674م) وفي أواخر القرن السابع الميلادي استطاعت طلائع الفاتحين العرب المسلمين أن تقضي على الوجود البيزنطي بمدينة قرطاجنة والمدن الأخرى البيزنطية التابعة لها ومنها قسنطينة التي دخلت تحت الحكم الإسلامي.

و الجدير بالذكر هو أن حلقة ضائعة أو تكاد تكون كذلك من تاريخ قسنطينة ـــ نعني الفترة الممتدة بين عصر يوغرطة وبدايات الفتح الإسلامي ـــ و هي فترة غير وجيزة تناهز الستة قرون- . و كان بالإمكان الوقوف على هذه الحلقة لو أتيح لنا العثور على مجموعة من الكتب أوردها أستاذي الدكتور عبد الله حمادي في محاضرته القيمة (قسنطينة في ذاكرة النصوص التراثية [2]) منها :

1 - تاريخ قسنطينة للحاج بن جلول .

2 - تاريخ محمد البابوري .

3 - تاريخ مدينة قسنطينة لعلي بن إبراهيم المرني .

4 - نزهة الحادي للشيخ بوراس المعسكري .

5 - التحديث و التأنيس في الإجتماع بابن باديس لأحمد بابا السوداني التنبكتي .

6 - الإشارة في معرفة الزيارة لأبي الحسن علي بن أبي بكر المعروف بالهروي .

كما أنّ من الكتب التي لا نعرف عنها شيئا كتاب : (طبقات علماء قسنطينة)لابن قنفد و(عائلات قسنطينة و قبائلها وعربها وبربرها) لعبد القادر الراشدي الذي مات أواخر القرن الثامن الميلادي، ولا شك أنه يذكر تاريخ هذه العائلات و الأحداث التي قامت بها خلال

---

[1] - الحاج أحمد بن المبارك بن العطار، تاريخ قسنطينة اعداد وتقديم رابح بونار، د ،م ، ج الجزائر 1971 ،ص17 .

[2]- عبد الله حمادي، أصوات من الأدب الجزائري الحديث، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة 2000/ 2001 ص313.

العصور الماضية[1]» فقلة المصادر إن لم نقل انعدامها و خاصة منها القديمة التي تشير إلى تاريخ الفتح الإسلامي لمدينة قسنطينة أو التي تذكر موقف أهلها من الفاتحين المسلمين والدور الذي قامت به المدينة في هذه المرحلة من تاريخها وهي المدينة العربية الرائدة في بلاد المغرب، جعلت التأريخ لهذه الفترة من حياة المدينة من عزيزات الأمور.

لعل هذا ما حدا بمؤرخ قسنطينة الحاج أحمد بن المبارك بن العطار * إلى التصريح بقصوره في الإلمام الوافي بتاريخ قسنطينة حيث يقول في مقدمة كتابه (تاريخ قسنطينة) : « فقد سألني بعض المحببين رزقني الله و أياهم خير الدارين أن أقيد له بعض أخبار قسنطينة ، فأجبته بقصوري عن إدراك هذا المرام لعدم وقوفي على تاريخ لها لأحد من العلماء الأعلام ... [2]» و أول نص عربي يؤرخ للفتح الإسلامي لمدينة قسنطينة هو الذي أورده المؤرخ الواقدي في كتاب « فتوح إفريقية » حيث تحدث في الجزء الأول منه و على امتداد ست صفحات عن الكيفية التي تم بها فتح المدينة على يد القائد الإسلامي الفاتح عقبة بن عامر الجهني الصحابي، و أول إشارة للواقدي حول قسنطينة كانت تدل على مناعتها إذ يذكر الحوار الذي دار بين سكان قسنطينة و الفاتح عقبة[3] « ...فقالوا أيها الملك أنت تعلم أنّ مافي الأرض الخضراء أحصن من بلادنا و لا أقوى منّا رجالا ومالا، و ليس لنا إلا أن نتحصن في بلدنا ونترك العرب ولا نقاتلكم أبدا [4]» و الجدير بالملاحظة في هذا السياق هو أن الأستاذ محمد الهادي لعروق في كتابه « مدينة قسنطينة » يرى :« أن الواقدي اختلط عليه الأمر فلم يفرّق بين شخصية عقبة بن نافع الفهري الصحابي بالمولد ، و بين شخصية عقبة بن عامر الجهني الصحابي»[5] ثم ينكر أن يكون أي من الرجلين قد مر بمدينة قسنطينة مطلقا ناهيك عن الفتح. لينسب فضل السبق بعد ذلك إلى القائد المسلم « أبو المهاجر دينار» (55 – 62

---

[1] - عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دمشق. مطبعة الترقي 1958 المجلد5.

* هو أحمد بن عمر بن أحمد بن محمد العطار القسنطيني ،ولد بمدينة قسنطيةعام م وبها توفي سنة 1870م.

[2] - الحاج أحمد بن المبارك بن العطار. تاريخ قسنطينة ،ص 32.

[3] - عبد الله حمادي أصوات من الأدب الجزائري الحديث، ص 313.

[4] - الإمام العلامة : سيدي محمد الواقدي: فتوح إفريقية . مطبعة المنار . تونس 1966 . ص 115نقلا عن الدكتورعبدالله حمادي ،أصوات من الأدب الجزائري الحديث، ص313.

[5] - محمد الهادي لعروق، مدينة قسنطينة،ص ،39 .

هـ / 674 –679م [1])

عاشت مدينة قسنطينة منذ الفتح الإسلامي تحت ألوية حكم متعددة فلقد ظلت تابعة للقيروان على امتداد عهد الولاة منذ سنة 50 هـ إلى سنة 182 هـ ثم عهد الأغالبة من سنة 182 هـ إلى سنة 292هـ و الفاطميين من سنة 292هـ إلى سنة 362هـ ثم دخلت تحت حكم بني زيري من سنة 362هـ إلى سنة 442هـ، وهاجمها بنو هلال حوالي 462هـ ثم خرجت عنهم لتدخل تحت حكم الحمّاديين من سنة 504هـ حتى547هـ، ولما سقطت بجاية في يد الموحدين دخلت قسنطينة تحت حكمهم في سنة 547 هـ 1153م، وبقيت تحت حكم الموحدين حتى استقل أبو زكرياء الحفصي سنة 626 هـ 1228م حيث انضوت تحت لواء الحفصيين إلى أن دخل الأتراك الجزائر في القرن الخامس عشر الميلادي و استقر نفوذهم بها، و طمحوا إلى امتلاك قسنطينة فهاجمها حسن قائد خير الدين ما بين سنتي 1519م – 1520م / 925هـ و استطاع احتلالها. و لم تلبث حتى دخلت تحت الحكم الحفصي من جديد، غير أن الأتراك استردوها وحكموها إلى أن ثار عليهم أهلها سنة 979 هـ – 1572م واستطاع الأتراك أن يخمدوا ثورتهم و أن يخضعوا أسرة بن عبد المؤمن التي كانت تتزعم المعارضة. منذ ذلك التاريخ استقر نفوذ الأتراك بقسنطينة[2].

ولقدكان موضوع تاريخ البداية الحقيقية لدخول الأتراك إلى مدينة قسنطينة محل اختلاف بين الباحثين والمؤرخين ففايسات vayssettes جعله عام1517م .

أما المؤررخ الفرنسي ميرسيه : MERCIER فقد جعله ما بين عامي 1519م و1522م[3]، ودافيتي يرى أنه عام 1522م[4] ، و الأنبيري جعله عام 1526م[5]، ومحمد الصالح العنتري جعله 1050هـ-1640م، أما الدكتور يحيى بوعزيز فيرجعه إلى عام 1514م.[6]

وفي سنة 1673م– 1046هـ حكم الباي فرحات قسنطينة وشهدت على أيامه استقراراً وهدوءً في ظل حكم قوي امتد إلى أن قتل صالح باي سنة 1792م – 1207هـ حيث أخذت تفقد مكانتها شيئا فشيئا على امتداد فترة حكم البايات الذين جاؤوا بعده فوقع الاضطراب في المدينة و

---

[1] ـ المرجع نفسه، ص 40.

[2] - الحاج أحمدبن المبارك،تاريخ قسنطينة ،ص32

[3] - *Mari et Biron 1903 . p 19***1** *Ernest Mercier : Histoire de Constantine*

[4] - *Davity : description general de l afrique (E . D. 1960) p 205*

[5] - *C . H Feraud . R . AF (1866) p 19*

[6] - **محمد الصالح العنتري: تاريخ قسنطينة : مراجعة و تقديم و تعليق. د . يحيى بوعزيز . دار هومة . 2005. ص 11.**

ضعفت التجارة وتوقف العمران. وما زاد في بلائها ثورة ابن الأحرش الذي هاجم المدينة عام 1807م و لم يصمد طويلا أمام أسوارها المنيعة. وفي سنة 1836م تعرضت مدينة قسنطينة للحملة الفرنسية الأولى بقيادة الماريشال كلوزيل الذي اندحرت قواته أمام مقاومة الحاج أحمد باي آخر باي تولى حكم المدينة واستقل به بعد احتلال الجزائر، ثم تعرضت المدينة إلى حملة فرنسية ثانية قادها الجنرال دامريمون Damremont ضده سنة 1838م غير أنه قتل أثناء حصاره المدينة فخلفه الجنرال فالي vallé الذي تمكن من دخولها في 13 أكتوبر1837 م لتنضوي تحت لواء الحكم الفرنسي بعد معارك طاحنة خاضها السكان في استماتة أسطورية.

من خلال هذه اللمحة الموجزة في تاريخ مدينة قسنطينة ينكشف لنا جانب آخر من جوانب صمت هذه المدينة اللغز التي أعيت مؤرخيها كما أعيت غُزاتها وعاشقيها وأرهقت مستكشفيها الذين حاولوا عبثا حل ألغازها وفك رموزها لتظل إلى يومنا هذا المدينة الصموت التي تخفي بين طيات صخورها سرها اللغز، ولتبقى الساحرة التي تستحم كل يوم من دفق نهرها الخالد ثم ترتقي سلما من الصخر لمعانقة السماء.

كما تتجلى لنا حقيقة مالها من العراقة والقدم، وأنها كانت على مر العصور محط أنظار الطامعين من الغزاة والمغامرين، و« كانت المجن الذي يقف في حلق أطماع الممالك المجاورة أو تحرشات الأعراب والقبائل المتربصة بها الدوائر».[1]

كانت المدينة الشديدة البأس في مواجهة الأخطار والممعنة في النوم والاسترخاء ساعة الدعة والازدهار ».[2]

غير أن هذه المدينة بقدر إمعانها في القسوة ضد أعدائها ومغتصبيها، بقدر ما كانت قبلة للعابرين والرحالين الذين شدوا إليها الرحال رجالا وركبانا، وعلى اختلاف مشاربهم وأهوائهم جاؤوها من كل فج عميق.

سَارَتْ إِلَى سِرْتَا الرَّكَائِبُ تَبْتَغِي   رِيًّا بِهَا فَتَفَجَّرَتْ سِلْسَالاَ

---

[1] ـــ عبد الله حمادي ، دراسات في الأدب المغربي القديم دار البعث للطباعة و النشر قسنطينة ، ط 1981 ، ص 279.

[2] ـــ المرجع نفسه، ص ن.

وآوَتْ إلَيْهَا الطاًّ لبين فأصْبَحَتْ   مثِلَ اللَّبُوءَةِ تحْضِنُ أَشْبَالاَ[1]

وكان لكل من هؤلاء الرحالة زاوية نظر صور من خلالها المدينة في فترة من فترات عمرها المديد ، فمن راثٍ لحالها حين توالت عليها الخطوب و أثقلتها النكبات و الكروب » وألبسها الدهر ــ و هي الحسناء ــ أسمالا . و مفتون بما حباها الله من خضرة و ماء و وجه حسن . و من مبهور بمنعة المكان و شهامة السكان الذين قُدّت قلوبهم من صخرها العتيق فما ضعفوا و لا هانوا أمام غزوات فاقت الثمانين [2]» رجع أصحابها و قد صدق فيهم قول القائل :

كناطحٍ صخرةً يوما ليوهنها   فلم يضرها و أوهى قرنه الوعِلُ[3]

و لقد تفاوت وصف الرحالة العرب لمدينة قسنطينة من حيث قيمته بين غث و سمين فمنه ما هو ذو أسلوب موجز لا يفي بالغرض المطلوب بحيث لا تتجاوز الأسطر المعدودة وخاصة ما كتبه الرعيل الأول كابن خرذابة (ت 272 هــ / 885 م) صاحب كتاب المسالك و الممالك .و اليعقوبي (ت 284 هــ /895م) صاحب (كتاب البلدان).والأصطخري (عاش في ق 4 هــ/ العاشر الميلادي)صاحب (كتاب المسالك و الممالك) وابن الفقيه الهمذاني(ت 290 هــ/ 903م) صاحب (كتاب الأعلاق النفيسة) .

أما الرحالة الذين عاشوا في فترة متأخرة نسبيا ، فقد وصفوا لنا مدينة قسنطينة وصفا دقيقا شاملا لمعظم جوانب الحياة فيها يقف دونه قلم المؤرخ و تجف دواته إذ شتان بين سامع وراء ، «فليس من سمع كمن رآى ».

ومن خلال بعض هذه النصوص الرحلية على اختلاف مشارب أصحابها و تباين اتجاهاتهم و أزمنتهم مما تيسر لنا جمعه من مصادر أو مراجع مختلفة أحاول الولوج إلى أعماق قسنطينة المدينة و قسنطينة التاريخ مأوى الأحرار ومهد الحضارات ولسان حالي يردد مع القائل:

وَ أَوْقَفْتُ رَكْبَ الزَّمَانِ طَوِيلاً   أُسَائِلُهُ عَن ثَــمُودِ و َعَادِ

و َعَنْ قِصَّةِ المجْدِ مِنْ عَهْدِ نُوحٍ   وَ هَلْ إِرَمٌ هيَّ ذَاتُ العِمَادِ؟[4]

---

[1] - - **محمد العيد آل خليفة ، الديوان، مطبعة البعث ،قسنطينة ،1967.ص341.**

[2] - **لحاج أحمد بن المبارك)،تاريخ قسنطينة،تقديم رابح بونار،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1971،ص25.**

[3] **-الأعشى ميمون بن قيس(الديوان)،المطبعة الأدبية ،بيروت 1907م ،ص121.**

[4] **-مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، مؤسسة مفدي زكريا، المحمدية، الجزائر، 2004م.**

لعلي أجد فيها شيئا من عبق التاريخ ووهج الحضارة وسحر المدينة العربية الإسلامية.

1- مدينة قسنطينة في رحلة الإدريسي : (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق):

هو أبو عبد الله الإدريسي الملقب " بالشريف الإدريسي" لامتداد نسبه إلى الإمام علي كرم الله وجهه، و« الإدريسي » نسبة إلى جده الأعلى الذي ترك المشرق إلى مراكش وأسس إمارة مستقلة في (عام 182 هـــ 789م). من أبرز الرحالة في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

ولد بمدينة سبتة المغربية في سنة (453 هـــ ـــ 1100م) ونشأ في قرطبة عروس المدن الأندلسية حيث تلقى تعليمه.

استهوته الرحلة والترحال في سن مبكرة، فشد الرحال إلى شواطئ فرنسا وإنجلترا، وزار لشبونة وبلاد المغرب، بل إنه وجد نفسه وهو حدث لم يتجاوز السادسة عشر في آسيا الصغرى.

و في سنة (533هـــ ـــ 1138م) دخل جزيرة صقلية في ظروف يكتنفها الغموض[1]، حيث انفتحت أمامه أبواب قصر روجار الثاني ملك صقلية عام (560هـــ ـــ 1165م)، ولهذا الملك كتب الإدريسي رحلته (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق).

شكّل هذا الكتاب الرحلي موضوع أبحاث و دراسات متعددة قام بها باحثون و مؤرخون من مختلف الأقطار ، سواء على مستوى التعريف بالمؤلف أو على مستوى الإشادة بالكتاب و بقيمته العلمية .

أقسام الكتاب و مصادره : قسّم الإدريسي كتابه على الطريقة التقليدية التي ترتفع إلى بطليموس إلى سبعة أقاليم " أقسام " و أهم أقسامه و أدقها وصفا هي التي تتعلق بالأندلس و المغرب و إيطاليا لكونها تعتمد و خلافا للأقسام الأخرى على الملاحظة الشخصية للرحالة الذي عرف هذه البلدان جيدا و تجول في أرجائها .

و الإدريسي لا يتردد في التصريح بالمصادر التي اعتمد عليها في تدوين رحلته ، فهو يذكرها بكل وضوح في مقدمة الكتاب و في ثنايا الوصف الذي هو عمدة الرحلة و منها المسعودي و الجيهاني

---

[1] - كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم، القاهرة **1961** ، ج **1** ، ص **280**.

و بطليموس والأقلودي و أرسيوس (arosine) الجغرافي الذي ذاع صيته في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي ، كما يبدو تأثره جليا ببعض الروايات و الأساطير الغربية .

وصف مدينة قسنطينةفي رحلة الإدريسي:

نالت مدينة قسنطينة حظا وافرا من وصف الرحالة الإدريسي الذي تميز عن غيره من الرحالين بالدقة المتناهية والتفصيل ، فهو يذكر:

- **موقع المدينة و مبانيها ومقابرها و آثار الرومان بها وطبيعتها الخلابة** انطلاقا من مدينة ميلة المجاورة لها فيقول :« ومنها إلى الشرق يقصد (ميلة) إلى مدينة الهواء ثمانية عشر ميلا يحيل بينهما جبل، ومدينة قسنطينة على قطعة جبل متقطع مربع فيه بعض الاستدارة، لا يتوصل إليها من مكان، إلا من جهة باب في غربها ليس بكثير السعة. وهناك مقابر أهلها حيث يدفنون موتاهم، ومع المقابر أيضا بناء قائم من بناء الروم يشبه ملعب ثرمة من بلاد صقلية. وليس في المدينة كلها دار كبيرة ولا صغير إلا باب عتبتها حجر واحد، وكذلك جميع عضادات الأبواب، فمنها ما يكون من حجرين، ومنها ما يكون من أربعة أحجار، وبناؤها من التراب وأرضها كلها حجر صلد[1].»

و يلتفت الإدريسي إلى الوادي الخالد، **وادي الرمال** الذي يحيط بالمدينة من كل الجهات إحاطة العقد بجيد الحسناء ، محددا مبتدأه و منتهاه في غاية من الدقة ، متطرقا **إلى أبواب المدينة و قناطرها** التي تعد من عجائب ما رأت العين من البناء القائم على هندسة الأقواس فيقول: « و هذه المدينة -أعني قسنطينة- يحيط بها الوادي من جميع جهاتها كالعقد مستديرا بها ... يأتي من جهة الجنوب فيحيط بها من غربها و يمر شرقا ، مع دائر المدينة ويستدير من جهة الشمال و يمر مغربا إلى أسفل الجبل ، ثم يسير شمالا إلى أن يصب في البحر في غربي وادي سهر ، و ليس للمدينة من داخلها سور يعلو أكثر من نصف قامة إلا من جهة باب ميلة ، و للمدينة بابان :**باب ميلة** في الغرب و **باب القنطرة** في الشرق، و هذه القنطرة من أعجب البناءات لأن علوها يشف عن مئة ذراع ، و هي من بناء الروم، قسي عليا وقسي سفلى وعددها في سعة الوادي خمس و الماء يدخل على ثلاث منها ما يلي جانب الغرب، و هي كما وصفنا قوس على قوس، و القوس الأولى يجري بها الماء أسفل الوادي ، و القوس الأخرى فوقها و على ظهرها

---

[1] - الشريف الإدريسي نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج 2 ص 156.

المشي و الجواز إلى البر الثاني، و باقي القوسين اللتين من جهة المدينة فإنما هما مفردتان على الجبل.

و بين القوس و القوس أرجل تدفع مضرة الماء ومصادرته عند حمله بسيوله و على رقاب الأرجل قسي فارغة كالبنان الصغار ،فربما زاد الماء في بعض الأوقات عند سيله فعلا (من العلو) الأرجل و مر في تلك الفرجات ، و هي من أعجب ما رئي من البناء[1] »

١٠**الحياة الإقتصادية :** و لا يغفل الإدريسي الحياة الإقتصادية للمدينة فيبين أنها في هذا العهد (القرن الثاني عشر) السادس الهجري كانت تشهد نشاطا اقتصاديا كبيرا قوامه الزراعة و التجارة و وفرة الأموال لدى أهلها .

و مدينة قسنطينة عامرة و بها أسواق وتجار و أهلها مياسير ذوو أموال و أحوال واسعة في الحرث والادخار ، و قسنطينة من أحصن بلاد الله ، و هي مطلة على فحوص* متصلة و لها مزارع الحنطة و الشعير ممتدة في جميع جهاتها ، و الحنطة تقيم بها في مطاميرها مائة سنة لا تفسد ، و في كل دار منها مطمورتان و ثلاث أو أربع مقصورات في الحجر ولذلك تبقى فيها الحنطة لبرودتها و اعتدال هوائها ، و كثير من العسل والسمن الذي يتجهز به من قسنطينة إلى سائر البلاد.و بها داخل المدينة و مع سورها مسقى يسقون منه ويتصرفون منه عند أوقات الحصار[2]»

و يؤكد الإدريسي أن المدينة كانت تعد من المراكز التجارية الهامة لمبادلات السلع و البضائع المختلفة ،وتربطها المصالح التجارية بما يجاورها من المدن خاصة منها تلك الواقعة على حوض البحر الأبيض المتوسط و بلاد المشرق و السودان جنوبا وذلك لما لها من شبكة طرق تربطها بها فهو يقول :« و الطريق التي تؤدي إلى باغاية والتي كانت توجد على ثلاثة مراحل من قسنطينة ، و طريقان تتجهان نحو بجاية إحداهما تمر بجيجل و الأخرى بآبرسي ، و الطريق التي تؤدي إلى القل و تمر بقلعة بشر و نقاوس و تيقاس و قالمة و القصرين و دور مدين ، والطريق التي تؤدي إلى

2-الإدريسي،المصدر نفسه ص ص150-160.

* **الفحوص : ج ، مفرده الفحص و هو الصالح من الأرض للسكن.**

1- الإدريسي ،المصدر السابق ص نفسها .

سطيف ، و الطريق التي تؤدي إلى جيجل و تمر بفحص قارة و بني خلف و حصن كلديس وجبل ساو و وادي شال و سوق سيدي يوسف...[1]» .

و يبدو أن الإدريسي الرحالة الشاعر واحد من الكُثر الذين سحرتهم هذه المدينة الأزلية الحسن لذلك كان « أول رحالة أطلق عليها تسمية بلدة الهواء و الهوى و قال إنها " بلدة الهواء و الهوى"و يقصد الرياح التي تخفق فيها و تعصف عليها من كل جانب لارتفاعها ، و كذلك لمنظرها العجيب الجذاب مع شلالات واديها و ما يحيط بها من حماماتها و جبالها فتجلب الهواء و الهوى لسكانها من حيث يدرون و لا يـــدرون ..[2]» فهذا الوصف لا يعجز الإدريسي الشاعر الرحالة الذي اعتنى به الصفدي فأورد له نتفا في كتابه (الوافي بالوفيات) لعل أجملها وأشدها وقعا على النفس مقطع يرثي فيه حاله و هو الشرقي الذي يكتب بالعربيةو اضطرته الظروف إلى العيش في دنا الغرب :

إن عيبا على المشارق أن أر	جع عنها إلى ذيول المغـــارب
و عجيب يضيع فيها غريب	بعدمـــا جاء فكـــره بالغرائب
و يقاسي الضما خلال أناس	أقسموا بينهم هدايا السحائب[3]

ويرى الأستاذ الدكتور عبد الله حمادي أن الشاعر الفحل ابن الخلوف القسنطيني المولود (829هـــ/ 1425م) و شاعر الدولة الحفصية ،قد يكون أول شاعر أدخل هذه الصفة إلى الشعر ، فابن الخلوف يقول واصفا الجيوش الحفصية و هي تفد على قسنطينة :

و سَارَ و سَارتْ خَلْفَهُ و أمَامَهُ	َنجَائِبُ َتخْطُو َتحْتَهُنَّ النَّجَائِبُ
وَ مِن تُونِسَ وَفَّتْ قَسَنْطِيَنةَ الهَوَى	لِتِسْعِ لَيَالٍ خَيْلُهُ وَ الرَّكَائِبُ[4]

ثم إن هذا الوصف الذي أسبله الإدريسي و ابن الخلوف من بعده على المدينة كان له وقعه في الشعراء الذين أخذ حب قسنطينة بشغاف قلوبهم و على امتداد عمرها الذي لا تمتد إليه يد الهرم ، حتى قال قائلهم :

---

[1] - ينظر: محمد حاج صادق المغرب العربي من نزهة المستاق.

[2] ـــ د عبد الله حمادي، أصوات من الأدب الجزائري، ص **319**.

[3] ـــ الصفدي ، الوافي بالوفيات ، **04** مجلدات ، طبع استنبول **1913** ج **1** ص **164**.

[4] ـــ د عبد الله حمادي، أصوات من الأدب الجزائري.الصفحة نفسها .

وادي الهوا بالهوى ، نشوان خاصرها وخاصرته ، كأن الأمر مقصود

لدى خرير من الأمواه ، و تحسبهـــا لحنا من الخلد قد غناه داوود[1]

تهـــدهـــده النسمـــات كـــــــأمّ تهدهد طوع الكرى طفلهـــا[2]

و قال آخر :

إن رمت طيب هواء أرض لم يحل فعـــن قسنطينة الحسناء لا تمل

أكرم بها بلدة للحسن قد جمعـــت فشمس حسنها في الآفاق لم تأفل[3]

و قول آخر في مطولة من الشعر الشعبي الملحون حين قدوم التوانسة إلى قسنطينة بغية دخولها:

ضاقوا الركـــاب نقر براني الأزناد الله ينصر من عين الحاســــــــدين

و ينصـــر عليـــهم رب العبـــــاد قال الأديب عمرا سمي حاذق فطين

في مدينة الهـــوى ظاهر ولد بـــلاد شاعر أديب قولي يعجب العارفين[4]

و قول السيد محمد الشاذلي بن عيسى العالم الأديب القسنطيني (ت 875 هــ ـــ 1292م) لأهل قسنطينةنسجا على منوال قصيدة ابن العسّال الأندلسي والتي مطلعها:

يا أهل أندلس حثّوا مطيّكُمُ :

يا أهل بلد الهوى ضعوا رحالكم فما الرحيل منها إلا من الغلط

كيف الرحيل من دار عدلها ظاهر و بخل سلطاننا لها على سفط[5]

و ما نخلص إليه من خلال مشاهدات الإدريسي لمدينة قسنطينة هو أنها كانت في مرحلة من مراحل تاريخها الطويل مدينة رومانية يؤكد ذلك ما ألفاه بها من الآثار الرومانية كالقنطرة و

---

[1] ـــ مفدي زكريا ، اللهب المقدس . الشركة الوطنية للنشر و التوزيع . الجزائر 1983 ، ص 264.

[2] ـــ مفدي زكريا ، إلياذة الجزائر ،مؤسسة مفدي زكريا ،المحمدية ، لجزائر ،2004 م.

[3] - من قصيدة في مدح قسنطينة و أهلها لشاعر غير معروف أوردها د يحي بوعزيز في(تاريخ قسنطينة) ، دار هومة 2004 ص178.

[4] - محمد الصالح العنتري ،تاريخ قسنطينةص 179.

[5] - المرجع نفسه ، ص 182.

البناء القائم مع المقابر ، وأنها تقع على قطعة جبل مربع فيه شئ من الاستدارة وهي على جانب كبير من المنعة حيث لا يتوصل إليها إلا من باب في غربها وأرضهاحجر صلد، وبناءاتها من تراب، يحيط بها وادي الرمال من كل جهة إحاطة العقد بالجيد. وللمدينة بابان وسور غير مرتفع، و أسواق و تجارة رائجة وزراعة أهم محاصيلها الحنطة والشعير و خيراتها وفيرة منها العسل و السمن بحيث تزود بها مختلف أنحاء البلاد . و الأهم من ذلك أن لها شبكة طرق تربطها بالمدن المجاورة مما يجعلها منطقة عبور .

و **اللاّفت للنظر** في هذا الوصف على دقّته و شموليته هو أن صاحبه و بخلاف الرحالة المسلمين الذين زاروا المدينة أو كتبوا عنها لم يشر إلى الحياة العلمية و الفكرية و لا إلى ما لهذه المدينة من « المزارات[*] » مع أن المدينة في هذه الفترة أصبحت محط اهتمام الأدباء والعلماء و الفقهاء و قبلة لطلاب المعارف من المغرب و الأندلس،بل وأهم المراكزالحضارية في بلاد المغرب الأوسط و إفريقيا ذلك أن الظروف السياسية و المناخ الاجتماعي و الموقع الجغرافي للمدينة كل ذلك كان كفيلا بأن يشجع على استقطاب الطلاب و العلماء ، فهي تتوسط مدينة القيروان في الشرق و تيهرت في الغرب ، و بجاية في الشمال الغربي ، بالإضافة إلى أنها كما أشرنا من قبل ملتقى رحيل القوافل البرية التجارية و الحجاج المتوجهين إلى البقاع المقدسة ،و الطلاب و العلماء الراحلين نحو الشرق .و يرجع بعض الدارسين هذا التقصير- إن صح التعبيرــ و هو ملاحظ في وصفه لمعظم المدن الإسلامية إلى أن الإدريسي لم يعمد إلى ذلك عن اقتناع عقدي أو ميول شخصي بقدر ما كان ذلك تحت ضغط المسؤولـــية و الإكراه الناجمين عن تكليف (رجار الثاني) ملك صقلية له بتأليف الكتاب . و هذا التكليف يلمسه القارئ حاضرا بقوة مما يجعله يوظف من الوصف ما يتلاءم و الظروف النفسية التي أحاطت به و ذلك بسلوكِ منهجٍ ليّنٍ فيه كثير من المـــداراة[1]، و مع ذلك يبدو وصف الإدريسي لمدينة قسنطينة متميزا و جامعا إلى حد كبيرأفاد به و لا ريب من جاء بعده من الجغرافيين و الرحالين و الباحثين ، قسنطينة صفحات من المجد و الفخار بفضل إرادة قوية و شهوة للعلم و دقة في الملاحظة وسفر طويل الْتَهَم جلّ عمره الذي لم يضع سدى.

2 ـ مدينة قسنطينة في رحلة المقدسي:(أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)

---

[*] **المقصود بالمزارات هنا كل المواقع التي تمتّ بصلة بشكل من الأشكال إلى الدين سواء تعلق الأمر بالمزارات الإسلامية من مساجد وزوايا و قبور أولياء أو المزارات غير الإسلامية.**

[1] **- محمد جمام، الرحلة بين الشرق و الغرب، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية .الرباط . 2003 . ص 83.**

ولد أبوعبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي شمس الدين الذي يدعى البشاري أيضا في بيت المقدس سنة(335هـ ـــ 947م)ومنذ وقت غير معروف من حياته بدأ المقدسي تعاطي التجارة فأتاحت له هذه المهنة فرصا واسعة للتجوال في مختلف البلدان الإسلامية والتعرف على أحوال البلاد ومخالطة الناس وملاحظة الأوضاع الإجتماعية السائدة في كل بلد زاره.

زار المقدسي بلاد المغرب وصقلية التي كانت من الأراضي المعروفة في عهد العبيديين فوصفها بحيث يشعر القارئ أنه أمام دليل سياحي عارف بشوارعها وأرباضها و أسواقها ومساجدها معرفة مباشرة.

و لقد كان لرحلات المقدسي المتكررة وترحاله في المشرق والمغرب ثمرة تجلّت في كتاب قيم هو (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم). وأما وفاته ومكانها فهو أمر محاط ببعض الغموض.

يحتوي كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم على وصف للأقاليم الإسلامية. نشر أول مرة في مارس 1906م على يد **دي خويه**، وآخر طبعاته نشرتها مكتبة مدبولي المصرية دون تحقيق .والكتاب يركز على الجانب الطبيعي فيتحدث على الإنتاج و المعادن وطرق المواصلات و المسافات و الجبال و الأنهار كما « يتضمن وصفا اثنوغرافيا لطبائع عدد من الشعوب الإسلامية وخصال أهلها وطرائق عيشهم ونوعية البيئة التي يعيشون في أحضانها....»[1].

و الكتاب كما يبين المقدسي ينتظم ثلاثة أقسام ، قسم يقوم على المشاهدة و قسم يقوم على السماع و ثالث على ما وجده في المصنفات .و لعل هذه العناصر هي من الأسس التي يقوم عليها أدب الرحلة و تبين لنا مدى فهم المقدسي لمهمة الرحالة و المنهج الذي يتعين اتباعه في جمع المادة ، و أسلوب هذا الجمع .

« و نحن فلم يبق إقليم إلاّ و دخلناه و أقل سبب إلا و قد عرفناه ، و ما تركنا مع ذلك البحث و السؤال والنظر في الغيب ، فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام ، أحدها ما عايناه والثاني ما سمعناه من الثقات ، و الثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب و في غيره ، و ما بقيت خزانة ملك إلا و لزمتها ، و لا تصانيف فرقة إلا تصفحتها ، و لا مذاهب قوم إلا عرفتها[2] ... » .

---

[1] - **فؤاد قنديل ،أدب الرحلات ،ص282.**

[2] - **المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . ط ليدن 1906 ، ص .09**

[2] - **المصدر نفسه ،ص ،49**

دوافع التأليف:

يتحدث المقدسي في مقدمة كتابه عن الحوافز التي دفعته إلى تصنيف كتابه فيوضحها بجلاء في قوله : « و جدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم فصنفوا على الإبتداء ثم تبعتهم الأخلاف فشرحوا كلامهم و اختصروه ، فرأيت أن أقصد علما قد أغفلوه ،وأنفرد بفن لم يذكروه إلا على الأخلال و هو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز، والبحار والبحيرات والأنهار ووصف أمطارها[1]».

وصف مدينة قسنطينة في رحلة المقدسي:

رغم أن المقدسي يصرّح بأنه لم يبق إقليم إلا و قد دخله و أنه ما سار في جادة و بينه وبين مدينة عشرة فراسخ فما دونها إلا فارق القافلة و انتقل إليها لينظرها عن كثب[2] إلا أن حظ مدينة قسنطينة من وصفه و مشاهدات جاء ضئيلا جدا إذا ما قيس بما جاء في نصوص الرحالة المعاصرين(القرن4هـ/12 م)كالإدريسي والبكري،فقد ذكر أن «قسنطينة مدينة قديمة و كبيرة ، و **بها عدد كبير من السكان** ، مسالكها وعرة ، وهي كالقلعة تحيط بها المياه من ثلاث جهات»[3].

فقسنطينة **مدينة قديمة** ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ يشهد على ذلك ما تعاقب عليها من الأمم والحضارات على كر الأيام والليالي من نوميديين ورومان وأغالبة وفاطميين وزيريين وحمّاديين وموحدين وحفصيين وغيرهم .

و قد عرفت الاستقرار البشري منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد. وهي كبيرة ذلك أنها بدأت عبارة عن قرية صغيرة ثم تطورت مع مرور الزمن إلى مدينة كبيرة أصبحت فيما بعد عاصمة سياسية و إدارية و مركزا تجاريا هاما وهيمنت على بقية التجمعات البشرية الأخرى المحيطة بها.

ثم هي بعد ذلك **كالقلعة** إذ تتربع على كتلة صخرية بالعدوة الغربية لوادي الرمال الذي أحاط بها بأخدوده العميق الأمر الذي زاد من حصانتها وأهميتها كقلعة شامخة تحف بها العوائق و المنحدرات الشديدة في معظم جهاتها لذلك ذكر المقدسي « بأن مسالكها وعرة »،

---

[2] **المصدر نفسه، ص 43.**

[3] **-المصدر نفسه، ص 230.**

أما قوله « **تحيط بها المياه من ثلاث جهات** » و يقصد بها مياه وادي الرمال طبعا فهو الوصف الوحيد تقريبا من بين الأوصاف التي وصف بها الرحالون موقع المدينة من الوادي ، فالإدريسي كما سبقت الإشارة إليه يذكر بأن **الوادي** يحيط بها كالعقد «كالعقد مستديرا بها ».

و من الرحالين من شبّهه بالسوار يحيط بالمعصم ومنهم من شبهه بالخاتم حول الأصبع فمعظم الرحالين إذن يجمع على أن إحاطة الوادي بالمدينة هي إحاطة كلية تشمل جميع الجهات، و لسنا ندري لم جعله المقدسي يحيط بها من ثلاث جهات فقط!!

أما قوله بأن المدينة تحوي عددا كبيرا من السكان « بها عدد كبير من السكان » فيتعارض مع كثير من الوثائق التي تشير إلى أن المدينة في هذه الفترة كانت قليلة السكان « إذ لا يتعدى عددهم ثمانية آلاف نسمة ، و السبب في ذلك يعود إلى أن يلاد المغرب ــ حينذاك ــ كانت تقلّ فيها المراكز الحضرية و المدن ، لأن السكان كان يغلب عليهم طابع الحياة البدوية الريفية و حياة الترحال ، و لذلك لم يكن هناك عمران كبير خارج أسوار المدينة إلا في نطاق ضيق ، على شكل ضيعات زراعية، و بساتين فلاحية و تنزهات و ميادين وملاعب لسباق الخيل و الفروسية »[1]

نخلص في النهاية إلى أن الرحالة الإدريسي قد وقع في بعض التناقض و الإضطراب فهو يقرر في مقدمة كتابه أنه لم يترك إقليما إلا دخله و أنه أخذ من الكتب المصنفة ، و أنه لازم خزائن كتب الملوك للبحث عن المواد لكتابه ، ثم هو بعد ذلك لا يذكر شيئا ذا أهمية ليس عن مدينة قسنطينة فحسب بل و في معظم الفصل الذي عقده لبلاد المغرب ، عذره في ذلك « إنما تركنا ما ذكره غيرنا من قبلنا»[2].

الحياة العلمية و الفكرية و الدينية :

وكشأن العبدري لم يتطرق المقدسي إلى الحياة العلمية و الفكرية و الدينية لمدينة قسنطينة التي شهدت في هذه الفترة من الزمن اهتماما بالغا بالعلوم على اختلافها « فقد كان الصبيان يتعلمون في الكتاتيب و يحفظون القرآن و إعرابه و الشكل و الخط و القراءة الحسنة و الشعر و الخطب و غيرها من علوم ذلك العصر ، بينما كانت المعاهد والمدارس

---

[1] - **Brunsking (R) La barbarie orientale sous les hapsides , p , 112**

[2] - **المقدسي أحسن التقاسيم ، ص 43 ــ 45.**

مخصصة للكبار حيث يتلقون العلوم النقلية و العقلية أي العلوم الشرعية واللغوية و الكلامية و الاجتماعية و الفلك . وكانت المساجد للصلاة و لعقدحلقات التعليم والمباحث و المناظرات الكلامية والمجادلات الفقهية .. »[1] و هذا ما يعزوه بعض الباحثين إلى ثقة زائدة بالنفس تشبه الغرور[2] . و مع ضحالة ما قدم المقدسي من وصف لمدينة قسنطينة إذ لا يعدو الثلاثة أسطر إلا أننا نستطيع أن نستشف منه جمال الأسلوب وسلاسته و جزالة اللغة و فصاحتها و هو الملاحظ في الرحلة بصفة عامة . مما يسمو بوصفه الجيد إلى درجة تقدمه عن كثير ممن سبقه بل و ممن جاء بعده . و يربأ بكتابه إلا أن يكون أثرا في القمة .

3 ـــ مدينة قسنطينة في رحلة البكري : (المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب)

البكري هوا لأديب الناقد و المؤرخ الفقيه و الرحالة الأندلسي الشهير عبد الله بن عبد العزيز بن محمد ابن أيوب بن عمرو البكري نسبة إلى بكر بن وائل ، ولد في (شلطيش) سنة (405هـــ ـــ 487هـــ) ونشأ في قرطبة و بها أتم دراسته على يد جهابذة الأساتذة من أمثال أبي مروان بن حيان أكبر مؤرخي عصره و الجغرافيين إبن عمر العذري (ت 478 هـــ) و ابن عبد البر حافظ الأندلس و محدثها الأكبر الذي تسلم منه البكري إجازة للتدريس ، و أبي بكر المصحّفي . غير أن العذري كان أكثر هؤلاء الأساتذة تأثيرا فيه فقد حدثه عن البلدان حديثا صادف في نفسه هوى فصرف جل اهتمامه إليه واستدرجه هذا الجمال الجديد نحو المزيد من الإطلاع و العكوف على الكتب،ولهذا الغرض كان ارتحاله إلى اشبيلية عاصمة الأدب آنذاك . توفي البكري بقرطبة التي رجع إليها ثانية و كانت وفاته سنة (487هـــ ـــ 1094م) .ألف البكري مصنفات كثيرة و متنوعة منها : (أعلام النبوة) (اشتقاق الأسماء) (اللآلي) (التنبيه في أغلاط أبي علي في أماليه) ، غير أن شهرته ذاعت بذيوع شهرة كتابيه في مجال الجغرافيا

---

[1] - عبد المجيد بن حملة، ثقافة المجتمع القيرواني في القرن 4 هـــ ، رسالة جامعية ، الجزائر 1972 ، ص ، 45.

[2] إسماعيل العربي ، دور المسلمين في تقدم الجغرافيا الوصفية و الفكرية . ديوان . م . ج . الجزائر 1994، ص30.

و الرحلات : (المسالك و الممالك) و (معجم ما استعجم) اللذين تحمس لهما المستشرق دودي ، حتى قال عن صاحبها : «إنه أكبر جغرافي أخرجته الأندلس قاطبة »[1].

المسالك و الممالك : فرغ البكري من تأليفه سنة 1068م، ولم تصلنا منه عدا القسم المتعلق بالمغرب سوى شذرات موزعة هنا و هناك عن مختلف البلدان كمصر و العراق وشواطئ بحرقزوين والأندلس. و لقد قام بتحقيق القسم الذي يتعلق منه بالمغرب دوسلان بمقابلة أربع مخطوطات، نشره مع ترجمة فرنسية تحت عنوان :(المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب).

مصادر الكتاب : **يذكر الدارسون والمؤرخون البكري بوصفه الأديب الرحالة صاحب المصنفات المهمة في الأدب الجغرافي العربي الذي أسهم فيه بقدر غير يسير في إضاءة طريق الرحلة . فهو و إن كان قد جال في معظم أنحاء الأندلس ، لم تكن لديه حماسة الرحلة الكافية التي تدفعه إلى التجوال في البلدان، و قد اكتفى بالرحلة إليها عبر الورق، مستعينا ببعض الأوراق مما وصلت إليه يده من مذكرات إبراهيم الطرطوش و ابن الوراق الذي صنف مؤلفا يحمل العنوان نفسه " المسالك و الممالك" ، كما أن هناك آثارا ظاهرة للمسعودي و ابن رستة ، و حسب ما ورد في مقدمة الكتاب الذي حقق أجزاءه الدكتور عبد الرحمن الحجي .**

يضم الكتاب إلى جانب ملاحظات البكري الشخصية وثائق من أرشيفات و معلومات قيمة استقاها من كتب لم تصل إلينا لمحمد بن يوسف الوراق .الذي عاش في القرن الرابع الهجري ومنها الكتاب الذي يحمل العنوان نفسه ــ كما سبقت الإشارة ــ و الذي وضعه للحاكم المستنصر، في الجغرافيا و التاريخ ، كما يضم الكتاب معلومات قيمة استقاها شخصيا .

وصف مدينة قسنطينة في رحلة البكري:

يعتبر البكري صاحب أول نص رحلي شامل في وصف مدينة قسنطينة[2] فهو يقول:

« هي مدينة أزلية كبيرة آهلة ذات حصانة و منعة ، ليس يعرف أحصن منها ، و هي على ثلاثة أنهار عظام تجري فيها السفن ، قد أحاطت بها ، تخرج من عيون تعرف بعيون أشقار

---

[1] ــ هاشم صالح ،تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، دار الثقافة ، الجامعة العربية 1963 ، ص ، 274.

[2] - عبد الله حمادي أصوات من الأدب الجزائري الحديث ، ص318.

(تفسيره سود) تقع هذه الأنهار في خندق بعيد القعر ، متناهي البعد قد عقد في أسفله قنطرة على أربع حنايا ثم بنى عليها قنطرة ثانية ، ثم على الثانية قنطرة ثالثة من ثلاث حنايا ثم بني فوقهن بيت يساوي ضفتي الخندق يعبر عليه إلى المدينة، ويظهر الماء في قعر هذا الوادي كالكوكب الصغير لعمقه وبعده. و يسمى هذا البيت العبور لأنه معلق في الهواء .

و يسكن قسنطينة قبائل شتى من أهل ميلة و نفزاوة ، و قسنطينة (بالجريد) و هي لقبائل كتامة و بها أسواق جامعة ، و متاجر رابحة[1]».

والبكري من خلال هذا النص الوصفي يقدم لنا صورة عن مدينة قسنطينة في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي). أيام كانت تحت حكم الأغالبة ،

و هي صورة شاملة تكاد تلامس كل النقاط التي تناولها رحالون آخرون بل و تتجاوزها من حيث ما حملت من معلومات إضافية تميزت بكونها أكثر دقة وتفصيلا . وحتى و إن لم تكن من بنات المشاهدة و المعاينة فهي من ثمرات مطالعة كتب الثقات .

فمدينة قسنطينة حسب ما جاء في نص البكري **مدينة آهلة بسكانها** و هي ذات **حصانة**

و منعة ليس يعرف أحصن منها ، و صفة المنعة هذه ليست جديدة عند البكري ذلك

أنها الصفة التي تلازم المدينة منذ أول ظهورها على صفحة الزمن و التي يكثر ورودها

في النصوص التراثية التي تتحدث عنها ،والمؤرخ الواقدي عندما يتحدث عن الفتح الإسلامي للمدينة يشير إلى هذه المنعة في الحوار الذي دار بين سكان قسنطينة و الفاتح الإسلامي عقبة:«... فقالوا له أيها الملك أنت تعلم أن مافي الأرض الخضراء أحصن من بلادنا و لا أقوى منا رجالاو لا مالا ، وليس لنا إلا أن نتحصن في بلدنا و نترك العرب و لا نقاتلهم أبدا» [2].

فهذا الحوار « شهادة على منعة قسنطينة وحصانتها نظرا لما تتميز به من موقع جغرافي فريد من

---

[1] ـــ البكري ، المسالك و الممالك " المغرب في ذكر افريقيا و المغرب " دار المثنى ، بغداد 1965و ينظر كذلك ، طبعة دي سلان . الجزائر1911،ص 62.

[2] ـــ الواقدي، فتوح إفريقية ، مطبعة المنار . تونس1966 م ، ص 115 منقول عن أصوات من الأدب الجزائري الحديث.للدكتور عبدا الله حمادي ، ص :316 .

3ـــ د . عبد الله حمادي أصوات من الأدب الجزائري الحديث. ص316

نوعه، كما أخصلتين ستظلان سمّة مميزة للسكان يتردد ذكرهما في معـــظم المصادر التي تتعرض لقسنطينة بالذكر : شجاعة الرجال ووفرةالمال[1]»

وإلى هذه الصفة يشير بن فضل بقوله: « هي بلد ـــ يقصد قسنطينة طبعا ـــ متحضر في غاية الحصانة والمنعة[2]»..

و يشير إليها صاحب تاريخ قسنطينة أحمد بن المبارك في قوله : «... و كانت في سالف الزمان تسمى بالحصن الإفريقي ، يضرب بها المثل في التحصن لكونها مبنية على جبل والهواء يحيط بها من كل جهة كدوران الخاتم في الأصبع[3] ... ».

ثم إن المدينة حسب ما جاء في وصف البكري **على ثلاثة أنهار** على جانب من الاتساع و كثرة المياه بحيث يتسنى للسفن أن تجري فيها و هذه الأنهار الثلاثة أحاطت بالمدينة فالإحاطة إذن كلية و ليست كما ذكر المقدسي الذي بين أن الوادي يحيط بها من ثلاث جهات. و هذه الأنهار العظام تنبع من عيون تسمى " أشقار" أي سود. لتصب مجتمعة في خندق بعيد القعر هو الوادي المحيط بصخرة قسنطينة والذي يعرف بخوانق الرمال الشهيرة Les gorges du rumel.

و يبلغ طوله حوالي 2800م و يبدأ في الشمال عند سيدي راشد و في منطقة القنطرة ينحرف هذا الأخدود بزاوية تكاد تكون قائمة حيث يترك اتجاهه الأصلي ليمر بمنخفض المنصورة وسيدي مسيد.

و أسفل هذا الخندق عقدت **ثلاث قناطر** الواحدة فوق الأخرى بطريقة تدل على مهارة و براعة في البناء لا تفوقهما سوى دقة البكري و براعته في التفصيل ، و لعل هذه القنطرة هي التي ذكرها ابن المبارك في قوله :« و كان بها (يعني قسنطينة) سبع قناطر ستة على البلد و واحدة كلها انهدمت و اندثرت

إلى زمان صالح باي* جدد بناء القنطرة الموجودة اليوم[4] ».

---

[2] ـــ ابن فضل الله ، مسالك الأبصار في مسالك الأمصار ، ط . الجامعة التونسية 1974 .

[3] ـــ الحاج أحمد بن المبارك بن العطار. تاريخ قسنطينة ، ، ص 34.

* - تولى صالح باي حكم قسنطينة من سنة 1185هـــ إلى سنة 1206 هـــ .

[4] - الحاج أحمد بن المبارك تاريخ قسنطينة ،ص ،35 .

و حتى يتمكن السكان من العبور إلى المدينة بنى فوق هذه القناطر بيتا يساوي بين ضفتي الخندق ويُسمّى العبور لكونه معلقا في الهواء .

و عن منظر **ماء الوادي** داخل الخندق يقدم لنا البكري صورة جميلة تنم عن شاعرية الرحالة و قدرته على التصوير الدقيق . فالخندق لعمقه وبعده يبدو الماء فيه كالكوكب الصغير، وما يؤكد صدق الصورة ودقة الوصف هو أن الرحالة ابن سعيد الأندلسي(605هـ ـــ 685هـ / 1208م ـــ 1286م) أورد الوصف نفسه عند وصفه مدينة قسنطينة في القرن السابع الهجري فقد جاء في وصفه :« و لها نهر ينصبّ في خندقها العظيم الشرقي ، و يسمع له دوي هائل ، دائرمن أعلى المدينة في قعر الخندق مثل دؤابة النجم لبعد المسافة[1]... » إن اهتمام الرحالة بهذا المنظر الشاعري للوادي و الخندق يدل على مدى اشتهار الوادي في سائر البلاد الجزائرية، بل وسائر أنحاء المعمورة بروعة منظر مجراه الطبيعي في أعماق الشقوق الصخرية، كما اشتهر بدوره التاريخي الذي لا تعرف له بداية !.

و حول **الأنهار الثلاثة العظام** التي ذكرها البكري يثار كثير من التساؤل فمعظم الرحالين و المؤرخين والجغرافيين يذكر لقسنطينة واديا هو وادي الرمال الذي ينطلق من مرتفعات سهول نوميديا عند حدودها التلية و يمر بأرض فرجيوة ، ثم يتجه نحو الشرق غير بعيد من جنوب الأطلس الشمالي عند منحدرات شلغوم العيد " شاطودان سابقا"وعندما يجتاز المضايق الشرقية من جبل قروز ، يدخل سهول قسنطينة و يلتوي في عدة جهات. وحين ينتهي إلى شمال عين السمارة يضيق مجراه ضيقا ظاهرا، ثم يستدير في شبه

دائرة تكاد وتكون تامة الإستدارة . و بعدها يأخذ في الانسياب رويدا رويدا عبر الصفائح الكلسية عند جبل الحاج بابا سطح الباي ، و يستمر في جريانه فوق شعاب قريبة من رأس شعبة حل المرج، و على مسافة ثمانية كلم من هناك يلتقي مع الشعبة المذكورة والناحية السفلى من وادي ملاح حيث تجتمع مياه الجميع مع وادي بومرزوق، و من ثم تتوجه الأنهار الثلاثة بعد أن تكون توحدت في رحلة رومانسية عبر خوانق قسنطينة les gorges de constantine *.

---

[1] - **ابن سعيد الأندلسي،كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي . ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر، 1982. ص . 142 .**

* **انظر الملحق (4).**

و لعل هذا ما عبّر عنه صاحب كتاب « أم الحواضر» عندما قال : « و الظاهر أن المدينة كان بها عدد من الأودية غير ما ذكر فقد قال عنها أبوعبيد بن عبد العزيز البكري الأندلسي في كتابع (المغرب في ذكر بلاد بلاد إفريقيا والمغرب) في القرن الخامس الهجري ، (الحادي عشر الميلادي) «و هي ــ يعني قسنطينة ــ على ثلاثة أنهار عظام تجري فيها السفن وقد أحاطت بها، تخرج من عيون تعرف بعيون أشقار ومعناه سود إلى آخر كلامه[1]» فهل الوادي الثالث هو الذي كان يشق المدينة، وبقي اسمه ــ دون مسمّاه ــ إلى اليوم سمّي به وسط المدينة (باب الوادي) أم هو الذي يقال عنه إنه كان يمر غربي المدينة و يلتقي مع بقية الأودية في أراضي السهل المسمّى اليوم المَنْية بفتح الميم وتسكين النون و فتح الياء بعدها هاء الوقف.

و مما جاء في وصف البكري أن مدينة قسنطينة كانت بها أسواق جامعة و متاجر رائجة ذلك أن المدينة بعدما عاشته من أحداث اللا إستقرار و اللا أمن عرفت نوعا من الإستقرار امتد لفترة من الزمن تقارب الستين سنة (486هــ / 547هــ) نعم خلالها السكان بالأمن مما ساعد على ازدهار التجارة و الصناعة و الفلاحة بالمدينة و أقاليمها ;أصبحت بها أسواق عامرة جامعة و متاجر رائجة السلع ، و أصبحت المدينة مركزا تجاريا هاما لمبادلة السلع و البضائع .

و ما يمكن استنتاجه من وصف البكري هو أن اشتمال قسنطينة على أنهار ثلاثة من الكبر بحيث تجري فيها السفن كلام يقبل الأخذ و الرد و قد يكون من قبيل الغرائبية التي كثيرا ما يجنح إليها الرحالون في وصفهم و مشاهداتهم .

ثم إن أبا عبيد الله البكري استطاع بما أوتي من بداهة الأديب الأريب أن يقدم لنا مشاهد دقيقة عن المدينة يمكن دون ريب أن تنير زاوية من زوايا تاريخها العريق.

ــ مدينة قسنطينة في رحلة العبدري «الرحلة المغربية أو الرحلة العبدرية».

هو محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود المكنّى بأبي عبد الله، فقيه ولغوي مغربي من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي).

---

[1] **ــ محمد المهدي بن علي شغيب ،أم الحواضر في الماضي والحاضر ، ص 263.**

ولد بمدينة بلنسية سنة (688هـ ـــ 1289م) و نشأ في الريف الجبلي بالصويرة من مراكش حيث سكن أهله ،ثم انتقل إلى العيش في (حاحة) في السوس الأقصى حيث قضى أيام شبابه.

رحلته :

من ثنايا رحلة العبدري المعروفة (بالرحلة المغربية) أو (العبدرية) نستخلص أنه قام بهذه الرحلة انطلاقا من الصويرة (موجادور) سابقا ، في الخامس و العشرين من شهر ذي القعدة سنة (688 هـــ ـــ 1289م) تاركا وراءه أسرته مع قبيلة (حاحة) المغربية عازما الحج ومعه ولده. و سار ببطء ليتوقف خلال الرحلة وقفات طويلة في المدن الكبرى وفي غضون هذه الوقفات حاول العبدري أن يتعرف على مواقع المدن التي يحل بها و يدرس معالمها مركزا على الناحية العلمية لذلك جاءت رحلته فيضا من المساجلات والمناقشات مع علماء المدن التي حل بها تنم بصدق عما حازه الرجل من سعة معارف و اتقاد ذهن وحضور بديهة.كما تشتمل الرحلة على وصف للمغرب العربي ومدنه وطرقه وسبل عيشه.وبعض طبائع أهله كماكان سائدا في عصره.

بدأ العبدري تسجيل رحلته من تلمسان التي انطلق إليها من المغرب الأقصى عبر(صحراء الأنكاد) ومن تلمسان اتجه إلى مليانة ثم قصد بجاية التي خلبته بما حباها الباري من مناظر خلابة ومساجد جذابة.

وبعد يومين من إقامته بها اتجه إلى ميلة و منها إلى قسنطينة ثم " بونة " عنابة فتونس التي وجد فيها ما أنساه ما أصابه من خيبة أمل نتيجة الأوضاع التي ألفى عليها المـــدن الجزائرية التي مر

بها،و سبقت الإشارة إليها . ومن تونس انتقل إلى القيروان و منها إلى قابس فطرابلس ثم برقة و الإسكندرية ثم توجه إلى مكة المكرمة عن طريق البر .

وبعد أن أدى فريضة الحج مضى إلى فلسطين ثم ذهب إلى مصر برا مكملا رحلة العودة إلى(حاحة)

مصادره : اعتمد العبدري على ماسجّله في رحلته على مشاهداته وانطباعاته الشخصية وعلى ما روي له دون أن يهمل ما كتبه الرحالون المتقدمون عليه مثل البكري و ابن بطوطة والعياشي

.ولقد نشرت الرحلة بالجزائر 1965م على يد أحمد بن جدّو، و في الرباط بالمغرب 1968 م على يد أحمد الفاسي .

وصف مدبنة قسنطينة في ا لرحلة العبدرية : توقف العبدري أثناء رحلته بمدينة قسنطينة وجاء حديثه عنها مطولا على امتداد ست صفحات (من الصفحة 32 إلى الصفحة 37) فهويقول « ثم وصلنا إلى البلد الذي نشّفت الخطوب معينه ، و أبت الأقدار أن تكون له مُعينه ، بلد الوضع العجيب و الموضع الخصيب ، مدينة قسنطينة جبر الله صدعها و كفاها من نوائب الدهرما واصل قرعها .وهي مدينة عجيبة غير أنها لخطوب الزمان مستكينة. قد ذبلت ببوارح الغير، و فوادح الضرر رياضها، ونضبت بسهام الآفات و عظائم الملمات حياضها، حتى صارت كالحسناء ليست أسمالا، و الكريم فقد مالا، والبطل أثخنته الجراحة حتى لم يطق احتمالا، فهي ترى الحوادث لَمحْاً باصرا، و تنادي بلسان الذل لو أجد ناصرا !»[1].

من رأيت المنون خلدن أمن   ذا لديه من أن يضام خفير

فهو يصف قسنطينة بعد أن ينعتها بالمدينة العجيبة الحصينة ذات الأراضي الزراعية الخصبة بأنها لخطوب الزمان مستكينة ، فقد نشّفت المحن المتوالية عليها كل معين للخير بها و تنكر لها كل شئ حولها حتى الأقدار فقد أبت أن تقدم لها يد العون غدت أشبه بحسناء لبست أسمالا أو كريم فقد مالا أو بطل أثخنته جروحه.

و هو وصف يغلب عليه نوع من التشاؤم الذي كان مردّه إلى حالة المدينة المتردية وتقهقر العلم وقلة العلماء«يمكن إطلاقه عليها اليوم لما تعانيه من ضياع و إهمال لماضيها وحاضرها»[2].

و عن العمران بالمدينة يذكر العبدري أن الأمم التي توالت على قسنطينة خلّفت « آثارا عجيبة ومباني متقنة غريبة و أكثرها من حجر منحوت، يعجز الوصف عن إتقانه ويفوت...»[3] مما يدل على أن المدينة شهدت في مراحل تاريخها نوعا من الإستقرار السياسي والهدوء الاجتماعي والرخاء الاقتصادي وهي دون شك عوامل أساسية لازدهار الشعوب ورخائها، فاتسع العمران ببناء القصور الملكية والبيوت الخاصة، والصوامع والمعابد ومنازل الطبقة الميسورة، ومساكن الجيش التي روعي فيها الفن المعماري القرطاجي والإغريقي مما يدل على

---

[1] - **العبدري، الرحلة،ص 32.**

[2] - **عبد الله حمادي،أصوات من الأدب الجزائري الحديث ، ص320.**

[3] - **العبدري الرحلة ، ص32.**

ارتفاع الذوق الفني لدى هذه الشعوب والذي كان ولا ريب المحرك الأساسي لأطماع الرومان في المدينة**!.**

وينتقل العبدري إلى الحديث عن **وادي الرمال** ساحر الشاعر و الرحّال و حلية قسنطينة عبر الأجيال فيقدم له وصفا مغايرا نسبيا لما وصفه به غيره من الرحالة، فهو لم يعد يحيط بالمدينة كما ذكر المقدسي**:** « هي كالقلعة تحيط بها المياه من ثلاث جهات **...** » أوكما ذكر البكري**:** « قد أحاطت بها »**.** وليس عقدا كما عند الإدريسي**:**« **..**و يحيط بها الوادي من جميع جهاتها كالعقد مستديرا بها**..**»**.** بل أصبح سوارا يحيط بمعصم اليد وهو الصورة التي سترافق قسنطينة إلى يومنا هذا و تظل تتناسخ لدى الشعراء لتنجب صورا أخرى»[1]**.** و لربما وظفت هذه الصورة في مجال آخر من مجالات الجمال القسنطيني كما هو الحال عند أحمد بن المبارك العطار صاحب (حاضرة قسنطينة) حيث وظّف الصورة في وصف المدينة في شموخ موقعها فقال **:** « و الهواء يحيط بها من كل جهة كدوران الخاتم في الأصبع **...**»[2]**.**

و لا نعجب إن وجدنا الصورة بلفظها عند إبن جبير في القرن السادس الهجري و هو يصف مدينة (نصيبين) التي سبقت الإشارة إليها في الفصل الأول من بحثنا هذا إذ يقول **:** « ينساب بين يديها نهر و قد انعطف عليها انعطاف السوار**...**»[3].

وكشأنه مع كثير من البلاد العربية و دون أن يأخذ في الإعتبار ما يقف عليه من فروق في العادات والتقاليد و الواقع المعيش و الطبائع بين ما اعتاد عليه بين أهله و عشيرته ومن ارتحل إليهم، أصدر العبدري حكما مجانبا للحقيقة فيه كثير من القسوة و الغلو على أهل قسنطينة و ذلك عندما سلّط لسانه الحُطيئي على المدينة فنعتها بالجمود الفكري وموت الحركة العلمية والدينية بهاوذلك حين سأل عن شخصية مرموقة في دنيا الأدب ونعني الأديب أبا علي بن محمد القسنطيني المعروف بابن الفكُّون الذي بلغت شهرته بلاد الأندلس آنذاك، وعن قصيدته المشهورة، غير أنه فوجئ بجهله من قبل قومه وفي عقر داره، يقول العبدري**:** «و لم أر بها من ينتمي

---

[1] - د ،عبد الله حمادي، المرجع السابق. ص 321.

[2] - الحاج أحمد بن المبارك، تاريخ حاضرة قسنطينة، تصحيح وتعليق نور الدين عبد القادر، ط1 الجزائر، 1952، ص34.

[3] - إبن جبير، الرحلة، دار صادر، بيروت، 1964، ص 309.

إلى طلب، ولا من له في فن من فنون المعارف أدب، سوى الشيخ أبي علي حسن بن بلقاسم بن باديس وهكذا قيد لي اسم أبيه بخط مخطوط و قال لي إنه اسم

و كنية، و هو شيخ من أهل العلم يذكر فقها و مسائل، ذو سمت وهيئة ووقار وليس في البلد من يذكر بعلم سواه البتّة، له بالرواية عناية و لم يرو إلا الموطأ وحده فإنه قد قرأه على الشيخ الفقيه المحدّث أبي يعقوب يوسف بن موسى الغماري الحساني حين خطر على قسنطينة راجعا من المشرق فأقام عندهم مدة لتوالي الأمطار...»[1] ثم يقول: « وسألته عن الأديب أبي علي حسن بن علي بن محمد القسنطيني المعروف بابن الفكون ، فذكر لي أنه أدركه و هو طفل صغير و لم يحفظ له مولدا و لا وفاة، ورمت أن أجد من أروي عنه قصيدته المشهورة في رحلته من قسنطينة إلى مراكش، فلم أجده، فقيدتها هناك غير مروية..»[2].

والقصيدة التي يطلبها العبدري والمجهولة في قسنطينة ولدى القسنطينيين، كان ابن محمد المعروف بابن الفكُّون قد بعث بها إلى أبي البدر بن مردنيش وهو بقسنطينة ويقول فيها:

ألا قل للسري بن السري	أبي البدر الجواد الأري
أيا معنى السيادة و المعالي	و يا بحر الندى بحر الندي
أما و بحقك المبدي جلالا	و قد حزت من حسب علي
وما بيني و بينك من ذمام	و ما أوتيت من خلق رضي
لقد رمت العيون سهام غنج	وليس سوى فؤادي من رمي
فحسبك نارقلبي من سعير	وحسبك دمع عيني من أتي
و كنت أظن أن الناس طرا	سوى زيد وعمرو وغير شي
فلما جئت ميلة خير دار	أما لتني بكل رشا أبي
و كم أورت ضباء بني ورار	أوار الشوق بالريق الشهي
فجئت بجاية فجلت بدورا	يضيق بوصفها حرف الروي
و في أرض الجزائر هام قلبي	بمعسول المراشف كوثري

[1] - العبدري، الرحلة، ص ص 32 ــ 33.

[2] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

و في مليانة قد ذبت شوقـــا　　بلين العطف و القلب القسي

و في تنْس نسيت صبـــــري　　و همت بكل وجه وضي

و في مازونـــة ما زلت صبــا　　بوسنان المحاجر لوذعـــي

و في وهران قد أمسيت رهْناً　　لضامر الخصرذي رِدْفٍ رَوِي

و أبدت لي تلمســـان بُـــدورا　　جَلَبْنَ الشوق للقلب الخلي

و لما جئت وجدة همت وجدا　　لمنخنث المعـــاطف معنوي

و حلَّ رشا الرباط رشا رباطي　　و تيَّمني بطرف بابلـــي

و أطلع قُطر فاسٍ لي شُموسًا　　مغاربهن في قلبي الشجي

و ما مكناسة إلا كناســـــــا　　لاحوى الطرف ذي حسن سني

و إن تَسْلاعن أرض سلا ففيها　　ظباء صـــائدات للكمي

و في مراكش يا ويح قلبـــــبي　　أتى الوادي فطمّ على القرى

بـــدورٌ بل شموس بل صبـــاح　　بـــهي في بـــهي في بهي

أتحن مصارع العشـــاق لمـــــا　　سعين به فكم ميت وحي

بقامـــة كـــل أسمر سمهـــري　　ومقـــلة كل أبيض مشرفي

إذا أنسوني الولدان حسنـــا　　أنسيهم هوى غيلان مـــي

فها أنا قد اتخذت الغرب دارا　　وأدعـــى اليوم بالمراكشي

على أن اشتياقـــــي نحو زيد　　كشوقي نحو عمرو بالسري

تَقسَّمني الهوى شرقا و غربا　　فيا للمـــشرقـــي المغـــربي

فلي قلب بأرض الشرق عان　　وجسم حل بالغرب القصي

فهذا بالغدو يهيم غربـــــا　　وذاك يهيم شرقا بالعشي[1]

لولا اللهُ مِتُّ هوًى و وَجْد ا　　وكم لِلَّهِ من لـــطفٍ خَفِي !

---

[1] ـــ العبدري، الرحلة، ص **34** ، **35**.

و نعجب أن يعمد العبدري إلى وصم أهل مدينة قسنطينة بالجهل و التقصير في حق أهل العلم والأدب من أبناء المدينة ليضيف حكما أشد قسوة من الأول الذي قد نجد له مبررا فيه !فحكمه الثاني فيه كثير من المبالغة ومجانبة الحقيقة فشاعر قسنطينة الفحل أبوعلي حسن ابن عمر بن الفكون الذي سأل عنه العبدري و لم يجد من يعرفه و لا من يحفظ له من الأشعار قصيدته المشهورة الآنفة الذكر !لم يكن مغمورا لا هو و لا قصيدته إلى الحد الذي ذهب إليه ، فقد ذكر الشيخ أبو العباس أحمد المقري الذي تلقى كتابا وافاه من الشيخ العلامة عبد الكريم الفكّون أحد أسلاف الشاعر بعث إليه به سنة ثمانية وثلاثين و ألف للهجرة و في تعليقه على هذا الكتاب يذكر الشاعر و قصيدته.

«و المذكور عالم المغرب الأوسط غير مدافع، و له سلف و علماء ذوو شهرة، و لهم في الأدب الباع المديد، غير أن المذكور (يقصد الشيخ عبد الكريم الفكون) مائل إلى التصوف ونعم ما فعل، تقبل الله عملي وعمله وبلّغ كُلاًّمنا أمَله، ولأشهر أسلافه العلامة الشيخ حسن بن علي بن عمر الفقون القسنطيني، أحد مشايخ العبدري صاحب الرحلة، قصيدة مشهورة عند علماء المغرب وهي من در النظم وحر الكلام، وقد ضمّنها ذكر البلاد التي رآها في ارتحاله من قسنطينة إلى مراكش وأولها:

ألا قل للسري بن السـري ... أبي البدر الـجواد الأريـحي»[1]

و من خلال وصف العبدري لقسنطينة نخلص إلى :

ما يلفت النظر في الرحلة ككل:

1 ـــ حدة العبدري في قسوة أحكامه على ما يلقاه أحيانا من سوء الحال و قلة العلم أو خلو المساجد من العباد ، و قد يضيق بلقاء الناس في بعض البلاد للغرباء، فيصب جام غضبه على كل السكان و لعل هذا الذي حصل له مع مدينة قسنطينة.

2 ـــ ما تميز به وصفه من الأسلوب الأدبي الجميل و العبارة العذبة المسبوكة بحذق والألفاظ المختارة الدالة على المشاعر والمناسبة للمقام، أضف إلى ذلك حسن التصوير واستعانته بالشعر - الذي أغلبه من نظمه ـــ في تطريز رحلته.

---

[1]ــ **المقري شهاب الدين بن محمد التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، القاهرة، 1936.**

و من هنا لن نجافي الحقيقة إذا قلنا إن رحلة العبدري رغم ما فيها من قسوة الأحكام تمثل تحفة في مجال النثر الفني الأدبي لما حفلت به من ألفاظ منحوتة و معان مرتبة و أسلوب مصقول، غير أن الرونق الأدبي لا يغطي أهمية المعطيات الجغرافية والتاريخية التي سجلها يراع الرحالة حيث حفلت الرحلة بوصف دقيق للأماكن والمعالم الأثرية والأحوال الإجتماعية، وإن كان قد اكتفى بتسجيل الظواهر العابرة التي صادفته في رحلته السريعة دون أن يعنى بتحليل مشاهداته.

5- مدينة قسنطينة في كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار (لمؤلف مجهول)

مما يدعو للأسف أننا نجهل مؤلف الكتاب فباستثناء ابن أبي زرع صاحب كتاب (روض القرطاس) الذي يذكر عنوان الكتاب[1] ، أو المؤرخ التونسي عثمان الكعَّاك الذي يذكر أن اسمه هو" العمري" [2] أو إشارة محقِّق الكتاب الدكتور سعد زغلول عبد الحميد إلى أنه من مراكش من القرن السادس الهجري ، 12م [3] و لم يشر حسب علمنا أي كتاب آخر إلى الكتاب أو إلى مؤلفه ، أضف إلى ذلك أن المؤلف نفسه لم يمدنا خلال كتابته بأية معلومة عن شخصيته .

الكتاب : مضمونه و مصادره :

إن النظرة السريعة إلى الكتاب تبين أن موضعه بين كتب الجغرافية العربية ، غير أنه من الصعوبة بمكان وضعه في موضعه الصحيح بين أصناف الكتب الجغرافية المعروفة .

و الحقيقة لو أننا أخذنا بعنوان الكتاب و هو كتاب " الإستبصار في معرفة الأمصار " لوجب وضعه بين مجموعة كتب المسالك و الممالك أو أدب الرحلات فزيادة على عنوان الكتاب فهو يحتوي على معلومات دقيقة و أخبار عامة و أساطير طريفة جمع بعضها إلى بعض بغرض تقديم وصف سهل لطيف مستساغ للقارئ قائم على المشاهدة و السماع[4].

والكتاب ينقسم إلى ثلاثة أقسام مختلفة هي:

الأماكن المقدسة (مكة والمدينة) و مصر و بلاد المغرب.و قد استخدم المؤلف في تصنيفه الأقسام الثلاثة مصادر مختلفة يذكرها في بعض الأحيان و منها : المسعودي وابن وصيف و

---

[1] ــ مؤلف مجهول، كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، 1985م ص 03 .

[2] ــ الكعاك، عثمان، مجلة الأصالة، السنة 5 ، يونيو 1997 ، ص 58.

[3] ــ كتاب الاستبصار، ص 1، و الغلاف.

[4] - المصدر نفسه، ص 3.

ابن عبد الحكم ثم البكري وأخيرا معلوماته الخاصة المستمدة من مشاهداته .و رغم أنه لا يذكر الرحالة الإدريسي فالظاهر أنه تأثر به في أكثر من موضع.

و الملاحظ هو أن المؤلف يتخلص من آثار الماضي التي تسلطت على نفسه وقلمه عندما يخلص إلى وصف بلاد المغرب فهو يسجل ما شاهده و يعطي وصفا أكثر دقة.

وإذا راعينا أنه كان مغربيا (مراكشيا) و بالتالي عارفا بالبلاد التي هي موطنه فهمنا بسهولة أن هذا القسم من الكتاب يفوق في أهميته ما سبقه من الأقسام .

وصف مدينة قسنطينة في كتاب " الإستبصار "

يقدم صاحب الاستبصار وصفا لمدينة قسنطينة يلتقي في كثير من مناحيه مع ما قدّم المقدسي والإدريسي والبكري و العبدري خاصة فيما يتعلق **بعراقة المدينة و منعة موقعها و قناطرها وواديها العظيم ومواردها المائية وما بقي بها من آثار للأُوَّل ...**

فهو يقول :« ... من المدن المشهورة بإفريقية مدينة قسنطينة و هي مدينة كبيرة عامرة قديمة أزلية ، فيها آثار كثيرة للأُوَّل وكان لها ماء مجلوب يأتيها على بعد على قناطر تقرب من قناطر قرطاجنة ، و فيها مراجل عظام مثل الذي بقرطاجنة (كأننا به يريد أن يؤكد وحدة الباني) أي الذي بنى قرطاجنة كما أشار ابن المبارك».[1]

ثم يقول : «ومدينة قسنطينة حصينة في نهاية من المنعة و الحصانة لا يعرف بإفريقية أمنع منها ، ليس لها في المنعة نظير غير مدينة رندة بالأندلس فإنها تشبهها في وضعها والخندق المحيط بها والحافة المحدقة بها شبها كثيرا[2] ...»

ثم يفاضل بين المدينتين (قسنطينة و رندة الأندلسية فيذكر أن " قسنطينة " أعظم و أكبر و أعلى و هي جبل عظيم من حجر صلد)، و عند الإدريسي (على قطعة جبل متقطع فيه بعض الإستدارة) وقد شق الله تعالى ذلك الجبل فكان فيه خندق عظيم يدور بالمدينة من ثلاثة جوانب. ونهرها الكبير يدخل على ذلك الخندق ويدور بالمدينة فيسمع لجريانه في ذلك الخندق دوي عظيم هائل وصوت مفزع لمن يقرب منه.

---

[1] - **الحاج أحمد بن المبارك تاريخ قسنطينة ، ص 33.**

[2] - **كتاب الاستبصار، ص 166.**

وقد عقد الأولون على هذا الخندق قنطرة عظيمة بل ثلاثا بعضها على بعض. وهي بالجو قربت من أعلى الخندق،وعليها الدخول إلى باب المدينة بنيت على أقباء يسميه أهل المدينة العبور لأنه معلق في جو السماء، فإذا كنت في وسط هذه القنطرة تعبر إلى الضفة الثانية تظن أنك تطير في الهواء.وترى ماء النهر الكبير في قعر الخندق البعيد المهوى مثل الجدول الصغير.

وهذه المدينة من عجائب العالم قد دخلتها، مرارا وتأملت آثارها ودخلت مواضع كثيرة فيها آثار للأُوَّل فتأملتها و(**كأني بيه حريص على تأكيد المعاينة**). وكان لي في ذلك غرض[1]..

و المتأمل لنص صاحب الاستبصار يقف دونما عناء على ما بينه وبين نصوص الرحالين المتقدمين عليه، في وصف مدينة قسنطينة من كبير شبه يصل في أحيان كثيرة إلى حد التطابق. فبالإضافة إلى اشتراكه مع البكري مثلا في الحديث عن **منعة قسنطينة** يلتقي معه في وصف **النهر** في قعر الخندق مع تباين طفيف، فالبكري يصفه ولبعدا لمسافة بقوله :« ويظهر الماء في قعر هذا الوادي من هذا البيت كالكوكب الصغير لعمقه وبعده[2] ...» وأما صاحب الاستبصار فيصفه بقوله «وترى ماء النهر الكبير في قعر الخندق البعيد المهوى مثل الجدول الصغير». وهي صورة ولا ريب أكثر تفصيلا وأكثر دقة .كما يلتقيان في وصف **بيت العبور** المساوي بين ضفتي الخندق والذي يعبر عليه إلى المدينة مع اختلاف طفيف فالبكري يقول:«ويسمى هذا البيت العبور لأنه معلق في الهواء».[3] وأما صاحب الاستبصار فيقول :« يسميه أهل المدينة (العبور) أي الشعرى لأنه معلق في السماء »[4].

و لم يفصل صاحب الاستبصار في **هندسة بناء القنطرة** المشكّلة من ثلاث قناطر و اكتفى بالقول "بل هي ثلاث قناطر بعضها على بعض وهي بالجو قربت من أعلى الخندق وعليها الدخول إلى باب المدينة".في حين يقدم البكري وصفا دقيقا لهما إذ يقول :« في أسفله قنطرة على أربع حنايا ثم بني عليها قنطرة ثانية ثم على الثانية قنطرة ثالثة ، من ثلاث حنايا ،ثم بني فوقهن بيت يساوي ضفتي الخندق يعبر عليه إلى المدينة»[5].

---

[1] - الحاج أحمد بن المبارك تاريخ قسنطينة ، ص166 ..

2 - البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقياو المغرب ص57- 58.

3 - المصدر نفسه، ص58.

4 -الاستبصار، ص65.

5 - المصدر السابق،،ص 61.

ولقد وصف الإدريسي أيضا هذه القنطرة كما سبقت الإشارة إلى ذلك وأبدع في وصفها**.**وهذه القنطرة أعاد بناءها –بعد أن هُدِّمت – صالح باي الذي حكم المدينة سنة 1185هـ وسنة 1206هـ وهو الباي الواحد والعشرون من بآيات قسنطينة[1]، وقد استعان على ذلك بأحد المهندسين الإيطاليين واستقدم للعمل بها ما يناهز المائة عامل من أوروبا، وكان صالح باي يرمي من عمله هذا إلى تشييد صف من الأقواس يكون بمثابة جسر وحنايا في آن واحد ، وبذلك يتمكَّن من جلب ماء عين العرب[*] الواقعة في أعالي سوق الغزل إلى داخل المدينة عن طريق الحنايا التي ترتبط بجسر القنطرة حتى لا يضطر السكان إلى حمل الماء من أسفل الوادي عبر باب الجابية**.** وعن **طبيعة الأراضي الزراعية** لمدينة قسنطينة يذكر صاحب الاستبصار ما تميزت المدينة من سعة الأراضي وخصوبتها وانتشار البساتين والفواكه المختلفة فيقول :«وهي على نظر واسع وقرى عامرة وآهلة، وهي كبيرة الخصب والزرع ولها بساتين كثيرة الفواكه»[2] غير أن هذه المدينة ومع ما حازته من مجد تليد ومناظر أخَّاذة وخيرات تجود بها أرضها المعطاء إلا أنها شديدة البرد والثلج كثيرة الرياح لعلوها وارتفاعها ويقصد الرياح التي تخفق فيها وتعصف عليها من كل جانب لارتفاعها[3]**.**

ومع ما قدَّمه صاحب الاستبصار في مؤلفه من وصف دقيق لما شاهده في مدينة قسنطينة تراوح بين الإجمال والتفصيل وزخر باللمحات التي تدل على قوة ملاحظته واتقاد ذكائه وصفاء ذهنه وسعة اطلاعه إلا أنه أغفل جانبا مهما من حياة المدينة وهو الحياة العلمية والفكرية التي لم يهملها الرحالون المتقدمون ولا المتأخرون والتي تعد بحق السمة الملازمة للمدينة والمميزة لها على مدى الأ عصر خاصة وأن رحلته إلى هذه المدينة لم تكن عابرة أو خاطفة مما يحول بينه وبين التطرق إلى كل ما وقع تحت ناظريه من مشاهد ،فقد صرح بأنه دخلها مرارا و تأمل آثارها **...«** وقد دخلتها مرارا وتأملت آثارها ودخلت مواضع كثيرة ، فيها آثار للأول فتأملتها **...»**[4]

. 7- مدينة قسنطينة في رحلة ابن الحاج النميري :« **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة و الزاب .»**

---

[1] - **محمد صالح العنتري، تاريح قسنطينة،ص185 .**

[*] **عين ماء غزيرة كانت تزود الحوض الواقع خارج جسر القنطرة بالمياه الصالحة للشرب، وهي تقع قبالة المستشفى المدني .**

[2] - **المصدر نفسه، ص نفسها .**

[3] - **حمادي عبد الله ،أصوات من الأدب الجزائري الحديث ص 219.**

[4] - **محمد صالح العنتري، تاريخ قسنطينة، ص 166.**

هو أبو القاسم برهان الدين إبراهيم عبد الله بن محمد بن إبراهيم ابن أسد بن عبد العزيز بن إسحاق النميري الغرناطي ،ولد بغرناطة سنة 713هــ-1313م وتوفي بها سنة 774هــ.وهو كاتب سر ورئيس ديوان الإنشاء و خادم السلطان أبي عنان المريني (727م 757م)سلطان المغرب الأقصى .

انطلقت الرحلة من مدينة فاس سنة 758هــ إلى مدينة سلا ثم إلى فاس ومنها إلى قسنطينة ومن قسنطينة إلى الزاب ومن الزاب إلى إفريقيا ومنها إلى الزاب مستعيدة أدراجها إلى قسنطينة ومنها إلى مدينة فاس.

اهتم الرحالة ابن الحاج النميري بوصف المسالك و المماليك والمشاهد والآثار والمعالم والحفلات والمناسبات الخاصة والأعياد والعادات والتقاليد والمناظر الطبيعية وغير ذلك مما دخل في إطار تجوله وقع تحت سمعه وبصره رغم كونه مكلفا في مهمة رسمية، ورغم كونه لم يخل بنفسه إلا في ظروف استثنائية.

ولقد كان الوصف أهم العناصر التي طغت على أسلوبه في هذه الرحلة وميزت كتابته وحددت شخصيته، بل لن نكون مبالغين إذا قلنا إنه (أعني الوصف) المادة الأساسية التي تتكون منها بضاعته.

وصف مدينة قسنطينة في رحلة النميري: في وصف أظهر مقدرة فائقة في فن الكتابة وتميز بسجع طغى على الأسلوب التزمه الرحالة في أخباره وحكايته وتحليله المواقف قدم ابن الحاج النميري وصفا لمدينة قسنطينة و ما تميزت به من علو الموقع ومنعة المكان فهو يقول:

‹‹بلدة لم ترض غير السحاب بردا ،ولا طلبت لأجياد شرفاتها غير النجوم الزهر عقدا.. قسنطينة وما أدراك ما قسنطينة ،مرقى يقف دونه النجم الطائر ومأمن يلتقي على مركز مرافقه الماضي والحاضر ...››[1] ثم يصف صمود المدينة بوجه الغزاة الطامعين، وما تحلى به أبناؤها من شجاعة واستبسال في صد هؤلاء الغزاة حتى ولو أنهم عجزوا عن الصمود أمام جيش السلطان المريني الذي استطاع أن يدخل المدينة عنوة وبعد أن حاصرها لمدة تسعة أشهر بعد أن طرد منها من كان مناوئا له، وحرم أهلها من ماء الوادي بعدما غير مجراه. وقد توخى الرحالة في ذلك وصف الوادي في

---

1 - ابن الحاج النميري :فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الرحلة السعيدة إلى قسنطينة والزاب .دراسة و إعداد محمد بن شقرون ،دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1990، ص 319.

خندقــه الحجري وصفا قلما تسنى لرحالة أو شاعر غيره وقد يكون الوحيد الذي تفرد بوصفه بالثعبان الملتهم للحجارة.فهو يقول:

«ولطالما أدارت الحرب على قطبها رحى زبونها وحل حبها منهم محل السويداء من قلوبهم، والسويداء من عيونهم ...ولم يزل أهل قسنطينة على جديلة من أمرهم مصرين على العناد (عدم الاستسلام إلى السلطان) حتى أحفظوا الخليفة أعظم احفاظ، وأيقظوا عيون العزائم وأجفان الصرائم أي إيقاظ. وكان سلطانها الحفصي أحمد بن محمد بن أبي يحي قد اغتر منها بالمعقل الذي اشتهر في المعاقل والمعتصر الذي أعيا تسنّمه على الأواخر والأوائل، وأرغم أنوف الأحقاب وأشرف على الآكام العالية والهضاب إشراف العُقاب الكاسرة على الأباطح ذات السراب[1]...ثم يقول: واستقر كالعابر بواديه فآسى الشعر العبور وغمص الشعري الغميص وسلبها الشعور وكشف هواه عن ثعبان نهر يلتهم الصخرة الصيخود* وتنزل مخارم الجبال فتكثر الركوع والسجود...[1] ثم يصف المدينة حين أطل عليها السلطان أبو عنان المريني وصفا يلتقي فيه مع العبدري في كون كل منهما وصفها بالمرأة الحسناء، غير أن هذه الحسناء التي كانت على أيام العبدري قد لبست أسمالا، تصبح على أيام ابن الحاج النميري « شامخة الأنف وهيّة العطف ملتعة الجيد* معورة الألقاب، ترنو بذي شوس وتتعاظم تعاظم ذي هوس[2] .»

هكذا إذا يصف ابن الحاج النميري مدينة قسنطينة فهي المدينة التي ظلت ترنو إلى السماء بطرف ذي شوس وتتعاظم عظمة المهوس بجنون العظمة والكبرياء حتى ولو كان من شراسة أخلاقها ...!شموخ الأنف والتياع الجيد ...!

---

[1] - المصدر نفسه، ص ص 189-190

* الصيخود : الشديدة الحر .

[1] -ابن الحاج النميري ، الرحلة ،ص ص ،290-291 .

* ملتعة الجيد :طويلة العنق.

[2]- ا بن الحاج النميري ،المصدر السابق ص ن.

ثم يصور لنا فتح المدينة الذي راق بشرا، وكان طي كتب لأخباره نشرا وترك الجو بمسك ختامه معطرا.. وما تركه من بالغ الأثر في نفوس شعراء البلاد وكأني به يردد مع أبي تمام قوله في بائيته الشهيرة في فتح عمورية:

فَتْحٌ تَفَتَّحُ أبْوَابُ السَمَاءِ لَهُ   وَ تَبْرُزُ الأَرْضُ في أَبْرَادِها القُشُبِ

ويورد قصائد لبعض من هؤلاء الشعراء أمثال أبي العباس أحمد بن يحيى بن أحمد بن عبد المنان، وهو شخصية عظيمة من أكبر أعلام العصر المريني لا سيما في البلاط، وصاحب البائية الشهيرة والتي من أبياتها:

وسل بلطف القول في أمر فتحها   قسنطـــينة لما تسامى بها العجب

سموتَ إليها في جيوشك دارعـــا   كأنك بدر التمِّ تكنفـــه الشهب

مصاعبة لولاك عزما حميتـــــــهم   قسنطينة ما غرهم سمكها الصعب

تجرر زهوا ذيل أفخــــم فيلـــق   يضيق به في المهمة المترل الرحب

ولكن شـــكا لحلمك أهلـــها   وأمُّوك كهفا فانجلى عنهم الخطب

إلى أن يقول وفي وصف فريد غير مسبوق لمدينة قسنطينة الحصن الإفريقي المنيع:

هـــناء بـــها أم المعـــاقل منـــعة   قســـنطينة ما إن يـــرا ع لها سرب

كما نقف على أبيات من دالية ابراهيم بن الحاج النميري نفسه ومنها قوله :

وما تبعت يوما قسنطينة الهوى   هواها ولا كان التمنع عن عمد

ولكن لتحظى باقتراب خليفة   يدين بتقوى الله في الحل والعقد

وهذه المشاهد التي نقلها لنا ابن الحاج النميري في فيض العباب أكدها مؤرخ قسنطينة الحاج أحمد بن المبارك في كتابه تاريخ قسنطينة، ففي ذكره من غزا قسنطينة يقول:

« وأما من غزاها ووصل خبره إلينا فقد غزاها أبو عنان المريني من بونة، وحاصرها بجنود كثيرة، وقوة عظيمة، وقطع عنها النهر وجعل الماء يمشي إلى ناحية أخرى. وحلف لا يرحل حتى يدخلها ويجعل عاليها أسفلها ».

ولما تضرر أهلها بالعطش لجئوا إلى الولي سيدي علي بن مخلوف وتضرّعوا بين يديه فدعا الله تعالى فأرسل مطرا عظيما فشق سد النهر على عادةمجراه.

ثم وقع الصلح بين الفريقين بأن يدخل السلطان هو وجماعة قليلة من أتباعه لبر يمينه ويذهب عنهم، فدخل هو وخادم له لا غير وبات بها ليلة، ووجد اليهود يسكنون بحومة المزابل فردهم

إلى الشارع أسفل القصبة في مقابلة قوله (يجعل عاليها أسافلها)[1] ورحل عنها و لم ينل منها شيئا. إذ لم تلبث مدينة قسنطينة أن عادت إلى النفوذ الحفصي بعد عودة أبي عنان المريني إلى قاعدة ملكه بمدينة فاس بالمغرب لأقصى[2].

ومن معالم مدينة قسنطينة لم يغفل الرحالة الجامع الكبير (الأعظم) وما له من دور في حياة سكان المدينة. فهو يذكر أنه « لما طهَّر الله طينة قسنطينة من الخبائث وكفاها عبث السيفين سيف الخليفة وسيف الحوادث، وصرف عنها وجوه الخطوب والكوارث...

أمر أيده الله أن يرتب بجامعها الأعظم جملة من الفقراء.. ويجري لهم مرتبات صادقة الولاء على الولاء وأن يُكسى شيوخ مساجدها في كل عام، ويشفع لهم إحسانا بإحسان وأنعاما بأنعام، ويُختن في كل عاشوراء أولاد الضعفاء ويُكسون.. وكان من كمال ذلكم العمل الصالح وتمام ذلكم السعي الناجح أن أمر باجتماع أهل قسنطينة بمسجدهم الجامع»[3].

والجامع الأعظم هذا بناه الحاكم التركي حسين كلياني المعروف باسم الشايب بوكمية الذي حكم قسنطينة من1713 إلى1736م، بسوق الغزل بحومة رؤوس الدواميس.

وخلاصة القول أن ابن الحاج النميري وصف مدينة قسنطينة وصفا يبرز مدى عنايته الشديدة بوصف الظروف والملابسات والقرائن والمؤشرات التي تجعل الحدث يتخذ أبعادا واسعة مثيرة، تنقل القارئ من مستوى عالم المجردات إلى عالم المحسوسات المدركة بالعين والأذن... وكذا اهتمامه بالمرئيات والمسموعات التي كان يضفي عليها من نفسه ويبث فيها من روحه وعاطفته ما ينم عن صدق ولائه للملك المريني، وهو منهج من مناهج أدب الرحلة ولا ريب .

---

[1] - الحاج أحمد بن المبارك، تاريخ قسنطينة ، ص43.

[2] - يحي بن خلدون ،بغية الرواة ،تحقيق عبد الحميد حاجيات، 1980 الجزائر ج1، ص 129.

[3] - المرجع نفسه، ص322 .

-مدينة قسنطينة في رحلة الحسن بن الوزان :"وصف إفريقيا:

ولد الحسن بن محمد الوزان الزياني المعروف بالأسد الإفريقي (Léon l`` africain) في غرناطة آخر معاقل الإسلام بالأندلس سنة (894هـ-1489م) اضطرت أسرته شأن الآلاف من الأسر المسلمة التي آثرت الاحتفاظ بعقيدتها إلى النزوح عن موطنها الأصلي واللجوء إلى أقطار المغرب العربي ولاسيما بعد ظهور محاكم التفتيش وهكذا استقرت أسرته بمدينة فآس أين أتم تحصيله العلمي حسب الأسلوب الذي كان متبعا في مدارس فآس وجامعة القرويين الإسلامية .نال الوزان حظا جيدا من التعلم أهّله لأن ينال رضى أسرة بني وطّاس الملكية حيث عهدت له بثلاث رحلات سفارية في جنوب المغرب الأقصى أفضت به إحداها إلى مصر وبلاد الهوسا ومملكة غاوغه (جاوا) حاليا في شرق التشاد وقد أمضى عامي (922هـ923هـ)في مملكة المغرب. ومما لا ريب فيه أنه عهد إليه بمهمات سياسية تارة واقتصادية تارة أخرى إذ يبدو أنه كان مطلعا على بورصة الأسعار واختلافاتها بين بلد وآخر.

أُسِر الوزان في رحلته السفارية الأخيرة إلى الشرق والتي زار فيها كثيرا من مدن الجزائر ومصر حيث بوغت بما لم يكن في الحسبان في عرض بحر جزيرة جربه إذ هوجمت سفينته من قبل القراصنة الطليان من صقلية واقتادوه إلى روما التي بلغها في حوالي عام 1520م وقدّمه القراصنة مع زرافة هدية إلى البابا ليون العاشر الذي أحسن وفادته وأكرم مثواه .وفي روما تم تعميده على يد البابا نفسه في كنيسة القديس بطرس وسمي **(جوها نيس دو ميديسيس)**، أما هو فقد اختار لنفسه اسم **(جون ليون غونا تينو)**وبالعربية (يوحنا الأسد الغرناطي) أو جون ليون الإيبيري نسبة إلى شبه جزيرة أيبيريا أي إسبانيا والبرتغال. ومثلما كانت الدوافع التي حملته على القيام برحلته الكبرى في سنة 620هـ- 1515م مجهولة، لا تزال تفاصيل حياته في إيطاليا غير معروفة، وكذا ظروف عودته إلى المغرب بعد أن أعتقه البابا وتوفي الحسن الوزان بتونس سنة 960هـ-1552م.

رحلات ابن الوزان:من المؤسف جدا أن تظل تواريخ أسفار الرحالة مجهولة لدينا كلية والمؤسف أيضا أن هذا الرجل الذي عني بتسجيل أدق الدقائق عن البلدان التي تجول فيها قد أهمل أن يخبرنا

بتواريخ زيارته لها.ومن المؤكد أن رحلات الوزان المتعددة مكّنته من استكشاف إفريقيا الداخلية والشمالية.*

كتاب وصف إفريقيا:من المرجح أن الرحالة كان يدوّن المعلومات التي يجمعها في عين المكان، تلك المعلومات التي جمعها في كتابه (وصف إفريقيا)المشتمل على ثلاثة كتب رئيسة موزعة على تسعة أقسام.يشتمل كل قسم منها على وصف شامل لمعالم شمال إفريقيا من المغرب إلى مصر، ومن سواحل البحر المتوسط إلى أعماق بلاد السودان.

ولقد خصص القسم الخامس للدولة الحفصية وصف فيه مدن بجاية، جيجل، مسيلة، ميلة، سطيف، نقاوس، القل، سكيكدة، قسنطينة، بونة، تبسة، بالإضافة إلى المدن لتونسية والليبية.

مصادر الرحلة: يذكر ابن الوزان بعض المصادر التي استقى منها معلوماته ومن هؤلاء:المسعودي والبكري والإدريسي وابن الخطيب. ولكن قيمة الكتاب ليست فيما نقله عن هؤلاء وغيرهم، بل في ملاحظاته الشخصية التي تشكل صلب المصنف ومادته الأساسية، ثم هو قد احتفظ في مصنفه بروحه العربية التي تتمثل في القصص التي يسردها ليستخرج منها الموعظة والعبرة.. شأنه في هذا شأن مؤلفي المجموعات الأدبية التي اشتهر بها الأدب العربي[1].

وصف مدينة قسنطينة في رحلة الحسن الوزّان:

خصّ الرحالة الحسن الوزان مدينة قسنطينة بوصف دقيق **للحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية واليومية** التي كانت تعيشها المدينة بل والمنطقة كلها ولم يغفل من مشاهدته **النواحي العمرانية** ،وما لفت نظره من جمال الموقع وروعة التخطيط والتحصين. وكغيره من الرحالين يؤكد الوزان ما للمدينة من **ماض عريق** يعود بها إلى عهد الرومان الذين لا يستطيع منكر أن ينكر دورهم في تأسيس المدينة و«من المستحيل نكران ذلك عندما ترى أسوارها القديمة العهد ، العالية والسميكة والمصنوعة من حجارة منحوتة مسودة[2] ..».

وعن **الموقع** يذكر الرحالة أن المدينة تقع فوق جبل شديد الارتفاع ، وهي محاطة من الجهة الجنوبية بجروف عالية يمر من أسفلها نهر يدعى "سوفقهار"، ثم يتحدث عن الخندق الذي سبقت الإشارة

---

* **انظر الملحق (5)**

1 - Massingnon (L) Le Maroc dans Les premières années du XVI sciècle . Alger 1906 P . 63.

2 - الحسن بن الوزان، وصف إفريقيا،الرياض ،المملكة العربية السعودية1399هـ، ص 427.

إليه في وصف صاحب الاستبصار فيقول:« والضفة الأخرى محفوفة أيضا بجروف حتى أن الفج العميق الذي يقع بين هذين الجرفين القائمين يقوم بوظيفة خندق بالنسبة للمدينة ولكنه أكثر فائدة للمدينة من مجرد خندق[1]».

فقيمة الخندق كما يؤكد الرحالة ابن الوزان أكثر من كونه مجرد خندق ذلك أنه معبر لمياه وادي الرمال الذي تستغله المدينة، أضف إلى ذلك أن هذا الخندق أو الأخدود يحوي عدة ينابيع مائية خاصة عند الانكسارات، وهي في معظمها ينابيع معدنية استغلها الرومان قديما لأغراض العلاج والاستجمام، بعد أن حولوها إلى حمّامات، لا يزال بعضها قائما إلى اليوم تحت جسر باب القنطرة وأهمها منبع سيدي راشد الذي يقع عند مدخل الأخدود جنوبي المدينة القديمة[2].

والمدينة على جانب كبير من التحصين والمنعة فهي «تستمتع من الشمال بأسوار غاية في المنعة (وهي فضلا عن ذلك)تقع في قمة الجبل وينتج عن ذلك تعذر الوصول إلى قسنطينة إلا بدروب ضيقة صغيرة بعضها من الشرق و بعضها من الغرب»[3]، وعن أبواب المدينة التي لفتت انتباه جميع الرحالة تقريبا وتباين وصفهم لها من حيث الشكل والعدد بتباين الأزمنةيقول: «وللمدينة أبواب جميلة كبيرة جيدة التصفيح بالحديد».[4] وذلك من باب المنعة والتحصين أيضا فالمدينة في هذه الفترة من عمرها في ظل الحكم الحفصي شهدت اتساعا ونموا كبيرين وكثر نشاط أهلها وذلك ولا ريب مدعاة لان تكون لها أبواب وهي خمسة حسب عدد من الروايات بعد أن كانت بابين فقط في عهد سابق:

1-باب الوادي :ويقع في الجنوب الغربي للمدينة ،وبه كانت تتم الاتصالات مع الخارج.

2-باب ميلة :في الناحية الغربية و قد سبقت الإشارة إليه في رحلة الإدريسي (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق):

3-باب الحامّة : ويقع أيضا في الناحية الغربية.

---

[1] - **المصدر السابق، الصفحة نفسها.**

[2] - **وقد نقله مار مول على شكل** سوف وغمار **/بو مرزوق وكلمة "سوف "تعني النهر في بعض اللهجات البربرية ولكن لم يتم التعرف على معنى بقية الكلمة بشكل مضبوط ،ويبدو أن المقصود بها "وادي الرمال "الذي يرفده وادي بو مرزوق قبل دخوله إلى المدينة.**

3 - الحسن بن الوزان، المصدر السابق، ص 427.

4 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

4-باب الجابية:ويقع في الجهة الجنوبية.

6-باب القنطرة :في الناحية الشرقية،

وقد قام الثائر أبو البقاء بن الأمير أبي زكريا في سنة 704 هـ-1304م بتدميره، وكان هذا الجسر مبنيا بالحجارة وشّيده الرومان كمعبر للناس وقناة للمياه تزود المدينة. ولم يجدد بناؤها إلا في عهد صالح باي ثم استبدل في عهد الاحتلال الفرنسي بالقنطرة الحالية.

فالمدينة إذن أصبحت ذات أبواب خمسة حين زارها الوزان، وقد كان بها على أيام النوميديين والموحدين بابان اثنان، الأمر الذي يؤكد ما شهدته من نمو على عهد الحفصيين أين أصبحت قسنطينة العاصمة الثانية للدولة الحفصية.

والأبواب هذه كان بجانب كل منها أبراج حجرية تشمل حجيرات مخصصة للحراسة وموظفي الجهاز المالي وأهل الجباية القائمين على مراقبة البضائع والسلع الصادر منها إلى المدينة أو الوارد.

لذلك فهي تغلق في أوقات محددة كالليل أو في حال حدوث اضطرابات اجتماعية أو سياسية .**وعن الكثافة السكانية** للمدينة ،ونظرا للنمو الذي عرفته في مختلف مجالات الحياة في هذا العهد يذكر الرحالة الوزان أن مدينة قسنطينة «تضم ثمانية آلاف أسرة ...»[1] وهوما مجموعه قرابة الأربعين ألف نسمة تحتويهم هذه المدينة المطمئنة «ذات الأبنية العريقة في القدم»[2].

ومن المعالم التاريخية التي شدَّت إليها انتباه الرحالة ،القلعة الواقعة في الجانب الشمالي من المدينة وهي « قوية كبيرة بنيت في زمن تأسيس المدينة و دعمت تحصيناتها على يد الوكيل الحالي وهو كذلك نصراني اعتنق الإسلام وأصله من مقاطعة (بروفانس» ويدعى السيد نبيل المزوار»[3] *.

وقد بني الموحدون فوق أنقاض المعبد الروماني الذي كان موجودا بها قصر الإمارة، وهي تتميز بأسوارها التي تفصلها عن المدينة الأم، و لها باب واحد ولها شوارع داخلها وساحة داخلية ومسجد خاص بالأمير و حاشيته وكبار رجال الدولة و وجهاء المدينة.

---

1 - الحسن بن الوزان وصف إفريقيا ،الرياض ،المملكة العربية السعودية1399هـ ، ص427.

2 - المصدر نفسه، الصفحةنفسها.

3 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

*** السيد نبيل :هو المزوار الذي قام بإغلاق باب القصة ورد أحفاد السلطان أبي عبد الله أمير مدينة قسنطينة عندما قاموا بالمطالبة بعرش جدهم المتوفى سنة 739هـ1439م وكان ذلك سنة 747هـ1447م.**

وسكان مدينة قسنطينة ميالون بطبعهم إلى الزهد في مظهرهم الخارجي وتأنقهم ، فهم يميلون إلى القصد في شؤون ثيابهم وزينتهم[1] ويذكّرنا الحسن الوزان ببذاءة لسان العبدري وسلاطته وأحكامه القاسية تجاه قسنطينة وأهلها حين يطلق لسانه بما حفّزه عليه ما كُتب في حق قسنطينة ـــ وقد سبقت الإشارة إلى ذلك ـــ فيقول :« وهم متعجرفون وذوو تفكير سقيم...»[2] ومثل هذا الحكم القاسي كثيرا ما نقف عليه لدى الرحالين الذين لا يلقون الحظوة لدى من أقاموا بين ظهرانيهم، غير أننا نعجب العجب كله حين نعلم أن الحسن الوزان أقام بمدينة قسنطينة إقامة الإعزاز والإكرام . أضف إلى ذلك أن هذا الوصف يتعارض مع ما وصف به المدينة من تحضر و أناقة بنيان و انتشار لمراكز الإشعاع الحضاري حيث يقول:« وهي متحضرة جدا، ومليئة بالدُّور الجميلة والبناءات المحترمة كالجامع الكبير والمدرستين و الزوايا الثلاث أو الأربع»[3] **ومن البناءات** "المحترمة " التي أشار إليها الحسن الوزان **الجامع الكبير** وهو الجامع المعروف إلى اليوم بهذا الاسم و الموجود ببطحاء السويقة بشارع العربي بن مهيدي (الطريق الجديدة) على الطريق المتوجه إلى القنطرة القديمة وهو أقدم المساجد بالمدينة وقد يكون بناؤه من منشآت الدولة الموحدية أو الحمادية . ولـــه في ميدان التربية والتعليم دور ممتاز[4].

وبخطوة غير مسبوقة يغوص ابن الوزان في أعماق مدينة قسنطينة «فيكشف أستار حياة سكانها في أجوائهم الحميمية المشوبة بالطقوس و العربدة و الغواية»[5] فيحدثنا عما ألفاه من **عادات و معتقدات** كثيرا ما كانت مسكوتا عنها وما نظن تناول ابن الوزان لها إلا من باب الولوع بالغرائبية التي تعد من أعز ما ينشده الرحالة في رحلته.

فمن المعتقدات التي سادت الأوساط الشعبية أو الدهماء من الناس، التصديق بعالم السحر والسحرة و الجن و الشياطين والتنجيم، فكثير من الحمقى يعتقدون وجود قصر تسكنه الشياطين الذين طردهم المسلمون في العصر الذي قدموا فيه ليسكنوا هذه المنطقة وما هذا القصر المزعوم في حقيقة

---

[1] - الحسن بن الوزان، المصدر السابق الصفحة نفسها .

[2] - الحسن بن الوزان، المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

[3] - المصدر السابق، ص456.

[4] - محمد المهدي بن علي شعيب أم الحواضر ص 233.

[5] - حمادي عبد الله ،أصوات من الأدب الجزائري الحديث ، ص 336.

***قوس النصر كان القسنطينيون إلى عهد قريب يسمونه** صومعة إبليس **ولقد أزيل وأقيم مكانه نصب تذكاري**

الأمر سوى قوس نصر. "ويشاهد في ظاهر قسنطينة بضعة أبنية شريفة قديمة على مسافة ميل ونصف من المدينة، ويوجد قوس نصر* شبيه بأقواس النصر في روما ولكن العامي يعتقد وذلك لحمقه، أنه يوجد قصر تسكنه الشياطين...[1] ومثل هذا الاعتقاد ما أشار إليه المؤرخ القسنطيني ابن المبارك بن العطار (1204هـ‍ـ1287هـ‍- 1787م-1870م) في كتابه "تاريخ قسنطينة " من الاعتقاد بوجود رصد يحمي المدينة من غزو الغزاة ويحافظ على أمنها وسلامتها فهو يذكر :"ويقال إن حكماء قسنطينة الأولين العارفين بموضع الطلاسم وعلم

النجوم جعلوا بباب الوادي رصدا، لا يدخلها عدو، وقد وجدْتُ مقيدا على ظهر كتاب :"غُزيتْ ثمانين مرة فلم يدخلها ولا نال منها شيئاً لرصد بها من عمل الحكماء وهذا الرصد _ والله أعلم _ سور كان داخل باب الوادي هدمه ابن عيسى بأمر الحاج أحمد باي[2].

ومن هذا القبيل الاعتقاد بوجود الأرواح الشريرة تسكن سلاحف كبيرة احتواها نبع سيدي مسيد المعدني الذي تقصده النسوة والى يومنا الحالي لإقامة طقوس خاصة وهو ما أشار إليه الرحالة ابن الوزان. وعلى مسافة ثلاث رميات حجر من المدينة تقريبا يوجد حمَّام مؤلف من نبع ساخن* يتدفق بين جلاميد كبيرة، ويوجد عدد كبير من السلاحف التي يعتبرها النسوة أرواحا شريرة، وعندما تصاب على سبيل الصدفة إحدى تلك النساء بالحمّى أو أي مرض آخر، فإنها تعتبر ذلك خطيئة السلاحف وتعالج مرضها بأن تذبح حالا دجاجة بيضاء وتضعها في وعاء مع كل ريشها ثم تحملها إلى العين وتتركها بعد أن تربط حول الوعاء بضع شمعات مصنوعة من شمع النحل.

ويقوم بعض الفطنين بمتابعة المرأة عندما يرونها تتجه نحو العين مع الوعاء والدجاجة كي يأخذوها بمجرد أن تقفل راجعة ثم يطبخون الدجاجة ويأكلونها.

ومن معتقدات العامة أيضا مسخ الله العباد الفاسقين نتيجة سوء أفعالهم و تحويلهم من صورهم البشرية إلى جماد أو حيوان حتى يكونوا عبرة لأمثالهم من الذين يخالفون عن أمره، فقد ذكر الوزان أنه "على مسافة أبعد من نبع الماء الحار يوجد نبع ماء بارد يقوم بجانبه بناء من الرخام، وقد رأيت

محاط بمدافع قديمة بساحة العقيد عميروش بين ثكنة الدرك الوطني والمركز الثقافي الفرنسي (أنظر الملحق.(6)

[1] - الحسن بن الوزان، وصف إفريقيا الرياض ،السعودية 1399هـ‍، ص ،430.

[2] - الحاج أحمد بن المبارك العطار ،تاريخ قسنطينة ، ص37.

*** هو ينبوع بهضبة سيدي مسيد يعرف بمنبع عين ألوب وطاقته 50 لترا /ثانية بدرجة حرارة 15مئوية وهو المصدر الرئيسي لتموين المسبح الاولمبي للمدينة.**

كثيرا من أشباهه في إيطاليا وفي كل أوروبا (تأكيدا على المعاينة) ويعتقد العامة أنه كانت هناك مدرسة لدراسة الآداب كان أستاذها وتلاميذها فاسقين فمسخهم الله إلى رخام عقابا على آثامهم و تحولت كذلك أبنيتهم إلى قطعة رخام"[1]. ومن الشعر الجزائري ما يرفد وصف الوزان إلى حدّ بعيد ويعطي مشاهدات هذا الرحالة كثيرا من المصداقية في دقة الوصف وصحة الملاحظة في مواطن كثيرة فقد تناول موضوع المعتقدات و البدع التي كانت سائدة في المجتمع القسنطيني الشيخ محمد المولود بن الموهوب المولود سنة هـ الموافق ل1866م ومفتي قسنطينة [1283هـ 1358هـ /1863 م-1939م] في قصيدة نونية سماها المنصفة متميزة بموضوعها وقافيتها ووزنها على كثير من قصائد تلك الفترة وهي قصيدة من اثنين وسبعين (72) بيتا تصطخب فيها الرموز اصطخاب حياة الناس بين الاعتقاد والانتقاد والتحريم و التسليم،ومما جاء في هذه القصيدة التي أفاض العلامة عبد القادر المجاوي في شرحها وتحليل رموزها في كتابه «اللمع على نظم البدع» الذي نشرته مطبعة فونتانا،الجزائر 1912 قوله:

صُعودُ الأسـفلين به دُ هـينا لأنّا للمعارف ما هُـدينا

رَمتْ أمواجُ بحر اللّـهو منّا أُناسًا للخمور مـلازمينا

أضاعوا عِرضهم والمـال حبًّا لبنت الحان فازدادوا جنونا

ينـادينا «الكتابُ» لكل خيرٍ فهل كـنّا لذلك سامعينا؟

فإنـاّ الجاهـلون إذا فعـلنا وإنّـا الفاعـلون إذا نُهِينا

وإناًّ التابعـون لكل وَهْـمٍ فسل عنّا عبـادَتنا الجنونا

وسلْ"زارا"ونِـسْرَ مَسيدِ طَبْلٍ وزينتنا تبـيع التـابعـينا

وسلْ عنّا السَّلاَحِفَ في غُرَابٍ وأعطارا تُـراق وعـائمينا

وسلْ "غابا"لحكم الجن أضحى يقينًا كل ضرٍّ قـد يقينا

وسلْ ذاك الحَمَامَ لدى حِمَـامٍ نُذبِّحُهُ بـلا إثم عامـد ينا

وسلْ"سِدْرًا"به خِرَقٌ أُنِيـطَتْ، وغيرا، حيث نفزع ناذرينا

---

[1] - الحاج أحمد بن المبارك العطار تاريخ قسنطينة ص **431**.

فبعد أن يقدم لنا الشيخ ابن الموهوب مبررا لما آلت إليه حال المجتمع القسنطيني من تدهور خلقي وانقلاب في موازين القيم وهو أن هذا المجتمع لم يقدِّر رجال التوحيد حق قدرهم واستدرجته الحياة المشحونة بالعربدة والبخور والتي يحمل لواءها أسافل المجتمع ،يَخْلُصُ إلى تعداد كثير من الرموز التي تحمل في ذاتها بذورا لعادات ومعتقدات خاطئة عبّر عنها "بالوهم وعبادة الجنون "كانت ولازالت تنخر جسد ها الجاثم على هامة الصخر العتيق في صمت لا يترجمه سوى صمت المدينة الهاربة فوق أكتاف السحاب فيذكر لنا ‹‹زارا››وهي من ‹‹الزيارة›› أوهي الهدية تقدِّمها بعض القسنطينيات في أماكن معينة في حفلة عظيمة وتقصدن بها دفع مس الجن الذي يتوهمنه.

ويذكر ‹‹سيدي مسيد ››الذي أشار إليه الحسن الوزان من قبل وهو المكان الذي يقام فيه حفل ضخم يسير إليه المريدون والرعاع من الناس في موكب احتفالي على دقات طبول الزنوج وآلاتهم النحاسية التي تحدث أصوات صاخبة.

وهنا أيضا يتجلى **دور المرأة** في هذه المناسبة إذ العرس في حقيقة الأمر عرسها لذا فهي قبل الحضور إلى هذا الموعد "المشهود "تقوم بشراء أفئدة الضأن والماعز لتُرمَى متاعا للنسور وإرضاء لها على اعتبار أنها من الأولياء والصالحين.

كما يشير إلى السلاحف التي أشار إليها الرحالة الوزّان أيضا من قبل والموجودة بمكان على مسافة ثلاث رميات حجر من المدينة تقريبا هو منطقة الغراب المعروفة بهذا الاسم إلى اليوم، وإن كان هناك تباين واضح بين وصف الرحالة الحسن الوزان والشاعر ابن الموهوب في الطقوس التي تقوم بها النسوة مع هذه السلاحف ففي شهادة الوزان (ق 15م)تقوم المرأة بذبح دجاجة بيضاء وتوضع بريشها في إناء ثم تربط حول الإناء شمعات وتحمل الإناء إلى عين (الغراب)*.

وفي زمن متأخر قد يكون زمن الشيخ ابن الموهوب وحتى وقت قريب تأتي النساء إلى العين المعدنية الحارة (البرمة) ومعهن بعض التمر والحمص والمكسّرات و يرمين ذلك كله إلى السلاحف ‹‹وعندما تأكل السلاحف ما ألقي إليها تولول النساء اعتقادا منهن أن الجن قد رضيت بما فعلن ويرقن فيها العطور...››[1].

ويشير إلى عدد من الرموز التي تظل ضربا من الطلاسم أو الطابوهات ولعلها تلك التي تجمعها منطقة سيدي مسيد انطلاقا من حوض الغابة وما حوته من مغارات وكهوف وجَدت فيها الخرافة

---

* **انظر الملحق7،8 ،9.**

[1] - عبد الله حمادي، أصوات من الأدب الجزائري الحديث، ص 335.

مرتعا ومستقرا ومنها "مغارة الهدرة "والمسماة أيضا "غار السحار "فوق باب النفق الثاني للسكة الحديدية المتجهة من قسنطينة نحو سكيكدة وعنابة، وكذا "غار الحمام" على ضفة الوادي. ولعله المشار إليه في قصيدة ابن الموهوب:

و سل ذاك الحمام لدى حمّام   نذبحّه بلا إثم عامدينا

وعن **الحياة التجارية للمدينة** يذكر الحسن الوزان أن أهل قسنطينة كانوا يجتمعون مرتين في العام في قافلة تجارية تذهب إلى نوميديا** وينقلون إليها أقمشة الصوف المصنوعة في بلادهم ونوعا من الدنس يسمى الحشيش، وبعض التجار يرسلون الزيت و الحرير إلى نوميديا وكذلك يفعلون بالأقمشة، وكل هذه البضائع تستبدل بالتمر والدقيق.

وعلى ذكر التمر يذكر الرحالة الوزان أنه لا توجد مدينة في جميع بلاد البربر ترخص أثمان تمورها بقدار رخصها في قسنطينة إذ يمكن شراء ثمانية أرطال إلى عشرة*** مقابل ثلاثة بيوكتشيات* أما الأسواق فهي عديدة حسنة التنسيق بحيث أن جميع الحرف فيها مفصول بعضها عن بعض[1].

وعلى الرغم من إعجاب الوزان بشجاعة القسنطيني وبسالته في القتال، فإن القسنطينيين شجعان مقاتلون خصوصا منهم الصُّناع، إلا أنه لا يتردد في أن يصف فـئة منهم وهي فـئة التجار المرتحلون بسلعهم إلى تونس، بالفسق والفجور و الإفلاس ‹‹لكن أضرار رحلتهم إلى تونس تزيد عن منافعها، إذ تسيطر عليهم في أثنائها متعة الفسق والفجور، فينفقون معظم ما ربحوه على النساء الساقطات››[2].

وهكذا يقدم لنا الرحالة الحسن الوزان وعلى امتداد ست صفحات من رحلته ‹‹ وصف إفريقيا ››لوحة بانورامية لمدينة قسنطينة في القرن الخامس عشر الميلادي (15م)، حفلت بالوصف الدقيق وصحة الملاحظة وتحرّي الصدق والنزاهة والحياد في أكثر المشاهدات، فهو لم يتأثر بالفكرة المعادية لمسلمي شمال إفريقيا التي كانت تسود المجتمع الايطالي الذي عاش فيه ردحا من الزمن، وإن بدر

---

* **نوميديا : تعني كل البلاد التونسية مضافا إليها الشرق الجزائري إلى حدود بجاية**

** ما يعدل 2،7 أو 3،4 كلغ

***** البايوكتشي: عملة ايطالية قيمتها نحو 7 سنتيم ذهب.**

1 - **الحسن بن الوزان، وصف إفريقيا ، ص ص 430-431.**

2 - **المصدر السابق، ص ص 430-431.**

منه نفور من الأعراب البدو لتأثيرهم السلبي على الاقتصاد ولعل نشأته المتحضرة كان لها دخل في نظرته المتحفظة من القبائل الرحل التي سبقه إليها ابن خلدون في تاريخه.

-مدينة قسنطينة في رحلة الورثيلاني «نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار».

هو الشيخ الحسين بن محمد السعيد الورثيلاني نسبة إلى مسقط رأسه قرية بني ورثيلان حيث استقرت عائلته التي كانت تنسب إلى الأشراف وتتوارث العلم وتشتهر بالتقوى والصلاح، بعد أن غادرت موطنها الأصلي بجاية في عهد جده المعروف بابن البكّاي، مفضلة الإقامة بين عشيرتي بني ورثيلان بمنطقة القرقور بالقبائل الصغرى.

وكان مولد الشيخ الحسين الورثيلاني عام 1125هـ /1713 م تلقى تعليمه الأول بمسقط رأسه ببني ورثيلان، وعندما شب اختلف إلى بعض الزوايا ومعاهد العلم بناحية القرقور، وكذا جهات أخرى من جرجرة ازداد اطلاعه على ثقافة عصره بعد أن عقد الصلات مع بعض علماء الشرق أثناء تردده على البقاع المقدسة لثلاث مرات، بغرض أداء فريضة الحج فقد كانت حجته الأولى عام 1159 هـ وهو ابن الثامنة عشر من عمره وكان ذلك بصحبة والده.

والثانية عندما بلغ الواحد والأربعين من العمر وذلك سنة 1166 هـــ.أما الثالثة فكانت سنة 1181 هـــ واستمرت لثلاث سنوات، وتعرف أثناءها على كل من تونس وطرابلس الغرب ومصر قبل أن ينتهي به المطاف إلى الحجاز. وبعد عودته من الحج عكف على العبادة وانقطع إلى التدريس والوعظ والإرشاد بمسجد عائلته ببني ورثيلان، إلى أن وافته المنية سنة 1193 هـــ/1779م.

اشتهر برحلته التي سجل فيها رحلاته داخل الجزائر وخارجها وضمّنها مشاهداته وملاحظاته وتعليقاته وبالخصوص أخبار رحلته إلى الحج، انتهى من إملائها عام 1182 هـــ.

وقد وضع لها عنوانا طريفا يناسب مضمونها وهو « **تحفة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار** » ولم يكتب الرحّالة رحلته بل أملاها إملاءً على تلاميذه كما جرت عادة المشايخ عند ئد لذلك تعددت نسخها وكثر فيها الخطأ والاستطرادات كما افتقرت إلى المنهج القويم وامتلأت بالتكرار.

وقد نشرت هذه الرحلة من طرف الباحث الجزائري محمد بن أبي شنب اعتمادا على نسخ عدة مخطوطة حاول جاهدا مقارنتها وتسجيل ما ورد فيها من اختلاف أو حذف أو تحريف أو إضافة.

وطبعت بمطبعة فونتانا بالجزائر العاصمة عام 1326 هـــ /1908 م. ولقد كانت هذه[1] الرحلة موضوع تعليق ضاف ودراسة تحليلية نشرها الأستاذ حاج صادق في المجلة الإفريقية.

تكتسي رحلة الشيخ الحسين الورثيلاني أهمية كبرى لما اشتملت عليه من معلومات في غاية الأهمية تتصل بالحياة اليومية والحالة الاقتصادية المعاشة وأسلوب الحكم ومستوى الثقافة وطبيعة العادات واهتمامات العامة في البلدان التي تعرف عليها في سفره أو أثناء إقامته بالحجاز، وهي حسب خط رحلته ذهابا :مجانة، زمورة، قصر الطير، أولاد موسى، وطن ريغة، أولاد دراج، بريكة، بسكرة، سيدي عقبة، الخنقة، أولاد سيدي ناجي، نفطة، الحامة، توزر، زواوة، طرابلس، تاجوراء، ليدة، زليتن، مصراته، بلاد سرت، إقليم برقة، الإسكندرية، القاهرة، المدينة، مكة، طرابلس.

إيابـــا: القاهرة، الإسكندرية، تونس، الكاف، قسنطينة، زمورة، ثم موطنه.

ولا ينكر أحد كون رحلة الشيخ الورثلاني من المصادر الأساسية المساعدة على التعرف على أوضاع البلاد الجزائرية وأقطار تونس وطرابلس ومصر والحجاز في القرن (12 هـــ -18م) فهي تسجيل حي للوضع الاجتماعي والإقتصادي، ووصف دقيق لحالة المسالك والعمران ومحطات القوافل ونقاط الماء وصورة صادقة للواقع الثقافي آنذاك.

---

[1] **hadj sadouk .M .Travers la berbérie oriental au xviié siècle avec le voyageur el wartilani in Revue AF T 95/1951pp364-382.**

مصادر الورثيلاني: اعتمد الورثيلاني في رحلته على عدد كبير من الرحالين لا سيما أحمد بن ناصر الدرعي، وأبو سالم العياشي. فعند عودته من الحجاز ودخوله مدينة قسنطينة واطلاعه على ما يعانيه سكانها من ظلم الولاة وتأكيده رغم ذلك على ضرورة طاعة هؤلاء الولاة في غير معصية، نجده قد اقتبس من كتاب «الأدلة السنية النورانية في مفاخر الدولة الحفصية » لابن الشمّاع المؤرخ المعروف في القرن التاسع نحو ثلاث صفحات.

وكذا كان الشأن في حديثه عن الجزائر إذ جاء حديثه عنها في 166 صفحة اقتبس منها ثلاثين (30) صفحة من رحلة شيخه الدرعي في وصف بسكرة، وكان نقل من مصدرين هما رحلة الشيخ أبي سالم عبد الله العياشي «ماء الموائد» المعروفة بالرحلة العياشية ومن كتاب « الاستبصار في أخبار الأمصار»، كما اعتمد على السمهوري والمقريزي وابن فرحون والبكري والعبدري والسيوطي وابن رُشيد[1]...

وصف مدينة قسنطينة في رحلة الورثيلاني:حل الرحالة الورثيلاني بقسنطينة سنة 1197 هـــ-1768م (القرن 12 هــ-18م) وكانت إذاك تحت الحكم العثماني حيث دخلتها الحامية العثمانية حوالي (932 هــ/1525م) بعد مقاومة شرسة أبداها سكان المدينة بزعامة الشيخ عبد المؤمن الذي قاوم دخول الأتراك مع أهل حارته باب الجابية مدة ثلاث سنوات و لم يخضع إلا بعد أن تحايلوا عليه برفقة الشيخ ابن الفقون المؤيدلهم والذي تولى المشيخة بعد مقتله[2]،

وصل الرحالة إلى مدينة قسنطينة بعد أيام من رحيله عن مدينة الكاف التونسيةوحين استقر بالمدينة قدّم وصفا شاملا تناول فيه مشاهداته بالمدينة وما دار بينه وبين رجالاتها وأبدى رأيه في أمور شتى من حياة المدينة و أهليها.وجل مشاهدات الشيخ الورثيلاني بالمدينة لا يعدو أن يكون صورة مكرورة لما سبقت الإشارة إليه في رحلات المتقدمين عليه ...!

فعن **تاريخ المدينة العتيقة وموقعها** الحصين يذكر الورثيلاني أن قسنطينة- كماسمع- تعود إلى عهد ابراهيم الخليل عليه السلام ،لم يطفأ لها سراج ولا استقر فيها أمير ، وهي من افريقيا وأحسن عمالاتها[3].

---

[1] - **أبو القاسم سعد الله ، أبحاث وآراء في تا ريخ الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1978 ص 361.**

[2] - **شوقي عطا الله الجمل ، أضواء على تاريخ قسنطينة ، مجلة الدراسات الإفريقية ، عدد1974،3، ص 73.**

[3] - **الحسين الورثيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، دار الكتاب العربي ط2 ،بيروت1974، ، ص686.**

كما أنها مدينة قوية ليست كبيرة ولا صغيرة **عليها سور ولها أبواب ثلاثة.** باب الوادي وباب الجابية، وباب القنطرة، وفيها بويب صغير يخرج منه الآدمي[1] . وأبواب قسنطينة كحال المدينة لم تعرف الاستقرار عبر الحقب فهي مثلا على أيام الإدريسي بابان: باب ميلة في الغرب، باب القنطرة في الشرق وعلى أيام الحسن بن الوزان كانت خمسة: باب الوادي، باب ميلة، باب الحامّة، باب الجابية وباب القنطرة. والمؤكد لدى الباحثين في تاريخ المدينة هو أن كثرة الأبواب أو قلتها إنما مردها إلى ما تشهده المدينة من الإستقرار أو اللاّستقرار والركود والازدهار.

وكغيره من الرحالين لا يغفل الورثيلاني الحديث عن وادي قسنطينة الهوى غير أنه لا ينظر إليه نظرة جمالية كنظرتهم فهو ليس كالعقد ولا كالسوار ولا كالنجم أو الثعبان، وإنما هو مجرد مصدر مائي تستغله المدينة « وتحتها واد كبير وماؤه عذب ومنه يشربون إذ ينقلون ماءه إلى الديار وفيه يسقون ويستسقون ويغسلون ويغتسلون وعليه بنيت من قديم الزمان»[2].

ثم إن المدينة مبنية «على كهف وجرف عظيم يكاد من سقط منه أن يهلك أو يموت قطعا». وقد ورد ذكر هذا الخندق من قبل في رحلة الإستبصار ووصف إفريقيا للحسن الوزان الذي يقول: « والضفة الأخرى محفوفة أيضا بجروف حتى أن الفج العميق الذي يقع بين هذين الجرفين القائمين يقوم بوظيفة خندق بالنسبة للمدينة». في حين يذكر البكري أن «مسالكها وعرة». ولقد زار الورثيلاني مدينة قسنطينة في العهد العثماني كما أسلفنا، لذلك نجده يذكر أنه يوجد بها قصبة عظيمة وعسكر من الترك بقدر رجالها و باي سطوته عظيمة وحاله كبير وعساكره كثيرة»[3]. وهذه القصبة هي قصبة المنصورة التي ذكرها الحاج أحمد بن المبارك في (تاريخ قسنطينة) بقوله: « وهذه القلعة التي بناها بسطحة المنصورة هي التي هدمها مراد باي تونس، حين غزا قسنطينة»[4].

ويقدم الورثيلاني وصفا دقيقا لمظاهر متعددة من **النشاط الاقتصادي لمدينة قسنطينة،** فيذكر أن لها أسواقا كثيرة ودكاكين هامة فهي واسعة الأرزاق والخيرات، من لحم وسمن وقمح وتين وتربية المواشي، هذا بالإضافة إلى القوافل التجارية التي ترد إليها من كل ناحية محملة بمختلف السلع،

---

[1] -الحسين الورثيلاني،الرحلة ص685.

[2] - المصدر نفسه، ص686.

[3] - المصدرنفسه، ص نفسها.

[4] - الحاج أحمد بن المبارك ،تاريخ، قسنطينة، ص 55.

ويذكر أن الأسعار فيها منخفضة وإن أصيبيت بموجة غلاء لا تدوم بها طويلا ذلك لأن رزقها لا يقل فضلا عن أن ينفذ. ولعل ما يؤكد ازدهار المدينة ورخاء معيشتها ما لاحظه من الأموال الضخمة التي كانت ترسل إلى الخزينة العامة بالعاصمة كضرائب عن إقليم قسنطينة وهو ما يسمى بـــ(الدنوش)[*].

وعلى ذكر **الأسواق** كان بمدينة قسنطينة ما يزيد عن 28 سوقا وسويقة و21 ساباطا، و7 تربيعات يجتمع فيها صناع النسيج و4 رحبات لعرض السلع و3 أفران لطهي الخبز و27 مطحنة للحبوب[1].

وفي وصف يذكّرنا بوصف ابن الوزان حين حل بمدينة قسنطينة ذكر أن فئـــة كبيرة من أفراد **المجتمع القسنطيني** تسيطر عليهم متعة الفسق والفجور، فينفقون معظم ما ربحوا على النساء الساقطات2، يذكر الورثلاني « وعلى تقدير الأموال فقد صرفها أهلها في شهوات أنفسهم كالملابس والأكل والمشارب»[3].

وبلسان عَبْدَرِيِّ اللَّذْعِ يشير الورثيلاني إلى أن المدينة رغم كونها بلدة طيبة يستجليها الناظر المقيم والمسافر، « فليست كثيرة الصفاء ولا بعيدة الجفاء ولا قوية الوفاء، عامتها بين اعتقاد، وانتقاد، وخاصتها بين رغبة وغبطة وحسد وعناد. لا يتم الفضل فيها و لا ينقص الحال ولا الكمال عند أهل الفضل منها، فالسب فيها كثير والقبح واللعنة جاد في أسواقها. لا يسكن اضطرابها، أزال الله منهم ذلك، ومحا فيهم ما هنالك، ولذلك كثر الظلم فيها فهو مكفّر لذنوبهم»[4].

ويرجع الرحالة الورثيلاني عزوف أهل قسنطينة عن الطريق السديد والخلق الحميد إلى كثرة الرزق الذي يسبب البتَر « حَاصِلُه أن كثرة المذاق توجد للقلب النفاق وقلة الأرزاق تيسر الطريق إلى الله بالإنفاق... وذلك معلوم عند أهل الحقائق بقسنطينة، لَمّـــا كثر رزقها واتسع إنفاقها عَسُر الوصول فيها إلى الله لقلة المساعد وكثرة المتكبر المعاند وإن وجد فيها الصلاح فمن البلَه...»[5].

---

[*] - الدنوش:ما يحمل سنويا من الأموال إلى الداي عربون طاعة وولاء

[1] - الحاج أحمد بن المبارك، الصدر السابق، ص ص54ــ58

[2] -ابن الوزان، الحسن ، الرحلة ص. 431.

[3] - الورثيلاني ، الرحلة ، ص686 .

[4] - الورثيلاني، الرحلة، ص689.

[5] - المصدر نفسه، ص688

شهدت مدينة قسنطينة أيام الحكم العثماني الذي امتد أزيد من ثلاثة قرون، حياة فكرية نشيطة في مجالات الإبداع المختلفة، وعرف كل مجال من المجالات هذه رجالاتٍ كانت لهم الباع الطولى كل في ميدانه، غير أن المجال الرّحب الذي صال فيه علماء قسنطينة وجالوا هو المجال الديني من علم بالأصول، والفقه وعلوم المعقولات والمنقولات والتفسير، وهذا التطور الملحوظ في الميدان ساهم فيه الأتراك والأهالي على وجه سواء، بحيث بلغ عدد المساجد في هذه الفترة خمسة مساجد كبرى، وسبعين مسجدا صغيرا منتشرة عبر أحياء المدينة وبعضها في غاية الإتقان، كمسجد الباشا في طرابلس،« وأظن أن صانعهما واحد.»[1].

ولقد ذكر منها الحفناوي في كتابه(تعريف الخلف برجال السلف) اثني عشر مسجدا جامعا وأهمها:

- جامع سوق الغزل: وسمّي أيضا جامع حسن باي بناه الباي حسن المعروف باسم (قليان) والمكنّى بالشايب أبي كمية، الذي حكم قسنطينة بين سنتي 1713م و1736م.

- الجامع الكبير: الموجود ببطحاء السويقة، (شارع العربي بن مهيدي حاليا) بني على أيام الدولة الحمادية بقسنطينة ق6هـ/ق12م.

- جامع القصبة :

- جامع رحبة الصوف.

- جامع ومدرسة سيدي الأخضر.

- الجامع الأخضر: بناه الباي حسن الملقب ببوحنك الذي حكم قسنطينة من سنة 1737م-1754م وذلك عام 1743م.

- مسجد سيدي جليس.

- مسجد سيدي مسلم الحرايري.

- مسجد سيدي النقّاش برحبة الجمال.

- مسجد سيدي محمد بو عبد الله الشريف بباب الجابية.

- مسجد أبي عبد الله الصفار بالقرب من باب القنطرة.

---

[1] - **المصدر نفسه ،ص685 .**

والجدير بالذكر أن مدينة قسنطينة عرفت على أيام صالح باي **توسعا عمرانيا** كبيرا داخل المدينة وخارجها، فقد شيّد مسجد ومدرسة سيدي علي بن مخلوف الكتّاني في سوق العصر حاليا، وذلك سنة 1775م. وأقام بالقرب منهما بيوته الخاصة وبجانبها شيّدت دور ومنازل حاشية الباي، وأنشئت الحدائق والبساتين والإسطبلات والحمّامات العامة والدكاكين.

وإلى جانب هذه **المساجد** ساد المجتمع القسنطيني جو من **التصوّف** غير أنه كان تصوّفا مَشُوبا بالدروشة والطُّرُقية و لم يكن ذلك خافيا على أحد نظرا لتفشيه وانتشاره ولكثرة مريديه وأتباعه[1]. لذلك لا يكاد يخلو مسجد أو جامع من ضريح شيخ وولي صالح «إلا أن قسنطينة كل مسجد فيها من مساجد الصلاة إلا وفيه شيخ وولي صالح دفن في المسجد ونسب إليه .. فيقال مسجد فلان كسيدي أحمد بن عين الناس وسيدي أبي عبد الله الشريف، وسيدي عبد المؤمن وسيدي الرماح وسيدي مفرج وسيدي عمر الوزّان وسيدي عبد الكريم العقون وسيدي عبد اللطيف وغيرهم، ممن لا يحصى عددا أفاض الله علينا من بركات جميعهم ومنّ علينا وعلى من انتمى إلينا من الذُرّية والقرابة والجيران بالأنوار والشفاعة والعطف منهم...»[2]، كما أن المدينة عجّت بكثير من الدراويش «كسيدي أبي القاسم الزواوي ومحمد بن غرسة وزوجته فاطمة بنت خيشان، ورجال الغيب، وكانت جماعة من أهل وطننا على هذا الوصف...»[3].

ولم يَخْفَ على الشيخ الورثيلاني رغم كونه واحدا من أكثر الناس التماسا للبركة من هؤلاء الأولياء والصالحين والدراويش الذين سأل الله إن يفيض عليهم من بركات جميعهم وأن يمّن عليهم...بالأنوار والشفاعة والعطف منهم... ما يتم في المدينة آنذاك عن طريق التصوّف واستماع البدع، لذلك نبّه إلى خطر التجمّعات التي تقع بين الرجال والنساء في أماكن مختلفة ومقدّسة، وهي في حقيقتها سبيل للتوصل للزنا والفواحش والمناكر (وتدوم هذه التجمعات يومين فأكثر)، ولاحظ أن ذلك يكثر في زاوية سيدي سعيد السفري والذي وصفه بسلطان العارفين، وقد زاره ومن معه من الصالحين في كدية عاتي* وسأل الله عندهم حسن الخاتمة[4].

---

[1] - **الورثيلاني، المصدر السابق، ص692.**

[2] - **المصدر السابق، ص694.**

[3] - المصدر نفسه، ص694.

* انظر الملحق (9)

4 -الورثيلاني ،الرحلة ص ،694.

وكغيره من الرحالة يخوض الورثيلاني **عالم الخرافة والغرائبية** فيحدثنا عن أجواء قسنطينة المشحونة بالخوارق والمغمورة بدخان بخور الخرافة والخيالات. من قبيل قصة سيدي محمد الغراب الرجل المتصوف الورع المناوئ للأتراك والذي قتله صالح باي، فاختلطت قصة إعدامه بالقصة الشعبية والأسطورة الخيالية والتي ملخصها أن هذا الرجل عندما قتل تحولت جثته إلى غراب أسود ضخم الجثة أقضّ مضجع الباي صالح، وحتى يكفّر عن سوء تصرّفه بنى له ضريحا بقّبة بيضاء* في ناحية سيدي محمد لغراب، بالقرية المعروفة حاليا بقرية صالح باي، وأصبح مزارا للعائلات القسنطينية حتى يومنا هذا، وتسمّى هذه الزيارة (النشرة)، حيث يقوم أهل المريض بشراء ديك فيه مواصفات يشترطها كاتب التمائم (الحرّاز) ثم يذبح هذا الديك بالقرب من القبة ويُطهى ثم يطعم الحاضرون المجتمعون المرددون لبعض الأذكار والقائمون بحركات تشبه إلى حد كبير حركات عيساوة (التهوال بتعبير العامة)، ثم يقوم المريض بالاستحمام في بركة ماء ساخن موجودة بالمكان تعرف بالبرمة.

وقصة الولي الصالح سيدي علي بن مخلوف الكتاني الذي لجأ إليه سكان المدينة عندما حاصرها أبو عنان المريني ـــ وقد سبقت الإشارة إليه ـــ وقطع عنها ماء النهر وجعله يجري إلى ناحية أخرى وتضرّروا من العطش، فدعا الله تعالى فأرسل مطرا عظيما فشق سد النهر على عادة مجراه[1]...

ويتحدّث عن قصة تزوج امرأة مقطوعة الأحباب من الود الصّدوق والخِلّ الفاروق سيدي أبي القاسم الزواوي، الذي كان منبوذا مطروحا يجتمع عليه الذباب من كثرة الأوساخ، وكيف تبدّلت حالته وصلح أمره معها.

ويتحدث عن ظاهر الصلاح معلوم النجاح محمد بن عوشه وزوجته فاطمة بنت حنيشان، وقد شهد أمورا عظيمة وخوارق بينة أما الزوج فهو ممن يطّلع على الغيب.

والواقع أن هذه الصور والمشاهدات التي قدّمها الرحالة الورثيلاني تصور جو مدينة قسنطينة آنذاك والذي كان مشحونا بالمتناقضات، من صراعات مذهبية بين المالكية والأحناف إلى صراعات دينية فلسفية بين متصوّفة وأشعرية ومعتزلة، إلى طُرُقية موغلة في الإلحاد والزندقة والفجور إلى أفلاك من أقطاب الطرقية المنظَّمة ذات التقاليد كالرحمانية والشاذلية[2]... ولعل هذا الجو المشحون بالجهل

---

* انظر الملحق (10).

[1] - **الحاج أحمد بن المبارك تاريخ قسنطينة، ص43.**

[2] - **عبد الله حمادي ، أصوات من الأدب الجزائري الحديث، ص ص298 ـــ 299.**

والضلال هو ما صوره الشيخ عبد الكريم الفكون (1075 هـــ — 1662 هـــ)في كتابه (منشور الهداية في كشف حال من ادعى الولاية)متحسرا على مجتمعه القسنطيني الذي انتشر فيه الفساد والزندقة والنصب والاحتيال وتلاشت فيه القيم والمبادئ حين ذكر «رأيت الزمان بأهله يعثر وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر وسحائب الجهل قد أضلت وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيسا والعالم في مترلة يُدعى من أجلها خسيسا وصاحب أهل الطريقة قد أصبح وأعلام الزندقة على رأسه لائحة. وروائح السلب والطرق من حولي عليه فائحة»[1].

لا يخفى أن بايات قسنطينة عملوا على اعلاء مترلة الأعلام واخمادها حينا آخر، فالنازل عند أمرهم، المتذهب بمذهبهم ينال عندهم الحضوة، كيف لا ومذهبهم الحنفية الذي وجد فيه الكثير من العلماء مرتعا استقطب عددا كبيرا من أهل الدروشة والصوفية الممزوجة بالطرقية المتزندقة ولعل هذا ما حدا بالشيخ الورثيلاني إلى أن يجرد من لسانه وقلمه سياطا لسعت الجسد القسنطيني حتى أحالته أسمالا كما ذكر الرحالة العبدري ...[2] ولو أن الشيخ الورثيلاني كما ذكر الدكتور عبد الله حمادي :«لزم الموضوعية مع نفسه وفي حق غيره لأدرك أن مثل هذا المزيج المتشابك هو حصيلة افرازات حضارية ،ولا مجال فيه للغرابة أو الدهشة أوالسخط ،ففي مدينة عريقة البعد الحضاري كقسنطينة يجد فيها المرء إلى جانب الرجل الصالح بروز المرابي والمشعوذ أو الزنديق الملحد ،وإلى جانب عامل الخير ،لا بد من وجود راكب طريق الضلالة والإفك ،وهذا من شيم المدن المتحضرة»[3].

ويحدثنا الورثيلاني عن **وضعية التعليم** بمدينة قسنطينة فيشير إلى اهمال الحكومة التركية لذلك فيقول :« وأما المدارس فيظهر أنها كانت من اهتمام الخاصة نظرا لحرص باياتها على العناية بالقلاع والحصون ».ومع ذلك فهي «لا تخلو من العلم غير أن تدريسه فيها إنما يكون في بعض الأوقات كالشتاء وأول الربيع ،وأما سائر الأوقات فلا ،فليس فيها العلم الغزير ولا انعدامه رأسا ،فليس يفقد دفعة واحدة ولا يستمر كلية ،فولاتها لم يشتغلوا ببناء المدارس ،ولا بكثرة الأوقاف والأحباس ،لما علمت أنها ضيقة وملكها ليس كملك تونس»[4].

---

[1] - **ناصر الدين سعيدوني، في التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1999ص ،354.**

[2] - **يرجع إلى وصف قسنطينة في رحلة العبدري من هذا البحث.**

[3] - **حمادي عبد الله أصوات من الأدب الجزائري الحديث ، ص303.**

[4] - **الورثيلاني ، الرحلة ،ص686.**

وما يؤكد كلام الرحالة الورثيلاني هذا ما جاء في الوثيقة الهامة التي تتحدث عن مساجد قسنطينة في عهد صالح باي والتي وجدت في المجلة الإفريقية(R .A)،12 /1868م وهذا نصها:((الحمد لله، ولما وقع التقصير من وكلاء مساجد قسنطينة و لم يكن لها اعتناء بشأن الأوقاف،وفرّط في ذلك غاية التفريط وضاع الكثير منها بغفلتهم عنها،وعدم اعتنائهم بشأنها و لم يبحثوا عن ذلك وتعطل البعض من المساجد بضياع أوقافها ،والبعض غلقت عليه الأبواب وآل أمره إلى الخراب ، وبلغ أمر ذلك إلى العظم الأسعد المنصور المريد ذي الرأي السديد سيدنا صالح باي أيده الله تعالى وأبقى وجوده وأدام خيراته وجوده فألهمه الله إلى إحياء ما اندرس من المساجد والأوقاف وتوجه بكليته أعزه الله تعالى إلى الكشف عن ذلك...))[1]

وعن علماء مدينة قسنطينة يذكر الرحالة الورثيلاني أنه اجتمع بعدد منهم وبعدد من أئمة المساجد وقد لاحظ أن مساجد قسنطينة يضم كل منها –كما سبقت الإشارة – ضريح ولي أو عالم يسمى المسجد باسمه .ومن علماء قسنطينة الذين سعد الورثيلاني بلقاء كثرة منهم بلغوا أكثر من العشرين :«سيدي يحيى تلميذ جدنا الحسين بن الشريف ،وأما سيدي أحمد الزين فتلميذ أبي ،ومثلهما صلاحا وعلما وحالا وورعا وفقها وفهما سيدي فرج وسيدي علي الزمولي وسيدي يحيى اليعلاوي وسيدي خليفة الشاوي وسيدي أحمد العلمي ...وأما العلامة عبد القادر الراشدي فيخصه الورثيلاني بحديث فيه الكثير من الإجلال والإعجاب لما حازه من علم غزير وفقه وفير ،فهو قاضي الجماعة النحوي المتكلم الأصولي المنطقي البياني المتحدث المفسر ،صاحب الأبحاث الشريفة والفوائد المنيفة سيدي عبد القادر الراشدي*.

ولم يفته أن يسجل الصراع الشديد الذي كان بين الشيخ عبد القادر الراشدي وعلماء قسنطينة (طُلبة قسنطينة)حيث اتهموه بالتجسيم بل ذهبوا إلى حد تكفيره ،وقد كان بدوره كفّرهم ،فمن قوله فيهم:

خـــّبرا عـــــــــنيّ المؤول أني   كافربالذي قضته العقول

ماقضته العقول ليس من الدين   إنما الدين ما قضته النقول

شـــــرعوا لهم من الدين ما لم   يأذن الله أو يقـــله رسول

---

[1] - **علي تابليت، جريدة السلام، الجزائر، عدد، 1553، ص20 ، 1996.**

* - **عبد القادر الراشدي القسنطيني ،علاّمة محقق وأصولي كلامي ينسب إلى الرواشداحدى مداشر الشرق الجزائري.توفي أوائل العشرية الثانية من القرن الثاني عشر الهجري .**

إلى أن يقول :

بعــــد هــــذا أفيه أخذ بكفر   بئسما نطقوا ويئس التزول

وبعد اطلاعه على حقيقة الأمر وأساس الخلاف والصراع أوضح بأن سبب هذا الخلاف إنما هو الحسد والبعض والتنافس على مناصب القضاء ،لذا بالغوا في اتهامه وتضليله ،محاولين الفتك به لدى الباي ،ولكنه نجا وقد تمكنوا من عزله من منصب القضاء بعد السعي والوشاية به .

ولقد نصّب الرحالة نفسه مدافعا عنه مبينا عوامل الخلاف فهو يقول :«وإنما هو تحامل عليه ،سببه الحسد والبغض والتنافس ،وإنما رموه بذلك لما علموا منه من كونه طويل اللسان عليهم بالقلم بل وقد نسبوا له كثرة الرشوة وغير ذلك ،مما لا يناسبه ...[1].

وهذا ما حدا به إلى القول بأن مدينة قسنطينة ليست كثيرة الصفاء ولا بعيدة الجفاء ولا قوية الوفاء...[2]» مع أنها بلدة طيبة يستجليها الناظر !

وما نخلص إليه من مشاهدات الرحالة الورثيلاني بمدينة قسنطينة على أيام الأتراك هو أنها بقدر ما صورت من تناقضات اجتماعية أثارت سخطه على المدينة بقدر ما فيها من شهادة على وجود حركة فكرية وروحية ساعد على ظهورها كون غالبية بايات قسنطينة من أصول عربية جزائرية .وينفي عن المدينة ما نسب إليها من ركود فكري وجمود وأن أهمية الرحلة الورثيلانية تتمركز في البحث عن المعرفة العلمية وملاقاة الرجال وإلتماس البركة من الأولياء والرغبة في التقدير والمكانة الاجتماعية. والقارئ للرحلة الورثيلانية يشعر برغبةالورثيلاني الصارخة في التميّز.أضف إلى ذلك أن التماسه البركة يتجلى في زيارته من يلتمس منهم ذلك من الأحياء والأموات وهذه البركات تؤثّر بطرق خفية في النجاح وفي الفشل الذي يلحق الرحالة.ثم يصبح الأثر متعديا إلى الآخرين عن طريق الرحالة نفسه بواسطة الدعاء بالرضا وعدمه..!

9 - مدينة قسنطينة في رحلة محمد الخضربن الحستن:

ولد محمد الخضر بن الحسين بنفطة احدى قرى الجريد التونسي سنة 1873 م،وهو كاتب بليغ ساهم في الحركة الوطنية ثم هاجر إلى المشرق وأقام بسوريا ومصر وهي تحت الاستعمار الفرنسي، قام برحلته إلى الجزائر للاطلاع على الحالة العلمية للبلاد وكان ذلك سنة 1904م ولقد تولى تحقيق

---

[1] - الورثيلاني ،الرحلة، ص691.

[2] - المصدر نفسه ،ص 689.

هذه الرحلة ونشرها محمد المواعدة في كتابه (محمد الخضر بن الحسين – حياته وآثاره –الدار التونسية للنشر 1974م ،والدكتور علي الرضا التونسي في كتاب (**الرحلات**)ط.دمشق 1976م توفي الرحالة سنة 1958م

انطلقت الرحلة من سوق اهراس إلى تبسة ثم عين البيضاء فقسنطينة .وقد وصل الرحالة مدينة قسنطينة بعد مسير ست ساعات من مدينة عين البيضاء وأول ما لفت نظره حين مقدمه إلى المدينة **معالمها الدينية** وآثارها القديمة والحديثة فهو يذكر :«بهذه المدينة مدرسة اسلامية معدة لتخريج القضاة العدول ،وثلاثة جوامع تقام فيها الجمعة ، الجامع الكبير،الجامع الأخضر ،والآخر ويسمى بجامع سيدي الكتاني .وفي هذا الجامع منبر من الرخام مرقوم فيه بيت من الشعر يتضمن اسم مؤسسه وتاريخ تأسيسه وهو :

بنى منبرا بالعزّ والنصر صالح ∴ له سبل الخيرات تاريخه رشد

وهو من بحر الطويل ،وكلمة (رشد) مجموع حروفها بحساب الجمل عند المغاربة يساوي:ر: 200 +ش :1000 +د:4 = 1204 ه وأسس الجامع الأخضر سنة 1266 ه وبه مكتبة عمومية تحتوي على عدد من الكتب المطبوعة المتداولة .

ومن علماء قسنطينة الذين التقى بهم الرحالة يذكر :«ولقد التقينا بأشهر علمائها الشيخ حمدان بن لونيسي(1856 /1920م) والعالم أحمد بن لحبيبات وهو رجل عليه سمة أهل الخير والصلاح ...».[1] ويصور

لنا جانبا من الدروس التي تقدم بالجوامع ومدى اقبال القسنطينيين عليها فيقول :« ولما حان وقت الصلاة رأيت جماعة مستديرة في جانب من الجامع والناس يستبقون نحوها زمرا فأخبرت بأن للشيخ درسا في التفسير فدنوت منه وأصغيت إليه فإذا هو يقرأ في قوله تعالى :((ما ننسخ من آية...)) البقرة 106بتفسير الخازن.

وعن سكان المدينة يذكر أن عددهم نحو 55 ألف نسمة نصفهم من المسلمين وأربعة آلاف من اليهود والباقي من الافرنج[1].

10- مدينة قسنطينة في رحلة أحمد حستن المهيري :

---

[1] - **محمد الصالح الجابري، رحلات جزائرية، تقديم الأستاذ محمد الميلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001، ص.32**

1- المرجع السابق، ص ،33.

أحمد حسين المهيري من مواليد مدينة سفاقس، درس بالزيتونة وكانت له مواقف نضالية من المستعمر .أصدر جريدته المناضل (العصر الجديد) 1920م وصادرتها الرقابة الاستعمارية سنة 1924م وأعاد اصدارها سنة 1936م قام برحلته إلى الجزائر سنة 1922م.

وصل الرحالة إلى مدينة قسنطينة قادما إليها من عين البيضاء وأول جولة قام بها في المدينة قادته إلى إدارةالجمعيةالخيرية الاسلامية :«فرأينا ها في غاية الاتساع والتنظيم ،ووصفها باختصار أنه عندما يدخلها الزائر يجد مكتبا فسيحا مزدانا بالأشجار، ودائرة جدرانه محاطة وموشاة بالأزهار ،ويوجد في ذلك المكان (صالة) قاعة فسيحة للعيادة الطبية، حيث الجمعية تداوي على نفقتها وتختن اليتامى مجانا ،وبداخل هذه القاعة قاعة أخرى لاجراء العمليات وبهاغالب الآلات الطبية التي اقتنتها الجمعية ،وقد تبرع حكيمان فرنسيان احدهما اختصاصي لمرض العيون والآخر في الجراحات ..»[1] ويعيب الرحالة على هذه الجمعية تقاعسها على نشر التعليم في تلك الديار في الوقت الذي تنشط فيه البروستانتينية انجليزية تتكفل بتعليم أهالي المسلمين الفقراء وتكسوهم ،وتقوم بجميع لوازمهم وغرضها الوحيد من ذلك تنصرهم واخراجهم من الديانة الاسلامية ولا حول ولا قوة إلا بالله .»[2].

وعن **وادي قسنطينة** الخالد وقناطرها يذكر الرحالة أنه «يوجد بقسنطينة واد عميق جدا وخرير مياهه يسمع بشدة قوية وهو فاصل بين المحطة والمدينة وعليه **ثلاث قناطر** عظيمة، احداها أمام محطة السكة الحديدية والثانية بمكان يسمى (باردو)*والثالثة مرتفعة على رأسي جبلين متقابلين ومربوطة بالسلاسل الحديدية بغاية الإحكام بحيث أن الذي ينظر إلى العربات التي يمر عليها المسافرون من بعيد يراهم بصورة مصغرة جدا من كثرة الارتفاع الذي يظهر الكبير صغيرا ،و لم أر قنطرة أعظم منها سوى قنطرة كوبري قصر النيل التي بالقاهرة »1.

---

[1] المرجع نفسه، ص ،61.

[2] - المرجع نفسه، ص نفسها.

*** أنظر الملحق11 .**

.[3] - محمد الصالح الجابري المرجع السابق، ص ،65

*** *أنظر الملحق12.**

*** ** نصب تذكاري لقتلى للحرب العالمية الأولى**

2 -محمد الصالح الجابري، المرجع السابق ،ص نفسها .

3 -المرجع نفسه ،ص نفسها .

ومن ساحات المدينة التي وقف بها الرحالة ساحة (لا بروش)** التي بها إدارة البوسطة ومركز (الترام) وبها المسرح البلدي ، وقد شرعت الحكومة بجعل تذكار للحرب الكبرى * .بهذه الساحة وهو عبارة عن عمود مستطيل بأعلاه ديك من النحاس الأصفر ،وحول العمود أسماء الجنود والضباط من سكان مدينة قسنطينة الذين ماتوا بصف القتال (وهو لم يقم بناؤه إلى الآن2 وأما بناءات قسنطينة فهي بناءات عظيمة مرتفعة غاية الارتفاع بها من الزخرفة والنظافة والترتيبات مايدل على آثار حسنة لمؤسسيها، وبها عدد كبير من السكان الأوروبيين وطقسها في غاية البرودة.

وسكان مدينة قسنطينة خلاف ما وصف الرحالة الشيخ الورثيلاني على أيام الأتراك، ذووكرم وأخلاق، فلا يسعنا إلا شكرهم جزيلا عما لاقيناه منهم من الحفاوة والالتفاف3.

11- مدينة قسنطينة في رحلة سعيد أبي بكر التونسي:

ولد سعيد أبو بكر سنة1899م بمكنين من الساحل التونسي .كان مولعا منذ الصغر بالشعر ، أسهم في تحرير واصدار عدد من الصحف والمجلات منها(العالم) سنة1930م و(تونس المصورة)، وله ديوانان شعريان : **السعديات والزاهرات** توفي سنة1948م.قام الأديب الرحالة برحلته إلى الجزائر سنة 1927م واستقر بمدينة قسنطينة لمدة شهرين .وعن دوافع الرحلة يصرح الأديب في مقدمة وصفه ومشاهداته أنه طالما كان يسمع الناس يتكلمون عن مدن الجزائر ويذكرون أنها آيلة إلى التفرنس لا محالة وبعضهم يعمم وبعضهم الآخر يخصص ويحتج ببقاء مدينة قسنطينة على حالها .«ولقد أصبحت من زمان بعيد أحمل بين جنبي قلبا يحب هاته المدينة التي حافظت على مدنيتها العربية وقاومت تيار التفرنس، وكنت أترصد الفرص لزيارتها والأطلاع عليها إلى أن وجدت نفسي في أول الشهر المنصرم في بلاد(غار الدماو) التونسية والتي هي آخر نقطة في بلادنا مما يلي جارتنا العزيزة الجزائر...»[3].

وهو في القطار يقدم لنا وبعيني شاعر لوحة فنية جميلة لا يمكن أن تكون إلا مدينة قسنطينة :«.....وقربت من النافذة فاذا بي أبصر آلاف من الفوانيس الكهربائية ترسل إلينا أشعتها الضئيلة من بعيد وهي طبقات كثيرة مرتفعة بعضها على بعض بين البناءات المرتفعة التي كانت تلوح إلينا

.

.

[3]- ، المرجع السابق ، ص75.

عندما تنعكس عليها أشعة تلك الفوانيس فيتكون من مجموع ذلك إلى الرائي منظر جميل يتمنى الانسان أن لا يحوّل عنه عينيه تلك هي مدينة قسنطينة ...تلك هي المدينة التي كنت أسمع الناس يتحدثون عنها والتي كنت مشتاقا لزيارتها...»[1].

وأول يوم خرج فيه صباحا إلى وسط المدينة لفت نظره أهم ما تميزت به المدينة وهو **نظافتها** والتي يعود الفضل فيها إلى أعضاء البلدية الجزائريين الذين وقع انتخابهم انتخابا حرا[2].

ثم **كثرة المقاهي** بين أوروبية وعربية لا تزال على النمط القديم و لم يدخل عليها أي تغيير ،فترى الناس فيها جالسين على حصير متّسع يلوح عليه أنه مصنوع خصيصا إليهم وهم عاكفون على لعب الديمينو ،وربما لعبوا (الداما).* أما (الكارطة فلم أرهم يلعبونها إلا في المقاهي الإفرنجية وهي نعمة نغبطهم عليها. ويعيب على المقاهي الإفرنجية أن الكلاب كانت تدخُلها وتطوّل أعناقها إلى الطاولات وكان الجالسون لا يبخلون عليها بكل ما يستغنون عليه من السكر «فاتخذتها عادة وما أقبحها من عادة !»[3].

وما أسف له الرحالة هو «ضياع جانب مهم من الشبيبة في الشوارع والأزقة وكثرة اللماعين (الشياتة) في ساحة باب الواد فلا يكاد الإنسان يصل إلى تلك البقعة حتى يحيطوا به وهم يقولون (نسيريلك)أو (تسيرجو).وكم يكون الأسف شديدا عندما يراهم الإنسان صغارا في مقتبل العمر وفي زهرة الشباب، وهم يحملون ذلك الصندوق المشؤوم مع بشرة نقية ووجه صبوح»[4].

و لم يغفل الرحالة الحديث عن **المرأة القسنطينية** إذ يحدثنا عنها حديثا عقد فيه مقارنة بينها وبين المرأة في مدينة المهدية التونسية:«ذلك كل ما لفت نظري من حياة الرجل القسنطيني ،أما المرأة القسنطينية فلم أشاهدها كامل المدة التي قضيتها في المدينة وذلك دليل على كل حال ،يمكننا أن نعرف به أنهم يقدسون الحجاب أكثر منّا ،ولذلك فإنه يصعب عليّ أن أصفها أو أصف لباسها إلى القراء ليتسنى لهم أن يقابلوا بينها وبين المرأة التونسية،غير أن الذي رأيته من الفتيات الصغريات بالشوارع شبيه جدا من لباس فتيات المهدية** ولو أنه أكثر اهتماما وأقل نظافة[2] ».

---

[1] **المرجع نفسه ، ص ص79-80..**

[2] **- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.**

* الدامّا : لعبةشعبية أشبه بلعبة الشطرنج إلا أنها من دون بيادق.

[3] **محمد الصالح الجابري، المرجع السابق ،الصفحة نفسها.**

[4] **- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.**

** **احدى مدن الساحل التونسي.**

وعن نظافة المدينة وجمال طبيعتها الساحر يقول :«والمدينة جميلة بمناظرها الطبيعية المدهشة، ونظيفة في داخلها لا يشوّه وجهها إلا مكان ملاصق لها من بعض جهاتها عثرت عليه أثناء إحدى تجولاتي، وسألت عنه أولاداً وجدتهم هناك فقالوا إنه مكان أطلق عليه اسم (الرّمبلي)... *

ويخلص إلى القول :«هذا ما أمكنني أن أحكيه عن مدينة قسنطينة، ولعله أقل من سمعتها، وإذا أردت أن أزيد عليه شيئا فهو أن أهلها يقدّرون تونس ويحترمون التونسي،

وينظرون إليه بعين الاعتبار، وربما حسبوه أمريكيا فباعوا له الأشياء بأضعاف أثمانها.»[3].

و مانخلص إليه في نهاية هذا الفصل هو أن الرحالة العرب لقسنطينة تميزت أوصافهم ومشاهداتهم بجملة من الخصائص أهمها:

-الرحلة في طلب العلم كانت في مقدمة دوافع الترحال لديهم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ولقاء الرجال لذلك كان المسجد أو الجامع محط رحالهم وأول مقصد يؤمه الرحالة العربي حين يلج المدينة ثم السؤال عن أقطاب المعرفة ورجالات الدين حتى يحظوا بشرف الجلوس إليهم والاغتراف من علومهم شأن الشيخ الحسين الورثيلاني الذي راح يعدد لنا في نشوة علماء قسنطينة الذين حظي بشرف الجلوس معهم والتبرك بهم بل والذود عن المضطهدين منهم كالشيخ عبد القادر الراشدي،أ،العبدري الذي ساءه ألا يجد من يعرف الشيخ ابن الفكّون ...

-كثيرا ما ساءهم تقصير الحكّام في رعاية أمور العلم والأوقاف.

-كثيرا ما ساءهم ما ألفوا عليه المجتمع القسنطيني من سلوكات لاتتماشى مع روح العقيدة وعادات وتقاليد وخرافات عششت في أذهان الرعاع من السكان لاتمتّ للدين بصلة .

- أجمع جلهم على مناعة المدينة وحصانة الموقع وشهامة السكان .

-تباين وصفهم لوادي الرمال مابين **الخاتم والسوار والعقد والنجم.**

-وصفوا أبواب المدينة وأسوارها وجسورها وصفا متقاربا .

كان حديثهم في باقي جوانب الحياة مقتضبا لا يتجاوز في بعض الأحيان السطر أو السطرين.

---

[1] - **المرجع السابق، ص82.**

[2] - **المرجع نفسه، ص نفسها.**

* **أنظر الملحق13 .**

[3] **محمد الصالح الجابري، المرجع السابق، ص83.**

الفصل الثالث

الفصل الثالث

الفصل الثالث

مدينة قسنطينة
في الرحلات الأجنبية

- تمهيد.
- مدينة قسنطينة كما وصفها:
  - د يسفو نتتن.
  - هانريش فون مالتسن .
  - شارل فيرو.
  - سانت هيبوليت.
  - فندلتن شلوصر .
  - لويس ريجيس .
  - جي دو مو با سا ن
  - مدام دو فرولير.

تمهيد: لم يأت الرحالة الغربيون وخاصة الفرنسيون منهم إلى بلادنا وهم جاهلون لها أبدا، إنهم أتوا وهم مزودون بأفكار وأحكام جاهزة مسبقة، وبثقافة تُوجّه دون شك نظرتهم إليها،

ولهذا انطلق هؤلاء الرحالة في كتاباتهم عن الجزائر من معطيات عدة أهمها:

● كونهم تغلّبوا على الجزائريين بالقوة، وكونهم شعبا متحضرا حكم شعبا متخلفا، وكونهم مسيحيين قبضوا على زمام شعب مسلم. وهذه المعطيات مجتمعة، قررت نوعا من (الحتمية التاريخية) عندهم وهي التي حددت منهجهم الذي تطور مع الزمن كلما ازدادوا صلة بالجزائريين، ولعل تلك المعطيات هي التي لا تزال تتحكم في الكتابات الغربية عن الجزائر.

وما من شك في أن لهؤلاء الرحالة دوافعَ كثيرةً دفعتهم إلى الاهتمام بالجزائر لعل على رأسها الرغبة في التعرف على شعب عربي وقع في قبضة الحضارة الأوروبية، وكانت هذه الحضارة تحمل معها إلى الجزائر كل أدوات الغزو الفكري والاستلاب الحضاري، فقد جاءت بالمطبعة والصحيفة وبالمستشرقين الذين يدّعون معرفة الإسلام وتاريخه ،وبالتراجمة الذين تخرجوا في مدارس اللغات الشرقية الأوروبية أو من الذين جاؤوا من الشام ومصر بعد أن ارتبطوا بالحضارة الأوروبية عقب حملة نابليون مثل :جورج غروي وجوني فرعون وغيرهما ممن ذكرهم شارل فيرو في كتابه «مترجمو الجيش الإفريقي» أو هنري ماسي في كتابه «الدراسات العربية في الجزائر » 1830 - 1930م.

●دافع السيطرة والاحتلال اللذين لا يمكن أن يتحققا إلا بجمع الآثار المكتوبة وغير المكتوبة وتمحيصها وتقييمها واستخلاص النتائج منها، ومن أجل ذلك استعان الغربيون (الفرنسيون) بالإضافة إلى رحّاليهم بالكتاب الجزائريين كابن العنتري وابن المبارك عن تاريخ قسنطينة بوحي من بواسوني Boissoner وكذا ما كتبه محمد بن علي التلمساني من علماء وهران وتلمسان، وما ترجمه ونشره ابن أبي شنب والحفناوي بتحريض من الحاكم «جونار».

●دافع الفضول العلمي :إذ أن الجزائر وقع احتلالها في وقت بلغ فيه العقل الأوروبي الديكارتي درجة قصوى من الجموح والتطفل على ميادين المعرفة مما حدا به أن يخترق الآفاق محاولا اكتشاف أسرار الحياة وتذوق لذاتها، والسيطرة على المجهول والمخيف وهو الوقت نفسه الذي كان فيه

العقل الجزائري (العربي)لايزال راكدا يغفو مما أتاح المجال واسعا لبروز ما يعرف بفكرة التمايز والتفاضل بين الشرق والغرب وأصبح هناك علماء يدعون إلى ضرورة تمدين الشرق بواسطة الغرب ورأوا في هذه المهمة رسالة حضارية لا بد من القيام بها والسعي لتحقيقها.

- الدافع الديني حيث اهتموا بتاريخ الجزائر أولا لمعرفة أسرار العهد العثماني وبالتالي معرفة سرّ قوته التي مكنته من الصمود إذ لم يتم احتلالهم الجزائر إلا بعد صراع مرير دام ثلاثة قرون.

- البحث في آثار أجدادهم –كما زعموا – أي أجدادهم الرومان. ففي هذا الإطار يقول الرحالة **(هاينريش فون ما لتسان)** في طريقه إلى مدينة قسنطينة :«وعندما دخلنا المغارة رأينا ابن آوى يخرج منها مسرعا وهو يعوي عواء كريها، فأطلق عليه رفيقي في الرحلة عيارا ناريا وعاقبه على تدنيسه لآثار الشعب الملكي»[1].

لقد انطلق هؤلاء الرحالة الغربيون على اختلاف مشاربهم يجوبون البلاد الجزائرية لاكتشاف الجزائر ومعرفة أهلها فكتب **كاريت** عن القبائل الجزائرية والعلاقات الاقتصادية بينها، وكتب **بيلسي** دي رونو كتابه «أخبار الجزائر»،كما كتب **هانوتو** عن لهجات ونظم الجزائريين. كما اعتمد هؤلاء الرحالة على المشاهدة،كما طعّموا مشا هداتهم من كتابات بعض الرحالة العرب كفعل **بيبريروجر** الذي ملأ المجلة الإفريقية R. A بمقالات عن أخبار الجـــــزائر من المعلومات التي جمعها عن رحالة مسلمين كرحلة العياشي، كما اعتمدوا على المصادر الأهلية المكتوب منها والمسموع ولعل أحسن مثال للرحالة الأوروبيين الذين شدّوا الرحال إلى المغرب العربي تمهيدا لدخول المستعر الفرنسي **شارل دوفوكو** الذي يشهد ضده شاهد من أهـــــله Bazin René بقوله :«يعتبر كتاب **(التعـــرّف على المـــغرب)** كتابا علميا يهتم بالجانب الجغرافي والعسكري والسياسي». ويؤكد في نص آخر:

« إن شارل دوفوكو كان يجمع ويوثق بعناية فائقة كل المعلومات التي يمكن استعمالها من طرف الجغرافي أوالمحلل الأجتماعي أو المستعمرأو الجندي»[2] .

---

[1] - **هاينريش فون مالتسا ن،ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، الكتبة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ج3، ص 26.**

1- محمد جمام، الرحلة بين المشرق والمغرب،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ،الرباط ، المغرب 2003م، ص322..

لم يكتشف الرحالة الغربيون وخاصة الفرنسيون منهم مدينة قسنطينة بدء من سنة 1830م أي سنة احتلال الجزائر إذ أن الكثيرين منهم كتب عن هذا الحصن الإفريقي قبل هذا التاريخ وفي أكثر من مناسبة و لم تكن كتابات أكثرهم عنها سوى صورة غامضة مشوهة ذلك أنها نتيجة لما يكنّه الغربي بصورة عامة للشرقي من العداوة والتعصّب الديني والاستعلاء المبني على التفوق المادي.

إننا لو حاولنا حصر هذه الكتابات ماوسعنا ذلك خاصة إذا تناولناها من حيث صدقها وأثر المدينة فيها، لذلك توقفتُ عند بعض الرحلات ذات الطابع الثقافي أو على الأقل التي لها علاقة بالواقع القسنطيني، والتي تناولت وصف المدينة والسكان وأنماط حياتهم وملابسهم وعاداتهم وأخلاقهم والأحياء السكنية والطبيعة والمناخ واختلاف المناظر العربية عن الغربية مكتفيا ببعض النماذج الرحلية، ذلك أنني وجدت الحديث عند أكثرهم مكرورا لا يعدو عن أن يكون نظرة أحادية من كوّة فريدة.

1 ــ مدينة قسنطينة كما وصفها ديفونتتن Désfontaines وبيسونيل Peyssonnel

قام هذان الرحّالتان برحلتهما – (Voyages dans les régencesde Tunis et d'Alger) كما ورد في مقدمة الكتاب - بأمر ملكي وذلك بغرض اكتشاف افريقيا الشمالية خدمة للعلوم الطبيعية، وكان ذلك مابين سنتي 1783 م- 1786م، وقام بإعادة تحريرها Louiche RenéDésfontaine. والرحـــلة في جزئـــين جاء وصف مدينة قسنطينة في الجزء الثاني على امتداد اثنتين وعشرين صفحة (من ص330 إلى ص351) استـــهله استهلالا يكشف الغـــرض الحقيقي للرحلة وهو خـــدمة القوات الفرنسية[1] والوصف يكاد يكـــون شاملا يلامس كل جوانب الحياة بالمدينة التي يسمّيها العرب **قسُنْطِينة** وهي تقع على صخر شاسع، بعض قممه المرتفعة تمتد إلى داخل المدينة وهذا الجبل الصخري يستحمّ من الناحية الشرقية والشمالية بمياه وادي الرمال في حين ينفصل من الناحية الغربية باليابسة. وأعلى نقطة ارتفاع بالمدينة تبلغ 1400م على مستوى سطح البحر. وأسفل القصبة من الجهة الغربية تتحدرالتربة نحو الشرق لتلتقي من الجهة الجنوبية بسلسلة جبل شطّابة.

---

1 - مقدمة الوصف، ص330 .

[2] **- Desfontaines,Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger,librairie de guide,Paris 1838,p1,2**

* **كلمة العرب** تعني السكان الأصليين بالمدينة.

ويتحدث الرحالة عن **وادي قسنطينة** الخالد (وادي الرمال) فيذكر أن الجرف الذي يهوي فيه الوادي ويسميه العرب*(لَهَوْى) يشكّل خندقا عرضه ما بين 40 و50 ، ولا يوجد ممر يعبر عليه المارة إلا جسر بني في الجهة الأقل ضيقا بالوادي.

وأما **كاف شكارة** ففيه يشكل الصخر ممرا مرتفعا محاذيا للقصبة تمر عليه بعض الفاجرات من النساء، وهناك ممرّ يُترل منه إلى ضفة الوادي حيث توجد **دار الرخام** وطريق منحوت في الصخر يسمى **المجاز** وهو مسلك سهل يعبر عليه دون خوف..

ومن الجهة الشمالية وعلى مسافة طلقة مسدس يقابل المدينة مرتفع **سيدي مسيد** المتصل بسلسلةالوشال حيث أقيمت مقبرة اليهود. أما من ناحية الشمال فيقابلها سطح المنصورة ، ومن الناحية الجنوبية توجد مرتفعات **المسلّة** وكدية عاتي المطلة على الجزء السفلي من المدينة أما القصبة فتطل على كل الأراضي الممتدة إلى الشمال المسمّاة عقبة السمارة.ولمن أراد أن يرى منظرا عاما للمدينة فإن ذلك لن يتسنى له إلا من جهة بو مرزوق حيث التربة الجبسية، فمن جبل **جبّاسة** الذي هو جزء من سلسلة شطّابة الجبلية يستخرج الجبس. وأما سطح المنصورة فيحتوي على صخور كلسية تستخرج وتشوى بأفران وادي شعبة الرصاص.

وبالمنطقة المسماة **السْرَى** (بتسكين السين) أو التل يتشكل حوض وادي الرمال ووادي بومرزوق، ويلتقي وادي الرمال بالقرب من المدينة بمياه وادي بو مرزوق بين **القرية** و**دار الأقواس**، ويمكن عبور الوادي بأعلى ملتقى النهرين على جسر مجاز الغنم الذي لا يزال يسلك رغم الفيضانات الشتوية وذوبان الثلوج.

ويتواصل وصفه وادي الرمال الذي يشكل شلاّلا قبل أن يمر تحت جسر سيدي راشد يسمى **شلاّل الشوكة**[1] ، وبعد أن يعبر الجسر يختفي تحت كهف طبيعي يسمى **الغرّة** ويبلغ قرابة المائة مترا طولا ومابين الخمسين والستين مترا عرضا، وبعض العرب يسمي داخل هذا الكهف **الظليمات**. ومجرى النهر عبارة عن رخام أبيض يسمى **دار الرخام** بالقرب من معبر القصيبات.

وغير بعيد من مخرج الكهف يشكّل الوادي شلالا آخرهو شرشارشكّابة ويوجد كهف آخر عند الممر يسمى **القصيبات**. وهذا المكان لا قيمة له إلا عند بعض هواة الترول إلى أسفل الوادي قفزا

---

[1]- **Desfontaines. Op.cit, pp332-334.**

من حجر إلى آخر لاصطياد أسماك السلمون و الأنجلس والسرطان البحري. وعلى مسافة غير بعيدة في المنحدر يدير وادي الرمال عددا من الطواحين[1].

وعن المصادر المائية بالمدينة يذكر الرحالة أن بوادي الرمال تتجمع روافد بعض الينابيع التي تتحدر من نواحي المدينة من قبيل **السبع عيون** و**نبع أم دياب** الآتية من هضبة **المسلّة** ومياه **عين الغدير**المتحدرة من الحواجز الجرف نواحي سيدي راشد بالزاوية الجنوبية الشمالية للمدينة وتصب في الوادي من علو ثلاثين مترا وروافد الرمال الأخرى هي: **عين اللوزات** على الضفة اليمنى بين معبر **مجاز الغنم** والجسر.

وينابيع سيدي مبروك على سطح المنصورة، **ونبع الصفصاف** الذي قام صالح باي بتوجيهه عبر قنوات تحت الأرض ليربطه و عين العرب الواقعة بأعلى سوق الغزل بحوض بالقرب من الجسر، وذلك حتى يوفر على السكان عناء جلب المياه من أسفل الوادي عند باب الجابية. ثم مياه **عين اليهود** المتحدرة من مقبرة اليهود – الآنفة الذكر –وأسفل القصبة بأعماق الوادي على عمق مائتي متر تقريبا نبع ذو ماء معدني حارّ تحت كهف نحته الرومان قديما في الصخر وبه الآن ضريح الولي الصالح سيدي ميمون وهو المعروف إلى اليوم بعين سيدي ميمون، ينزل إليها بحوالي خمسة عشر قدما.وبأسفل هذا الكهف مسبح بيضوي الشكل بطول ستة عشر قدما وعمقه ثلاثة أقدام تتجمع به المياه المحتوية على معدن الحديد، يستعملها الناس لمداواة أمراض المفاصل والتئام الجروح[2].

وعن **مناخ قسنطينة** يذكر الرحالة أنه صحي للغاية، وما تأتى من الأمراض التي سجلها فمرده إلى مبالغة الناس في تناول الفواكه قبل نضجها. وأما الهواء فهو نقي ينعش الصدر ويعطي دفقا دمويا هائلا.

ويصف **المرأة القسنطينية** فيذكر أنها أجمل نساء الجزائر وأنها تبدو محافظة أكثر من غيرها، والرجال كذلك يبدون شديدي الغيرة إلى حدّ المبالغة.

وفي وصف يظهر مهارة الرحالة وخبرته في ميدان **التجارة والمعاملات التجارية** يذكر أن جزءً كبيرا من الأراضي المحاذية لمدينة قسنطينة والمعروفة باسم (العزل) جمع (عزلة) ملك الخواص والذين هم من كبار الموظفين في الدولة. والعرب الذين يزرعونها يحصلون على خمس المنتوج (الخمّاسة).

---

[1]- **Ibid, p 335**

[2]-**Desfontaines . Op.cit,pp332-334.**

وبقسنطينة تقل الأبقار في حين تكثر الأغنام، ولحم الأبقار الخالي من العظم الذي لا يأكله أهل قسنطينة إلا في فصل الربيع يباع الأربعة عشر رطلا منه ب12 صوردي أما لحم الخروف ذي الإلية والذي يكثر تناوله في فصل الشتاء فيباع ربع الخروف بأربعة وعشرين صوردي، أما الخروف كاملا فيباع بأربعة فرنكات. أما الدجاج فيباع الطائر مابين 12 و15 صوردي وأما القمح فيباع بعشرة فرنكات للكيس[1].

وعن المخابز يذكر الرحالة أنه لا يوجد بالمدينة مخابز شأنها في ذلك شأن باقي المدن الجزائرية ذلك أن المرأة القسنطينية تقوم بتحضير الأرغفة في المترل كما تحضر أشياء كثيرة أخرى وفي أوقات الطعام تشرف المرأة على إطعام الحاضرين وهذا الرغيف لا يشبه الخبز الذي نحضره أدنى شبه وهو يطهى على صفائح ساخنة تنصب على الأثافي وأحيانا تحضر النساء نوعا من الخبز يؤخذ ليطهى في أفران شعبية. ويبلغ عدد هذه الأفران بمدينة قسنطينة ثمانية عشر فرنًا وهي:

-فرن الزيات	-فرن جنان البلاط	-فرن عبد الرحمان بن وطاف
-فرن باب الجابي	—فرن باي الجديد	-فرن الشركة الوطنية
-فرن سراج	-فرن بليرج	-فرن الزلاقة
-فرن الموقف	-فرن الجبس	-فرن بطحة سيدي الشيخ
-فرن الدريبة	- فرن رحبة الصوف	-فرن دار الخليل
-فرن غدير	-فرن ابن حجار	-فرن الربعين شريف[2].

ويتحدث الرحالة عن **الطواحين** المدارة بالمياه فيذكر أن بالمدينة اثنين وعشرين طاحونة عشر منها بالقرب من سيدي ميمون، واثنان بالقرب من سيدي إبراهيم وعشر برأس الحامّة. وهذه الطواحين تشتغل على امتداد الفصول الأربعة.

وإضافة إلى هذا العدد يوجد بداخل المدينة خمس طواحين واحدة برحبة الصوف واثنان بحومة اليهود واثنان بدار القايد. وبمقدور الواحدة منها أن ترحي يوميا عشرة أكياس[3]. وعن الحركة التجارية بالمدينة يذكر الرحالة أن قسنطينة مدينة ثرية وهي تجمع عددًا كبيرًا من التجار والحرفيين

---

[1] - **Ibid, p ,336.**

[2] - **Desfontaines . Op.cit , p , 339.**

[3] - **Ibid ,p334.**

والصناعة، الرئيسية بها هي صناعة الملح بكل أنواعه والجزمات والأحذية ولفافات الأرجل ذات الطرز العربي.

وكل شارع الشط ممتلئ بباعة الجلود الذين يحضّرونها باستخدام مادة تعرف **بالدباغة** (لحاء شجر الصنوبر) وهي تعطي الجلود لونا أحمرَ، ورائحة أشبه برائحة جلود روسيا غير أن سرّ ثراء المدينة الحقيقي هو **الفلاحة.** ومبادلة السلع مع افريقيا حيث تأتي القوافل محملة بالتبر (الذهب قبل تصنيعه)، وبعض العبيد الزنوج ، وبعض الزرابي وأغطية الأسرّة وملاءات النساء المصنوعة من الحرير أو الصوف.

وبعد كل شهرين تتوجه من قسنطينة إلى تونس قافلة تضم ما بين 150 و200 بغلا محملا بالمنتوجات الزراعية والصناعية التي كان الباي قد باعها من قبل إلى الحامية الفرنسية بالقالة لتعود محملة بالبضائع التي اشتراها.

وبعض الحدادين يقوم بصناعات حديدية من الحديد الذي تم شراؤه من تونس فيصنعون أدوات للحرث وصفائح للخيول والبغال.

ويعود الرحالة إلى **الحديث عن المرأة القسنطينية ليبرز ما لها من دور في الاقتصاد** فيشير إلى أنها تقوم وفق العادات والتقاليد ببعض الحرف المنزلية كغزل الصوف وبيعه في «سوق الغزل»كما تقوم بنسج الأغطية الصوفية والبرانس[1] .

وعن ساحات قسنطينة يذكر الرحالة أن قسنطينة تشتمل على ثلاث ساحات صغيرة:

1 _رحبة الصوف*

2 _رحبة الجمال **

3 _الشارع أو سوق العصر

وتعتبر فترة حكم صالح باي فترة سعيدة ذلك أنه قام بانجازات هامة للمدينة والسكان فقد قام ببناء منطقة الشارع، فبنى بها فندقا ومقهى وعددًا من المنازل الجميلة. وهذا الوالي نفسه هو الذي

---

[1] - **Desfontaines . Opcit, p, 342.**

* **انظر الملحق14.**

** **انظر الملحق15.**

بنى جامع سيدي الكتاني وأعاد ترميم جسر باب القنطرة الروماني سنة 1793م، الذي تعطل منذ خمسة قرون، فجلب له الحجارة من حصن المنصورة الروماني المتهدّم. ووفر لهذا المشروع مائة خبير وعامل فني استقدمهم من البلاد الأوروبية وبالتحديد من Mahon وأشرف على الأشغال المهندس الاسباني «**الدوق بارتوليو**» وهؤلاء المهندسون هم الذين كانوا قد أتموا بناء مسجد الباي بمدينة **بونة**.أما بقية مواد البناء فكانت تفرغ بميناء **سطورة** ثم تنقل إلى مدينة قسنطينة على أظهر الجمال[1].

وعن **مساجد قسنطينة** وهو الموضوع الذي لا يعدم أي وصف من أوصاف الرحالة عربا كانوا أم غربيين منه يذكر الرحالة أن بقسنطينة ثلاثة عشر مسجدًا رئيسيًا هي :

1– الجامع الكبير*.

2 –جامع سيدي عبد الرحمان	8-جامع القصبة
3-جامع سيدي عبد القادر	9-جامع سيدي عبد الراشد
4-جامع إسماعيل	10-جامع باب القنطرة
5-جامع الباي	11-جامع سيدي بو عنابة(بباب الجابية)
6-جامع سيدي الكتاني	12-جامع سيدي بو الونابة (قرب القصبة)
7-جامع سوق الصوف	13-جامع سيدي غازي أوقادي .

[1] - **Desfontaines. Opcit , p , 347.**

* **انظر الملحق16 .**

2- قسنطينة كما وصفها هاينريش فون مالتسن:

حطّ هذا الرحالة الألماني رحاله بمدينة قسنطينة سنة 1862م خلال رحلته في شرق البلاد وجنوبها والتي ضمنها كتابه(ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا)وهو في ثلاثة أجزاء، فبعد إقامته في تبسة التي تعرض لها بالحديث في نهاية الجزء الثاني من كتابه، توجه إلى قسنطينة ومنها انطلق إلى الصحراء، فزار بسكرة وتوقرت. وفي رحلته الثانية زار الأغواط والجلفة وعين ماضي وبعض مدن الساحل الغربي .

خص الرحالة مدينة قسنطينة بحيز كبير من كتابه فقد جاء الوصف على امتداد 54 صفحة من الجزء الثالث (ص15إلى ص69)، وعلى غير ما ألفناه عند الرحالة الغربيين، تميز وصفه بحرصه الدائم على تقديم صورة واضحة عن المدينة وعاداتها وتقاليدها الشعبية وعن بعض النماذج البشرية التي صادفها، دون أن يهمل رواية بعض الروايات والأساطير والقصص التي تتصل بها بشكل أو بآخر ويرويها أحيانا بطريقة فنية متميزة.

بعد تقديمه لمحة حول **نشأة المدينة وأصل تسميتها** نلمس فيها روح السخرية من الحكام الفرنسيين بالجزائر الذين يحبون- وهم أبناء ((الأمة العظمى))- أن يتظاهروا بأنهم يتّبعون آثار الشعب الروماني سيد العالم القديم، وينتقدهم أحيانا بمبالغتهم في السنوات الأخيرة في انتهاك حرمة الآثار القديمة،وقد بلغ بهم الأمر أنهم أقاموا سجنا فوق آثار(لامبيزيس) ووضعوا فيه عددا من المساجين السياسيين[1]، يشرع الرحالة في وصف **موقع المدينة وأهم معالمها** معبرا بأسلوب شاعري مجنح الخيال عن مدى إعجابه الشديد بها، فهي لوحة طبيعية بديعة لاتعدلها أي مدينة من المدن التي زارها في أجزاء العالم الثلاثة (أوروبا ، آسيا ،وأفريقيا) سوى مدينة طليطلة في اسبانيا المدينة الوحيدة التي يمكنها أن تشكل ظلا باهتا لمدينة قسنطينة، وذلك بسب موقعها الصخري الذي يحيط به النهر.

‹‹إن وكر النسر الإفريقي لتحمل تاجها الحجري في عزة وشموخ، وجلال وعظمة ووعيد وتدفع به في الفضاء الأزرق، فهناك كتل من الصخور الكلسية المرمدة، تبدو على جوانب المنحدرات كلها، وهناك كذلك صخرة جبارة منعزلة وحيدة كأجنبي...أما وادي الرمال فهو يغسل ثلاثة

---

[1] - **هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ترجمة الدكتور أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ج1، ص93.**

جوانب من أسافل هذا القصر الصخري بمياهه الجارفة على نحو ما يفعله نهر طاخو بأسافل مدينة طليطلة.

وفوق الهوة السحيقة مباشرة عدد من البيوت مما يجعلها تبدو معلقة فوق الأعماق الرهيبة دونما خطر ، وكأنها قصور الجن الخيالية الفضائية. وعن حصانة الموقع يذكر أنه مادام الخندق الطبيعي الذي حفره وادي الرمال في أسافل المدينة كان يعوض أي نوع من التحصينات تركت ثلاثة جوانب من المدينة في العصور القديمة بدون أسوار.

وأهم آثار المدينة في رأيه **الجسر القديم** الجبار (جسر باب القنطرة) الذي يمتد فوق هوة الرمال الرهيبة، ويشكل المدخل الرئيسي الوحيد إلى هذه الجزيرة التي تتوسّط الأرض. وهذا الجسر يربط باب القنطرة مباشرة قبل المنصورة المواجه له. ويأسف الرحالة غاية الأسف لما آلت إليه حال الجسر الذي وجده عبارة عن كومة من الأنقاض نتيجة الانهيار الذي حل به قبل فترة وجيزة وقد كان قد تمتع بمشاهدته وهو في كامل فخامته وعظمته القديمة عند زيارته السابقة لقسنطينة سنة 1853م.

وكان وقتذاك يتكون من ثلاثة جسور يستند أحدها على الآخر، وكان الجسر الأعلى مدعوما بثلاثة أقواس جبارة، تعتمد بدورها على جسر متوسّط يحمله قوسان، ويستند هذا الجسر على جسر طبيعي. وكان الجسر الأعلى جسرا رومانيا في الأصل وجُدّد بناؤه سنة 1790م من طرف صالح باي، وقد ربطت به ساقية تزوّد المدينة بمياه المنصورة العذبة.

ويصف **قصر الباي** الذي يعد بحق تحفة معمارية لا يخلو حديث رحالة غربي منه، فهو الوحيد بين الآثار المعمارية العربية الذي بقي سليما ولعل سر ذلك كونه جديدا مطابقا لمقاييس العمارة الحديثة ومن ثم سلم من عملية الهدم التي انتهجتها فرنسا في الجزائر.

وخلافا لما ذكره غيره من الرحالة الأجانب حول ما في القصر من بذخ معماري[*]، يقول شلوصر:«وهو لا يحتوي على أشياء كثيرة فاخرة، فالغرف القليلة التي بنيت سقوفها على الأسلوب العربي، والفناء العربي الواسع الجميل، الذي تحيط به الأعمدة والأقواس وتتناثر فيه أشجار البرتقال، وتتوسطه نافورة رشّاشة هي كل ما يذكّر ببهاء بيت أمراء المسلمين »[1].

---

[*] **انظر وصف هيبوليت وشارل فيروفي الصفحا ت اللاحقة من هذا الفصل.**

[1] **- هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ص 40.**

ولقسنطينة أجواؤها الممزوجة **بعوالم الخرافة** وأطياف الخيال البليد، ففي هذه المدينة الموغلة في الصمت والمحضور، فمن دراويش وأولياء صالحين وطُلْبة يُتبرك بأهدامهم، وزوايا وأضرحة يُتمسَّح بجدراها وأستارها، إلى طوائف يدّعي أفرادها القدرة على أكل النار واللعب بالحيوانات السامّة. ومن هذه الطوائف **عيساوة*** التي وجدت لها أتباعا كثيرين في هذه المدينة خلافا لما هي عليه في العاصمة. يحدثنا الرحالة عن عرض لهذه الطائفة أقيم في بيت عربي منخفض حيث اجتمع في وسطه حوالي خمسين شخصا مهلهلي الثياب. وكانت أمامهم طنابير يطلقون عليها اسم (تم تم) يدقون عليها بكل قوة ويغنّون بأصوات حادة أغنية كانت دعاء مثلما قيل له، وأثناء هذا الدعاء قام زنجي وأخذ يؤدي رقصة (دينية)، وعندما بلغ هذا الأسود حدا معينا من الهوس، بدأ يمارس ألعابه الخطيرة، فأدخل أولا سفودا محمرّا في فمه، ثم غرز سكينا في عينه، وأكل الزجاج المكسور والمسامير الكبيرة، وأخذ عقربا في فمه، وأنهى وجبته بتناول ثعبان حي، ثم قام خمسة من الطائفة وأدّوا رقصة دينية أعقبها أكل ثعبان حي مزّقوه طولا على شكل خيوط تشبه المعكرونة إلى حد بعيد.

ويكشف الرحالة أباطيل عيساوة ومريديها بتعرّفه إلى الحاج محمد أحد المنظمّين إلى الطائفة بعد أن أغراه ببعض القطع الفضية، فلا زجاج ولا مسامير تؤكل، ولا خناجر تغرز في الأجساد، فالحدّاد هو الذي أعدّ معجزة الخنجر حين جعل له لولبا يعيده إلى مقبضه. وأما عادة أكل الثعابين فهي عادة قديمة عند بعض القبائل الإفريقية، إنهم يعرفون كيف يجردّون الثعابين من سمومها. وكثيرا ما يتعرض مالتسن وهو يتحدث عن بعض العادات والتقاليد المحلية بقسنطينة، لذكر الإسلام لا ليهاجم تعاليمه أو تأثيراته، كما يفعل غيره من الرحالة الأجانب عادة وإنما للدفاع عنه فمثلا عند وصفه العرض الذي قدمته طائفة عيساوة يعلق عليه بقوله :« وعلى هذا فالإسلام لم يكن مصدرا لهذه الشعوذة، فهي تعود إلى عبادة الثعابين الإفريقية التي كان يمارسها الوثنيون الليبيون ولكنها انتقلت إلى دين محمد، ذلك أن الإسلام في حقيقته لا يعرف مثل هذه الطوائف، ولهذا السبب تتهم جميع الطرق الإخوانية تقريبا بالسحر والشعوذة[1]».

ومن عوالم الخرافة والغرائبية ينتقل الرحالة إلى **وصف حفلة زواج يهودية** حضرها في قسنطينة وقد تميزت كما قال بالروعة والفخامة، فقد كانت العروس وهي فتاة لا تتجاوز الحادية عشرة غير أنها

---

* **انظر الملحق (17).**

[1] **- هاينريش فون مالتسانثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا، ص ص، 43-48 .**

كانت تبدو مكتملة تقريبا، ترتدي لباسا مخمليا نفيسا. وابتدأت مراسيم الزواج بقص شعر العروس إذ لا يجوز لليهودية المتزوجة أن تحمل شعرها الخاص، وإنما ينبغي لها أن تحمل شعرا مستعارا أو تضع على رأسها غطاء. وأجلست العروس الصغيرة في وسط الغرفة، وكان شعرها الأسود مرسلا يغطي في روعة كتفيها الرائعين وثوبها النفيس. ثم اقتربت منها قريباتها الواحدة بعد الأخرى وأخذت كل واحدة منهن خصلة من شعرها وضفرتها، وأدارت حولها عصابات مخملية ملونة، ثم حضر حاخام ضخم الجثة، بليد المظهر، وقطع شعرها بقسوة ولكنه جمع بعناية وسلمت لكل قريبة الضفيرة التي ضفرتها بنفسها لتبقى لها ذكرى ثم غطى رأس العروس بغطاء مخملي أسود ثمين، خيطت فوقه وريقات من ماس لتبدأ بعد هذا المراسيم الحقيقية،حيث يقود العريس وهو فتى طويل القامة، نحيف الجسم، عروسه إلى مظلة ثمينة، وهناك أدخل الحاخام الخاتم في أصبع العروس، ثم أُحضِر كأسان مذهّبان فشرب العريسان الخمر من أحد الكأسين. ولما انتهيا من الشرب، رمى العريس الكأس على الأرض وداسها وبذاك أصبحا زوجين، فكسر الكأس هو خاتم ارتباطهما.

وبعد انتهاء مراسيم الزواج أحضرت أنواع من الحلويات أكل منها بنهم كل الحاضرين[1]...

ومن المناسبات الدينية التي تحدث عنها الرحالة وتوقف عندها مطولا **شهر رمضان** حيث سجل كثيرا من العادات والتقاليد المتبعة في قسنطينة خلال هذا الشهر الذي قضاه فيها سنة 1862م فيصف مظاهره المختلفة ويذكر حتى مختلف الأطعمة التي تقدم فيه، لأن التعرف عليها في اعتقاده يدخل في إطار معرفة عادات الشعب وأعرافه وتقاليده. والجدير بالذكر هو أن كثيرا مما ذكر هذا الرحالة لا يزال معروفا متبعا إلى يومنا هذا حتى ليخيل إلينا أن وصفه لا يعكس إلا صورة راهنة.

في بداية حديثه يعرف الرحالة بالشهر مبينا الفرق بين صيام المسلمين وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، فصيام المسلمين لا يقوم على الامتناع عن أكل اللحم فقط، مثلما هو الأمر عند بعض المذاهب المسيحية إنما يعني إمساكهم عن كل المواد الغذائية طيلة النهار، وهو نفس الصوم الذي عرف اليهود صرامته في القديم، إلا أنه كان عند الإسرائيليين يقتصر على يوم واحد فقط، وذلك في السنة كلها، وهو صوم عيد الغفران أو ((أم كيبور)). أما المسلمون فإن لهم ثلاثين يوما، أي شهر رمضان كله.. ويقسّم المسلمون اليوم بحسب الأوقات لا بحسب الساعات، فالسحور هو الوقت الأول الذي يسبق الفجر مباشرة ويباح فيه الأكل، ثم يأتي الفجر بعده. أما الصبح الحقيقي فهو وقت مدني لا ديني.

---

[1] - **المصدر نفسه، ص ص، 50-51 .**

وفي كلام طريف فيه كثير من الغرابة يتحدث عن رؤية هلال رمضان تلك السنة (1862م) والذي من المفروض أن يصادف تاريخ أول مارس، فنظرا إلى أن رؤية الشهود الهلال قبل البدء بالصوم كانت ضرورية، وبما أن الشهود في هذه المرة كانوا كلهم –خاصة في قسنطينة – عُميا، فإن رمضان تأخر بيوم واحد عن بقية العالم الإسلامي كله، ولا يتصوّر المرء أن أهل قسنطينة كانوا يريدون بهذه الطريقة أن يقصّروا عن صوم يوم واحد كلا، فالإسلام لا تقصير فيه فلا مناص من تعويض ذلك اليوم الذي فات – جهلا – وفي شهر رمضان تتكرم الحكومة الفرنسية بوضع طلقة مدفع تحت تصرف المسلمين، يتم بواسطتها الأعلان عن انتهاء الصوم، ففي مساء كل يوم ينطلق صوت المدفع ليعلن للجياع أن لهم الحق في الأكل، ويصف لنا مالتسن أجواء انتظار مدفع الإفطار التي شهدها فهؤلاء عمال عربا وقبائل مجتمعون في الميدان الرئيسي للمدينة وفي يد كل واحد منهم قطعة خبز أو برتقالة أو أي شيء آخر يصلح للأكل، وكان كثير منهم قد أعد قبل ذلك غليونه ليشعله عندما يحل موعد الإفطار ذلك أن المسلم لا يجوز له أن يدخن بالنهار في أيام رمضان ولا أن يستنشق السعوط (الشمّة) بل حتى أن يشم زهرة، وفي النهاية تبدو لهم فوق القصبة سحابة الدخان الصغيرة التي تسبق دوي الطلقة فينسون كل شيء ويغرقون في إشباع بطونهم من كل ما لذّ وطاب، وما لفت انتباه الرحالة هو أن الكسكسي كان الطعام الوحيد الذي لم يكن حلوا ،فبقية الأطعمة المختلفة من كعك وحلويات ذات أشكال مختلفة كالزلابية والقطايف المحلاة بالعسل والسكروالبقلاوةالمحشوة باللوز والزبيب والمشلوش وهوعبارة عن قطع صغيرة من الطحين تشبه الشعيرية تصنع بالعسل وتنقع في الزيت ويذرذر فوقها السكر وتوضع فوقها بعد ذلك قطع من البيض المسلوق، كلها حلوة اجتمع فيها أمران لا يُستمرءان ،العسل والزيت[1].

ولا يعتبر رمضان شهر الصيام فحسب، وإنما هو شهر الأفراح والسهرات أيضا بالنسبة للمسلمين، فلياليه عامرة بالبهجة والسرور والمرح. وبعد شهر الصيام يحل موعد العيد الصغير، وقد سمّي كذلك في مقابل العيد الكبير. والعيد الصغير هوفي الغالب عيد الأطفال، وعلى هذا الأساس يمكن مقارنته بعيد الميلاد عند الألمان، أو السنة الجديدة عند الفرنسيين. ففي هذا اليوم تقدم للأطفال هدايا أهمها الفلوس، ويكفي عادة صوردي واحد أو صورديان، ينفقونها أويشترون بها لعبا

---

[1] - **هاينريش فون مالتسان، المصدر السابق، ص ص ،53-62 .**

والصوردي أفضل هدية تقدم للأطفال في العيد الصغير. وأطفال العرب متواضعون ومهذبون في الغالب، ويمتازون بهذا عن تلك المسوخ التي يطلق عليها اسم الأطفال الفرنسيون[1]..

3- مدينة قسنطينة كما وصفها م شارل فيرو M Charles Féraud
الرحالة الترجمان الرئيسي للجيش الإفريقي.

قام هذا الرحالة الفرنسي برحلة إلى مدينة قسنطينة سنة 1877م ومما جاء في وصفه المدينة وصفه **قصر قسنطينة (قصر الباي)**، فهو يذكر أن من بين البناءات القيمة الفاخرة بالجزائر قصر قسنطينة الذي يحوز اهتماما كبيرا لدى المهتمين بالقديم وبالذكريات على تباين وجهات نظرهم في عمارة بلاد المغرب وشمال افريقيا. وليس ذلك لكونه ذا هيئة مهيبة أولكونه ذا تفاصيل نادرة وتناسق مكتمل ولكن بالمقارنة بغيره من الإقامات الفاخرة على أيام العهد التركي.

إنه يفضلها بأبعاده الأنيقة الفخمة إنه الجمال الجزائري مجتمع، وبكلمة وجيزة إنه النموذج الأسمى المكتمل لفن العمارة

وعن **موقع المدينة** يذكر الرحالة أنها تقع بين جبلين شامخين على مرتفع صخري وعر من كل جهاته، وأودية وادي **مادو**(يعني بو مرزوق) تجري بها المياه الساخنة من منبعها وهو يأتي من الجنوب بمعية وادي الر مال الذي يأتي من الجهة نفسها حيث يلتقيان على مرمى طلقتي بندقية من المدينة. وفي موقع اتصال الواديين تتشكل ساحة مائية غاية في الجمال وحولها قوسان بعرض خمسة وعشرين قدما وبسمك عشرين قدما، بنيا من الحجارةالمصفولة بطريقة جيدة لا يزالان قائمين إلى اليوم.

وبأسفل المدينة نقف على نبع مائي ساخن يخرج من عمق ثلاثمائة قدم تقريبا وكان الرومان قد شكلوا حوضا مائيا مغطى بقبة مرتفعة تبدو دائما حديثة البناء. وبالأرجاء يتوزع عددمن

---

[1] - المصدر نفسه ، ص ص ،63-66 .

العمارات[1]. - لعله الذي ذكره المؤرخ شو Shaw في قوله:«مياه الرجل الصالح سيدي ميمون الساخنة[2]».

وفي وصف يذكرنا بوصف الرحالة العربي الحسن بن الوزان في الفصل السابق يذكر**فيرو** أن بهذا النبع والنبع المجاور له بالجهة الشمالية الغربية للمدينة يوجد عدد من السلاحف يحظى باهتمام الدهماء من الناس الذين يعتبرونها أرواحا شريرة تعيش منذ عهد الرومان، وتذهب النسوة كل ربيع للنذر وتقمن بإطعام هذه السلاحف[3].

والمدينة محاطة بمنخفضات وعرة ومخيفة، ما عدا الناحية الجنوبية حيث يمكن القرب منها.

وعن **أبواب المدينة** يذكر الرحالة أن لها ثلاثة أبواب، بابان رئيسان يقعان على المضيق والثالث بجانب الجسر ومن هذه الأبواب الثلاثة المضاعفة البناء يدخل إلى المدينة. وأحد البابين الرئيسيين قديم جدا وركائزها من الرخام الأبيض .

وفي حديثه عن **السكان** يذكر أن المدينة كانت كثيفة السكان ومنازلها سيئة البناء جزء منها مبني بالآجر والجزء الآخر من الطين، وهي معروشة بقرميد دائري الشكل. وأزقة قسنطينة ضيقة جدا، سيئة التخطيط، قذرة في فصل الشتاء إذ لابلاط، لاساحات ولاتعليم يثير أقل الإهتمام مع أن هذه الفترة تعد بحق فتر ازدهار المدن الأفريقية..وبين الحجارة والأنقاض المتبقاة والتي من المفروض أنها كانت قصورا جميلة غير أنها تلاشت.

ونقف على أقواس أربع غير ما ذكرت تسند قباب بعض المعابد. وبأعلى المدينة من الجهة الشمالية مكان مُسوّر **وبقايا قصر** محاط ببناءات جميلة بلا حرس ولا حماية. وبباب هذا المكان القلعة مدفع قديم بارتفاع عشرة أقدام شبيه بالذي بقصر تونس، وهناك أيضا (جثة) مقاتل وبجواره قبعة حديدية ملقاتان على قارعة الباب والقلعة من الداخل مملوءة بالمنازل ..ويشاهد المرء كمية كبيرة من الحجارة المكتوبة بخط غير مقروء. وفي و صف يلتقي فيه مع وصف Désfontaines السابق يذكرأنه على الجهة الغربية من القصر ممر تعبر عليه البغايا من النساء والأشرار من الرجال، وهودون شك أجمل مكان يمكن للمرء أن يحلق منه في الفضاء الرحب[4].

---

[1] - **Charles Féraud ,Visite au palet de constantine ,librairie hachette. Paris. 1877.**

[2] - **شو، رحلة في إيالة الجزائر، منقول عن مجلة الأصالة عدد 14، 15 جويلية أوت، 1973، ص ص 7- 26.**

3 - Féraud, Opcit, p ,305

[4] **- Op.cit، p308**

وقد قيل بأن الباي ألقى منه بإحدى بائعات الهوى غير أن دخول الهواء في برنسها حال دون هلاكها مما اضطر الباي إلى إعادة إلقائها.وفي هذا تأكيد على ظاهرة البغاء التي كانت متفشية في المدينة والتي أشار إليها كثير من الرحالة.

وفي جهة من جهات القصر يوجد عدد من خزّانات المياه العتيقة غير أنها في حال جيدة، طول الواحد خمسة وعشرون قدما ووسط هذه الخزّانات المائية يوجد حوض مائي مبني بحجارة غاية في الجمال.

4مدينة قسنطينة كما وصفها سانت هيبوليت Saint Hypolyt الفرنسي:

كان هذا الرحالة العسكري من المتحمسين لشن هجوم على قسنطينة قصد الاستيلاء عليها وهذا ما يؤكه الوصف الذي يحمل إمضاءه بتاريخ مارس 1832م.*

مضمون الوصف :من ص 1 إلى ص6 عبارة عن مدخل تناول فيه الإمكانيات العسكرية والأساليب الحربية لباي قسنطينة(الحاج أحمد باي 1826-1837م) .

- صفحة واحدة خصصت للوصف الطبيعى العام لقسنطينة(ص 7).

- سبع صفحات تناول فيها الحديث عن المواصلات والطرق المزمع إنشاؤها بعد اخضاع قسنطينة.

- وصف عام لمدينة قسنطينة وذكر أماكنها الحصينة ونقاطها الإستراتيجية (تسع صفحات).

يستهل هيبوليت وصفه لمدينة قسنطينة فيذكر أنها عند القدماء (سيرتا) وهي عند العرب عاصمة الإقليم أو البايلك الذي يحمل اسمها، تقع على وادي الرمال خلف الأطلس التلي على مسافة 35 مرحلة جنوب غرب عنابة، ومن المفروض أنّ عدد سكانها يتراوح ما بين 25 و 30 ألف نسمة من عرب و حضر ويهود وهو ما يؤكده الرحالة الإنجليزي **شو** الذي زار الجزائر في ذلك العهد بقوله :«أما قسنطينةعاصمة المقاطعة الشرقية فهي سيرتا القديمة وتقع على وادي الرمل على بعدحوالي 40 ميلا من البحر، يقدر الأهالي **سكانها** بحوالى خمسة وعشرين ألف نسمة، ومما لا شك فيه أن موقعها من أحسن المواقع التي يمكن أن نتصورها، وعليه كان يحق لها أن تحظى بجميع المزايا لو كانت الحكومة عاقلة»[1]. فقد عرفت قسنطينة في هذه الفترة كثافة سكانية سببها الجالية

*** انظر الملحق:18 ،19.**

[1] - شو، رحلة في إيالة الجزائر، منقول عن مجلة الأصالة عدد 14، 15 جويلية أوت، 1973، ص ص 7- 26.

اليهودية التي كانت تعيش في أهم المدن وكان هؤلاء اليهود يشتعلون ببعض الصنائع الدقيقة والثمينة كالخياطة والصياغة واختبار جودة الذهب والفضة بالإضافة إلى الصرافة والدخان والعطارة ونحوها[1]، و قدوم (البرّانية) إلى المدينة خاصة منهم البساكرة والزنوج والسوافة والقبايل الذين قدموا للعمل بها خاصة وأنها عرفت في هذه الفترة نشاطا اقتصاديا وتجاريا كبيرين في باب الوادي ورحبة الصوف وبابي الجابية والقنطرة، وقد وصفهم الشاعر الشعبي بلقاسم الحداد*في أبيات نذكرمنها:

واشْ تُنظْروا فِيهَا هَلْكَتْ ** رَاهِي فَســْدَتْ

مَا بْقَــاتْ تَسَّـــمَّى بلْدَه

مَنْ كْثِيرْ العَبْد انْدَخْلتْ ** رَا هَــاعَمْــرَتْ

كُلْ جَنْسْ جاَها يــتْهَدَّى

تْعَمَّرَتْ كثير بكل خبْثْ ** وَقْــوَى لَغْــوَات

وتْخَلْطَتْ ورَجْعَتْ كِيفْ الدَّا

واهْلْهَا انْهَزْمَتْ وانْدَمْرَتْ ** والبَدُو لِيهَاحَدَّرَتْ

والقَــضَاةْ عْلِــيهَا يــَــتْعَدَّى

انْحْشَاتْ بالرْهُوطْ انْعَدَّتْ ** فــِـــــيهَا سَكْنَتْ

وهـــَــذَايجي وهَذَاك يَغْـــدَى

بالقـــبَايَلْ رَاهِي تْحْشَاتْ ** والشَّــاوِية كُلْهَا جَــاتْ

والسَّوافَــة ذُوكْ الأَزْفَاتْ ** حــَـــتَّ مْــزِيــنَة زَادُوا

مْغَارْبَة وشْرَاقَة حَفْلاَتْ ** جاَيــين لِيــهَا بَالكَثْرَاتْ

---

[1] - د ،أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، ط، 1، 1979، ج1، ص152.

[*] الشيخ بلقاسم الرحمون الحداد من مواليد قسنطينة، عاش ومات فيها ،ولد في عهد صالح باي ولما كبر أصبح من كبار الشعرالشعبي ،ولما كثر أعداؤه التجأ إلى جبال شطابة عند شيخ الزاوية ،رئيس الطريقة الحنصالية.امتدت اشعاره إلى تونس والمغرب .

فَازْعِينْ لِيهَا الكُلْ بَاثْبَاتْ ** مَثْــــــلْ هِيس اجْرَادُوا

بْنِي مْزَابْ اقْوَاتْ بْلَسْعَاتْ ** مَثْل الخَوْمَسْ عَرَّاتْ الأَمَّاتْ[1]

وأما عن **موقع المدينة** فهوكما يصف على شكل مدرج يرتفع في الشمال الغربي عند سفوح جبل المنصورة الذي يفصله عنها انهدام خانق عميق متعرج تسلكه مياه وادي الرمال، هذا الوادي الذي يرفده وادي بومرزوق الآتي من الجهة الشرقية في المكان المعروف بدار الأقواس (الحنايا القديمة)ويبلغ طول وادي بومرزوق ما بين 7و8 فرسخا من المصب وهذه الجبال مع أنها جرداء من الأشجار إلا أنه يمكن استغلال أراضيها في الزراعة حتى أنه يمكن مقارنتها من حيث الخصب بأراضي برج الرياح المقابلة لقسنطينة.

ويقوم في أعلى هضبة المنصورة نتوءان:أحدهما شرقي يشرف على المدينة على بعد مرمى طلقة مدفع منها يوجد به ضريح من أضرحة المرابطين يعرف عادة بسيدي المبروك. أماالنتوء الثاني الواقع في الشمال الغربي لهضبة المنصورة فيحمل اسم ضريح سيدي مسيد. ومن هذين النتوءين يمكن أيضا قنبلة قسنطينة .(تأكيد لنزعته الاستعمارية) وإلى الشمال الغربي من مدينة قسنطينة وعلى بعد ألف متر من الأسوار التي تحيط بها توجد مرتفعات **كدية عاتي** وتطل على الجانب الآخر للمدينة حيث تتناثر عليها بعض القبور .

وعن عدد أبواب المدينة الذي كثيرا ما اختلفت فيه روايات الرحالة باختلاف الأزمنة والعصور، يذكر **هيبوليت** أنه ضمن سور قديم يعلو ثلاثين مترا ،توجد ثلاثة أبواب:

-**الباب الغربي:** ويعرف بالباب الجديد وتنتهي إليه طريق الجزائر.

2-**الباب الأوسط:** ويعرف بباب الوادي* ويؤدي إلى الجنوب ويمكن أن يؤدي إلى طريق الجزائر عند مسلك متفرع منه .

3-بينما **الباب الثالث** ويدعى باب الجابية فيتصل بوادي الرمال**

---

[1] - **علي تابليت، جريدة السلام، 23 رجب 04/1417 ديسمبر1996 العدد1551 ص20**

* **انظر الملحق (20) .**

** **انظر الملحق (21) .**

*** **انظر الملحق (22) .**

[2] - **ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2000 ص،181.**

وعلى كدية عاتي المواجهة للمدينة وأمام الأبواب الثلاثة توجد ضاحية قليلة الاتساع يسكنها الصناع وتقام فيها الأسواق ،وعلى مسافة منها إسطبلات الباي مع بعض المساكن المتفرقة،وبجوارها بعض الأضرحة والبساتين المحاطة بالسياجات والأسوار الصغيرة.

أما باقي تحصينات قسنطينة فتتكون من أسوار قديمة بالية تستند إليها المنازل ،وإن كثيرا ما تجاوزت هذه المنازل في علوها تلك الأسوار المستندة عليها، على أن تلك الأسوار المنخفضة تشكل وسيلة دفاع ممتازة لأنها مقامة على حافة الصخرة ويحف بها الجزء الأكبر من الجرف المشرف على مجرى وادي الرمال السحيق .

ويوجد بحافة جبل المنصورة باب رابع يعرف بباب القنطرة* قبالة جسر مقام على الوادي ،يصل بين حافتي الفالق (الخانق)الذي يفصل قسنطينة عن جبل المنصورة .

وباب القنطرة هذا محصن بستة مدافع، وتنتهي إليه الطرق الآتية من الجهات الساحلية والشرقية لإقليم قسنطينة، وبجانب باب القنطرة تأخذ أسوار المدينة شكل منعرجات، وهي في حالة سيئة ويمكن الوصول منها إلى أعماق الخانق الذي يسلكه وادي الرمال.

وفي حديثه عن **القصبة***يذكر أنها توجد في الزاوية البارزة للمثلث الذي تشكله الأسوار بين باب القنطرة والباب الجديد فوق الصخور المطلة على الجزء الأكبر من المدينة على ارتفاع مائة متر فوق جرف يشرف على أعماق الوادي في انحدار رأسي سحيق[2]. وهذه القصبة عبارة عن بناء في شكل قلعة صغيرة محصنة بثمانية مدافع وهي تستعمل بمثابة ثكنة للحامية.

ولاينسى الرحالة **وادي الرمال** ساحر الرحّال وفاتن الجوّال الذي يأخذ منبعه على مسافة خمسة أيام سيرا من قسنطينة فيمكن اجتيازه طيلة فصول السنة كلها ولا يتعذر عبوره إلا في فترات سقوط الأمطار الغزيرة إذ يبلغ ارتفاع مياهه حينئذ أربعة أقدام في حين لا يزيد عمقه عادة عن قدم أو قدمين فقط.

---

* أنظر الملاحق ،23 ،24 ..

[2] - **ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2000 ص،181.**

وعلى حافة وادي الرمال اليسرى عند مشارف مدينة قسنطينة توجد سهول زراعية يحف بها جبل المنصورة من الجهة اليسرى.

هذا ويشكل وادي الرمال عند بلوغه باب الجابية شلالا من المياه يشرف على تجويف أرضي تنحدر إليه مياه الوادي لتظهر بعد ذلك من جديد وسط الفالق العميق، الذي هو عبارة عن خندق هائل يحاذي امتداد أسوار المدينة حتى حصن القصبة وهو بذلك يلف بأكثر من نصف المدينة، على أن عمقه لا يزيد عن خمسين مترا وعرضه لا يتجاوز تسعين مترا ما بين بابي الجابية و القنطرة، على أنه يزداد في الاتساع بعد ذلك عندما يقترب من حصن القصبة.

وفي وصف مطابق لما ورد في وصف ديسفونتين السابق يذكر أنّ هناك شلالا آخر يعترض وادي الرمال عند مخرجه من الخانق في أسفل المدينة تعلوه بعض مطاحن الحبوب وتنتشر عند حافته اليسرى البساتين ،بينما الحافة اليمنى يشرف عليها جبل المنصورة.

وفي أعلى الصخور المقامة عليها المدينة يقوم حصن القصبة ومنها يشرف على الباب وباب القنطرة أما باقي الصخور فيقل ارتفاعها ما بين بابي القنطرة والجابية حيث ينمو نبات الصبار ويصبح من الممكن اجتيازه.

وبرغم الأسوار الحاجزة **Remports** يمكن الوصول إلى الصخور الواقعة ما بين بابي الجابية والوادي، فهي قليلة الارتفاع لوجود الأنقاض والنفايات التي تلقى من أعلى الأسوار بجوار سيدي ميمون .

وعن **ساحات قسنطينة وشوارعها** يذكر أن بالمدينة ساحات عمومية عديدة لاتستحق الذكرذكرها لضيق مساحاتها باستثناء ساحة واحدة فقط تقع بالقرب من باب القنطرة.

أما الشوارع فهي ضيقة ومتعرجة والمساجد جميلة ومزينة بالرخام الجيد والثكنات الكبيرة، والأسواق رحبة والمخازن ضخمة تحتفظ بها الضرائب العينية ،ورغم أن خزينة الباي وثروات سكان المدينة يفترض أنها ضئيلة إلا أنها تقيهم شر الكوارث التي تدبر ضدهم .

وهناك **قصر الباي*** الواقع وسط المدينة تتوسطه شجرة السرو الضخمة التي هي بمثابة سارية للعلَم وهو يتميز بقرميده الأخضر وبيوته الكبيرة المتصلة ببعضها.

---

* **أنظر الملحق (25)**

المياه:ومما يذكر أن منابع المياه بقسنطينة منعدمة ولا يوجد داخلها إلا قليل من صهاريج المياه، ولهذا يتزود السكان بالماء من الوادي الذي يمكن الوصول إليه خارج أسوار باب الجابية بواسطة ممر على أن هناك مجاري وعيون متوفرة في الجهات القريبة من قسنطينة .كما أنه من الراجح أن كميات من الحبوب وكثير من الأصواف والزيوت مع مقادير من التين متوفرة بقسنطينة ،مع أنه لا يوجد داخل الأسوار مطاحن للقمح* لأن العديد منها يقع على ضفة وادي الرمال عند خروجه من قسنطينة .أما ما يخص حطب التسخين، ولا سيما خشب البناء فهو نادر جدا وهذا ما جعل السكان يستعملون الفحم في أغراضهم. وأما ما يخص العتاد فإن الباي أحمد لم يعد يتلقى ما يحتاجه من البارود من الداي بعد الاستلاء على الجزائر ،ولهذا أصبح يصنعه في مدينة قسنطينة من ملح البارود المتوفر بالمغاور القريبة من المدينة.[1]

والملاحظ على هذا الوصف أنه يلتقي في نقاط تقاطع عدّة مع ما جاء من وصف في الرحلات السابقة حتى لكأننا به له سابق اطلاع على ما كتبه الرحالة قبله وفي أزمنة متفاوتة.

5- قسنطينة كما وصفها فندلتن شلوصر الألماني :

أبحر هذا الألماني إلى الجزائر من فرنسا في جويلية سنة 1813م وبقي في العاصمة بضعة أشهر إلى أن وقع مع عدد من رفاقه في أيدي المقاومة الجزائرية وبيع عدة مرات إلى أن استقر به المقام في مدينة قسنطية فعاش في قصر أحمد باي مملوكا من مماليكه ما يقرب من خمس سنوات.

عاد إلى بلاده بعد احتلال قسنطينة، وأصدر كتابه **قسنطينة أيام أحمد باي** (1832-1837م) سنة1839م الذي سمّاه في الأصل(رحلات في البرازيل والجزائر).

ذكر شلوصر في مقدمة كتابه أنه عاش في الجزائر كواحد من أبنائها ولذلك سيقدم صورة أمينة عن حياة سكانها وعن أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم.[2]

استهل شلوصر وصفه المدينة بالحديث عما **يسود ها من الأوساخ**-وهو وصف تؤكده الرحالة مدام دوفولير سنة 1931م ،كما سنرى لاحقا –مثلما أكّده رحالة غيرها، فهو يذكر أن قسنطينة في ذلك الوقت تستحق عن جدارة اسم (المزبلة) الذي أطلقه عليها العرب، فلم تكن الأوساخ قبل

---

* **انظر الملحق (26).**

[1] **- هيبوليت سانت، تقرير مارس 1832م، آرشيف وزارة الحرب الفرنسية، فانسان، باريس، ص 15-23.**

[2] **- فندلين شلوصر، قسنطينة أيام أحمد باي، ترجمة وتقديم أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977، ص7.**

مجيئنا تترك في الشوارع فحسب ، وإنما كانت جثث الحيوانات تلقى أيضا في أغلب الأحيان في الأزقة فتسبب روائح وَبيئَة (وكأني به يريد أن يبن فضل الأوروبي في هذا الجانب)[1]. ويتحدث عن **شهامة أهل** قسنطينة في الدفاع عن مدينتهم حديثا يغطي على سابقه ،«**...**إلا أن سكان المدينة كانوا من الطبقة الفقيرة لذلك كانوا متعصبين ومعادين للفرنسيين إلى حد كبير ، ولو بلغ عدد الجيش مليون رجل ، فإنهم كانوا سيبذلون أقصى جهدهم للحفاظ على المدينة ، وكانوا يفضّلون الموت على تسليم أنفسهم للفرنسيين ن وكانوا قد أقسموا في المساجد كلها بأنهم على استعداد لخنق نسائم وأطفالهم ثم البحث عن الموت في حراب الفرنسيين **.**»[2]

ينتقل الرحالة بعد ذلك إلى وصف **الموقع الصخري** الحصين للمدينة وكذا واديها الكبير، فيذكر أن قسنطينة كما يسمّيها التركي وقسُمْطينة كما يدعوها العربي تقع فوق صخور وعرة تحيط بثلاثة أرباعها، وفي سفحها يجري نهر بعرض 150قدما تقريبا وعمقه ثلاثة أقدام يسميه الأهالي الوادي الكبير، وهو يأتي من الجنوب الشرقي ويتصل على مسافة ربع ساعة من المدينة بوادي الرمل كما يسميه العرب ووادي البرميل كما يحلو للقبائل أن يُسمّوه والذي يتجه عند زاوية المدينة الجنوبية نحو الشرق ليمر بالجهة الجنوبية والشرقية والشمالية من المدينة بين صخور عظيمة ثم يأخذ طريقه في الشمال الغربي من المدينة**.**[3]

ويصف أبواب المدينة فيذكر أن لها أربعة أبواب هي **:**

-باب القنطرةويقع في الشرق،يؤدي إليه جسر حجري قوي يقوم فوف ثلاثة أقواس ، أما الأبواب الثلاثة الأخرى فتقع في الجنوب الغربي في صف واحد يبعد الواحد عن الآخر بحوالي عشرين خطوة ففي الناحية الغربية يقع **باب الرحبة** الذي أطلق عليه القسنطينيون منذ سنة1836م اسم الباب الجديد لما لحقه من تجديد **.باب الجابية** ويدخل الوادي منه ، ثم باب الوسط الذي هو **باب الوادي.**وطرق قسنطينة رديئة بسبب الرمال العميقة ، والمدينة محصنة بأربعة حصون وأعلى نقطة فيها هي القصبة ، وإذا دخل المرء المدينة من باب القنطرة فسيصل أولا على بعد ألف خطوة إلى رحبة قطرها ستون خطوة ، توجد عن يمينها وفوقها قليلا صخرة أقيم أقيم فوقها سنة 1836م حصن يحتوي على مدفعين،ومن هذه الرحبة يصعد الشارع نحو الشمال في اتجاه باب القصبة التي

---

[1] - **المصدر نفسه، ص34.**

[2] - **فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص56.**

[3] - **المصدر نفسه، ص73.**

تقع إلى الشرق منه بمسافة قصيرة ،وفي وسط هذا الشارع يقع سوق السلاح ويدعى سوق العصر أيضاعن يساره ثلاثة شوارع ، الأول يفضي إلى باب الماء فيؤدي أولا إلى سوق الغزل ،ثم إلى وسط الشارع والمدينة ويمر قرب دار الباي القديمة .والثاني يمر عبر الرحبة المذكورة إلى يسار سوق العصر ،ثم يتجه نحو باب الجابية . والثالث يمتد من الرحبة على امتداد سور المدينة نحو باب الجابية .

وينتشر بقسنطينة عدد من **الأسواق** أهمها :سوق الخبز، سوق القمح، سوق العسل، سوق السراجين (البرادعية) سوق الجلد. وإلى جانب سوق القمح مباشرة يوجد عدد من دكاكين الحدادين وحوانيت الأقمشة التي يملكها اليهود والعطارين المسلمين، وكذا عدد كبير من الحمّامات العامة والمقاهي. ومن أشهر شوارع مدينةقسنطينة شارع اليهود وفيه يسكن صائغو الذهب والفضة من اليهود، وهذا الشارع الممتد حتى باب القنطرة يحتوي على بيوت أثرياء اليهود.[1](المكان المعروف اليوم بالشارع)

وفي وصف يكشف مدى تباين وجهات نظر الرحالة الأجانب **يتحدث عن اليهود** فيذكر أنه في الأعياد الدينية للمدينة كالمولد النبوي الشريف، إذا مرّ يهودي أو يهودية أمام الاحتفالات فعليه أن ينـــزع حذاءه ويغني..وكان اليهود بصفة عامة محتقرين في قسنطينة، فكان اليهودي يعامل معاملة العبيد فإذا احتاج الباي إلى المال فإنه يطلبه من اليهود،وإذا كان لأحد عمل لا يليق به فإنه يأخذه ليهودي ليقوم به وإذا وصلت الرؤوس المقطوعة مثلا إل المدينة وأصابها التعفن لطول المسافة وشدة الحر فإن اليهود يُؤخذون من بيوقم ودكاكينهم ليطوفوا بها في المدينة ثم الرحبة...[2]

وشبيه بهذا الوصف ماجاء في وصفه لباب القصبة ، فالباب قديم تسنده أربعة أعمدة ويوجد فوقه ضلع وعظم متروع من ركبة إنسان وحتى وإن كان لا يعلم إن كان العظم حقيقة أم لا- كما ذكر-لأنهما كانا عاليين،

ويصف **قصر الباي** وصفا يكاد يكون مكرورا لدى الرحّالين الغربيين، **غير أن ماتفرّد** به أوكاد هو وصفه لحدائق القصر الثلاث المربعة ،المفصولة عن بعضها والتي تربط بينها طرق، وأقيمت حولها آبار محاطة بجدران لريّها ويحمل إليها الماء على البغال من خارج القصر بواسطة مجار مائية

---

[1] - فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص ص 73-74.

[2] - المصدر نفسه، ص 82.

وفي إحداها حوض قطره عشرة أقدام وهو مصنوع من قطعة من المرمر جلبت سنة1835م من تونس. ويحتوي الحوض على فوارة صغيرة .

ويحيط بالحدائق رصيف من المرمر يتراوح عرضه مابين 8-12قدما وله أعمدة مرمرية جميلة[1*] وفيه أبواب تؤدي من جميع الجهات إلى القصر..2

وفي حديث عن **المرأة القسنطينية** وما تلقاه من سوء معاملة -في ظل التقاليد والعادات المستمدة من الشريعة الإسلامية-، خاصة تلك المتزوجة التي تسير في طريق الغواية فإن النقاب يترع عن وجهها ويطاف بها في المدينة عدة مرات مرسلة الشعر ثم يلقى بها من فوق الصخور على ارتفاع ستمائة قدم، ومن حق أقاربها أن يجمعوا عظامها المكسورة ويدفنوها.

وشبيه بهذا الوصف ما أورده الرحالة الأمير **موسكاو بوكلير**الذي زار الشرق الجزائري سنة 1835م أي تزامنا مع تواجد شلوصر هناك. فقد لاحظ أن الشريعة الإسلامية تمنع المرأة من الظهور سافرة، وهذا المنع مطبق حرفيا في المدن دون الأرياف، فالمرأة الريفية كثيرا ما كانت تظهر أمامهم سافرة بدون أية خشية ...ثم يبدي اندهاشه عندما علم أن فتاة قريبة لشيخ الدوّار كانت خليلة لضابط فرنسي وجد طريقه لكسب ودّ أبيها لذلك كان كثيرا ما يقضي معها الليالي في ظلام الخيمة أوفي الغابة القريبة، وانتهت هذه العلاقة بمأساة لأن القبيلة علمت بالأمر، فحكم بالعقاب الشديد على الوالد (المأجور) ووضع السمّ للفتاة المسكينة، أما عاشقها فقد سجنه الجنرال عندما علم بالأمر[3].

وكذا الوصف الذي ذكره الأسير الرحالة **تيدنا** قبلهما أي بين سنتي 1766،1791م، فقد ذكر أن الباي وجد مسيحيا يشتغل في الطاحونة المجاورة للسرايامع امرأة في وقت لايجعل هناك مجالا للشك في أنه غير مذنب فلم يتمكن من إمساك غضبه وحكم عليه بالتعليق من رجليه في باب السجن وكذالك فعل بالمرأة ..[4]

ولئن كان هذا الكلام يعري حقيقة معاناة المرأة القسنطينية، فإن الحقيقة التي لا مراء فيها هي أن من النساء القسنطينيات من لعبت دورا أساسيا في شتى مناحي الحياة في الريف كانت أم في المدينة.

---

[1] - **فندلين شلوصر، المصدر السابق، ص ص75، 76.**

[2] - **.المصدر نفسه،ص83**

[3] - **أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص280.**

[4] - **احميدة أعميراوي، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر، دار الهدى، الجزائر، ط 3، 2003.**

فالمرأة الريفية كانت تقوم بمعظم الأعمال التي هي غالبا من أعمال الرجل كالحرث والسقي وكانت بالطبع تربي الأولاد وتقوم بأعمال المترل، ومن جهة أخرى كانت تشترك في الحروب. وإذا كانت المرأة المدنية على خلاف المرأة الريفية لا تخرج إلا محجّبة فإن ذلك لم يقلل من دورها الاجتماعي، فبيتها كان يضرب به المثل في النظافة حتى أن المرء ينتقل فيه حافيا، وكانت تعتني بتربية الأطفال حتى كان الطفل الحضري يضرب به المثل في النظافة والذوق والجمال. ولم تكن المرأة بعيدة عن الحياة السياسية خاصة أولئك اللاتي تزوجن من الزعماء وأصحاب القرار، فلقد تزوج أحمد القلي باي قسنطينة (1170 هـ-1756م من أسرة بوعكاز و تزوج الحاج أحمد باي من أسرة المقراني، وقد كانت زوجة حسن باشا وراء مقتل صالح باي[1].

ومن العادات والتقاليد السائدة في المجتمع القسنطيني والتي أعجب بها الرحالة أيما اعجاب طريقة **الفصل في الخصومات** بين المتخاصمين –وقد أشار إليها الشيخ الحسين الورثيلاني من قبل- فالصرامة الشرعية من أحمد باي تجعل القسنطيني يحترس ما أمكنه الاحتراس من أن ترفع قضيته إلى القضاء، فإذا وقعت معركة كلامية أو وقع عراك أو خصام، فإن أول القادمين يحاول الفصل في قضية المتنازعين وإعادة الأمور إلى نصاها ويخاطبهم عادة بقوله: هل أنتم يهود أومسيحيون حتى يتعذّر عليكم أن تتصالحوا فيما بينكم؟ ويكون جوابهم في العادة:لعنة الله على الكفّار ونحن مسلمون وإخوة..وبذلك ينتهي التراع. ويعلّق على هذا التصرف بقوله :«وهذه فضيلة نتمنى أن تعمل بها أوروبا المسيحية ..»[2].

وعن **المعتقدات الخرافية** المنتشرة بكثرة في المجتمع القسنطيني والتي ورد ذكر بعضها في الفصل الثاني من البحث في وصف الحسن بن الوزان والشيخ الحسين الورثيلاني، الاعتقاد في المرابطين والدراويش الذين يصنفهم صنفين: المسجديون الذين يعرفون القراءة والكتابة ويعلّمون الأطفال، والدراويش الذين ينطلقون في كل مكان وكل زمان وكيفما كانت الأحوال الجوية.

ويذكر شلوصر أن العوام يعتقدون أن لهم صلة بالله وأنهم لذلك أصحاب كرامات، فتستشيرهم النساء في أمر الإنجاب والزواج. وحين انتشر الوباء الأصفر بقسنطينة سنة1834م والذي أشار إليه صالح بن محمد العنتري[3] وأحمد باي في مذكراته[1]، توقّف الوباء بالصلاة في جميع المساجد، وحاول

---

[1] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1979، ج 1، ص 163.

[2] -أبو القاسم سعد الله المصدر السابق، ص83.

[3] - صالح العنتري، مجاعات قسنطينة، تحقيق وتقديم رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص

أصحاب الكرامات من هؤلاء الدراويش أن يقنعوا القسنطينيين بأن هذا الوباء ما هو في الحقيقة سوى حشد من المسيحيين الذين يطيرون في الجو بطريقة غير مرئية بقصد تسميم المدينة، ومع ما في هذا الزعم من غرابة فقد انطلى عليهم وصدّقوه وخرج (السذّج) في موكب رهيب يطوفون بالمدينة وبأيديهم عصي طويلة يلوّحون بها في اتجاه الكفار غير المرئيين، صائحين ،قائمين بحركات كالمجانين ..!! .

غير أن هذا الزعم مع ما فيه من غرابة قد يغدو حقيقة إذا كان قصد هؤلاء الدراويش وأصحاب الكرامات أن الوباء كان مقدمه مع الأجانب إلى المدينة إذ الثابت أن من عادة الأولياء الخلط بين السبب العلمي والسبب الغيبي .

وفي سخرية لاذعة يقول :« وكان أن خف الوباء حقيقة بعد أيام مما زاد في اعتقاد الناس في كراماتهم »[2]

وفي حديثه عن **العادات والتقاليد** يذكر المناسبات والأعياد الدينية فللمسلمين يوم مبارك في الأسبوع هو يوم الجمعة، ويسمونه (نهار الجمعة) غير أنه – كما يقول - لم يجد فرقا بينه وبين سائر الأيام، فالناس يذهبون كالعادة لأداء الصلاة ويمارسون أعمالهم وأما أشهر أعيادهم العيد الصغير الذي يسبقه شهر الصيام فبمجرد رؤية الهلال يعلن عن بداية الصيام بطلقة مدفع، ويبدأ الإمساك في الساعة الثالثة بعد صلاة الفجر، فينقطعون عن الأكل والشرب ولا يضعون الماء في أفواههم عند الغسل ولا يدخنون ولا يستعملون العطر وكثيرا ما يرفض المريض تناول الدواء، وإذا أرغم المرضى على الإفطار فإنهم يصومون الأيام في ما بعد، وفي الساعة السادسة مساء يعلن عن الإفطار بطلقة مدفع أيضا.

وتستطيع أن ترى بعد الخامسة أصنافا من الناس، فهذا رجل أمامه نارجيلة مشتعلة وآخر في يده علبة سجائر مفتوحة وثالث يمسك بقطعة خبز، وجلهم واقف في الشارع ينتظر طلقة المدفع وسماع المؤذن. وبعد شهر الصيام تعم الفرحة برؤية الهلال فيقبّلّ الحضر والفلاحون الأصدقاء منهم والغرباء بعضهم بعضا في الرأس أو في الكتف اليمنى ويتبادلون التهاني.

ص33-35.

[1] - أحمد باي، المذكرات، تعريب محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1971، ص99.

[2] - شلوصر، المصدر السابق، ص84.

أما الباي فيخرج صباح يوم العيد خارج المدينة لتقبل التهاني وليشهد سباق الخيل المنظم بالمناسبة في أجواء احتفالية بهيجة.

أما الأطفال فتقام لهم أراجيح وخيام يتناولون فيها عصير الليمون والبرتقال مجانا.

وبعد عيد الفطر الذي يدوم ثلاثة أيام يأتي عيد الأضحى أوالعيد الكبير، ويحتفل به بالطريقة نفسها غير أنه على كل رب أسرة أن يذبح لأسرته خروفا!

وفي العيدين يسمح للنساء بالنزهة فيجتمعن خارج المدينة متحجبات فلا يرى الأجنبي من المرأة غير عينها. وهذا أمر اعتيادي، فإذا أراد شاب أن يتزوج فإنه لا يستطيع أبدا أن يقيم علاقة شخصية مع فتاة لأنه لا يجد وسيلة إلى الدخول إلى بيت الأسرة، فإذا علم أن لهذا الرجل أو ذاك فتاة في سن الزواج فإنه يرسل يهودية إلى بيتها، فإذا قبلته فإنه يتوجه إلى أبيها ويتفق معه على المهر والذي يتراوح عادة بين 75 و100 ريالا ويقدم هذا المال للفتاة عن طريق أبيها لتشتري به ما تحتاج إليه من لباس وأثاث وتحمل كل ذلك إلى بيت العريس.

ويستمر وصف هذه المناسبة التي وصفتها الرحالة مدام دوفروليير**Mme Douvreleur** كما سنرى لاحقا **بأنها مظهر من مظاهر السعادة العربية الآتية من الشرق** والتي تكاد تكون مشهدا واحدا لدى جل الرحالة الأجانب..ففي المساء يأتي كل أقرباء العريس أمام بيت العروس وبأيديهم الفوانيس، وعندئذ تجلس وهي ترتدي رداء يلتمع بالذهب وتحمل فوق بغل إلى بيت زوجها..[1]

واللافت للانتباه في هذا الجانب من الوصف هو اتخاذ الشاب القسنطيني المرأة اليهودية رسولا بينه وبين الفتاة التي يرغب في الزواج منها والذي فيه دلالة واضحة على مدى الثقة وروح التعايش والتفاهم التي كانت بين الأهالي (العرب)واليهود الذين« رغم أنهم كانوا يعيشون في المدينة كأهل ذمة،لهم حدودهم الدينية والسياسية ،فإنهم من الوجهة الاجتماعية والاقتصادية كانوا يلعبون دورا هاما في المجتمع ...»[2] .

وتثبت الوثائق أن الجالية اليهودية كانت قوية في قسنطينة فقد ذكر الرحالة (نوا مردخاي) وهو من يهود أمريكا في كتابه (رحلات) أن عددهم في مدينة قسنطينة كان حوالي خمسة آلاف من مجموع ستين ألف نسمة.وكدليل على نفوذهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي ذكر أن الداي قد عين

---

[1] - **شلوصر، المصدر السابق، ص ص75-77.**

[2] -**أبو القاسم سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي ،ج1 ،ص 152**

إبراهيم بوشناق وزيرا له لدى بلاط فرنسا،وناثان بكري قنصلا له في مرسيليا وأخاه قنصلا له في ليفور نيا، كما كان الداي يستشيرهم في المسائل الخارجية...[3] وكان اليهود بقسنطينة يشتغلون ببعض الصنائع الدقيقة الثمينة كالخياطة والصياغة واختيار جودة الذهب والفضة.ويذكر(أراندا) أنهم كانوا ينصبون طاولات في الشوارع ويبدّلون العملة وأنهم كانوا يربحون من ذلك أموالا كبيرة...[4]

6-قسنطينة كما وصفتها لويس ريجيس Loouis Régis:

قامت هذه الرحالة المغامرة برحلة إلى الجزائرسنة 1880 واشتهرت بكتاباتها عن مدينة بسكرة التي نشرتها بمجلة العالمين **(Les deux mondes)** كما قامت برحلة إلى مدينة قسنطينة ولفت حولها كتابها **Constantine :Voyages et Séjours**

تستهل الرحالة وصفها للمدينة بمدخل يمهد للدخول إلى المدينة، فتذكر أنه للولوج إلى مدينة قسنطينة يجب قطع **جسر حديدي** عريض مدّ بأسلوب طريف على امتداد مسافة ثلاثمائة قدم فوق وادي الرمال، ويتصل هذا الجسر بباب يدعى باب القنطرة.

ويتخلل المدينة شارع فرنسي شق في وسط الشوارع التي كان العرب يسكنونها، وهي لم تأهل بالسكان بعد على حافة الطريق.

---

[3] - نوا مردخاي ،رحلات ،ص ،368منقول عن أبي القاسم سعد الله،المرجع السابق ،الصفحة نفسها .

[4] -أبو القاسم سعد الله ،المرجع السابق ص152

وبالأماكن الخالية تشاهد سكنات مغربية اسبانية لم يبق قائما منها إلا قلة قليلة، وأحيانا لا يرى إلا بقية من فناء مترل بقوسين أو ثلاثة تشدّ بناء الجدار، وفي بعض الأماكن تقف الأقواس كاملة دون نقصان وقد اتخذها الناس كمداخل.

وهناك درب عربي ضيق غير أن الحركة به لا تهدأ، وحتى تسهل حركة السير به لزم الأمر القيام بعمليات حفر بأجزاء من الحي ثم أقيم جدار وبجانبه مصعد حجري (des éscaliers) يمكّن من ربط هذا الجزء من المدينة بجزئها الأعلى، ولقدكان المنظر حقيقة جد رائعا[1].

وتصف أحد **مساجد المدينة** فتقول إنه عندما يرفع المرء عينيه إلى أعلى يقابله باب دائري الشكل لمسجد صغير ذي جدران بيضاء تطاول عنان السماء الأزرق زاحفة بشكلها المبتكر ومنظرها المتناسق على المنازل الفرنسية القبيحة المنظر التي تحيط بالشارع، وأما المنازل الأوروبية ذات الكوى المتعددة فلا يمكن بحال من الأحوال أن يصمد أصحابها أمام قساوة الطقس إذكان عليهم قبل المجيء إلى هذه الديار أن يتعودوا على هذه الحياة.

وفي وصف يُستشف منه نفس الأسف من جهة والإعجاب من جهة ثانية تقول إن مدينة قسنطينة وللوهلة الأولى تتجاوز كل تصور كان متوقعا، ذلك أن كل يوم جديد فيها تقدّم للأجنبي أشياء جديدة حّية، غير أن المرء يُصدم عندما يرى هذه المدينة العربية الجميلة بكل ما فيها من جمال عربي آخذة في التلاشي رغم كونها ويا للأسف تابعة لفرنسا منذ1837م.

وعن شق شارع العربي بن مهيدي (الحالي) عبر المدينة، تذكر الرحالة أنه كان لزاما على السلطات الفرنسية أن تهدّم عددا من منازل العائلات الكبرى من الأهالي مما حرمهم بالتالي من حماية الإدارة العسكرية والمدنية.[2]

وعن **السكان الأجانب** أو (البرّانية) كما ورد في الرحلة السابقة تقول: إن شيوخ الجنوب يأتون إلى مدينة قسنطينة صيفا عند اشتداد حر الصحراء فيقضون بها كعادتهم شهرا أوشهرين يجرون خلال ذلك اتصالات مع الفرنسيين. وتتحدث الرحالة عن موقع المدينة بين واديين كبيرين بينهما برزخ، ولقد كانت قديما ضيقة أما اليوم فهي أكثر اتساعا.

---

[1] - Louis ,Régis. Constantine. Voyages et séjours, libraire nouvelle, Paris,1880, p 09.

[2] - Louis ,Régis Op.Cit، p ,10.

ترتبط المدينة بالجبل المسمى **كدية عاتي** ومن هذا الموقع تم الهجوم على المدينة في الحصار الثاني من قبل فرنسا، وفي الجهة الغربية تمتد سهول الحامة الجميلة المتصلة بسلسلة جرجرة الجبلية والتي غرست منذ عهد البايات وأقام العرب بها مساكنهم وانشأواحدائقهم التي تنتج لهم البرتقال والرمان والتين والزيتون وهي لا تزال بأيدي العائلات الكبيرة، ومن الجهة الشرقية بطحاء الرمال تتجه نحو الجنوب مشكّلة منحنى.

تجولت الرحالة **بالحامّة** طويلا، وكم كانت سعادتها غامرة وهي تتأمل من هناك منحدرات قسنطينة الصخرية، لقد كان النظر إليها جليا لا يحول دونه حائل، **إنه من العدل الاعتراف بأنه في هذا البلد العجيب كل خطوة تخطوهاتوفر شيئا جديدا ممتعا يشفي فضول الرحالة الأجنبي**[1].

وفي وصف ينم عن دقة ملاحظة ونظر ثاقب لم نعهدهما عند غيرها من الرحالة تقدم (ريجيس) لوحة رائعة **لسهول الحامة.**.ففي أول منعرج تصادفك عين ماء تجري مياهها عذبة صافية دون توقف فتملأ حوضا بني من الحجارة، وحول هذا الحوض تجمع عدد من الخيول والحمير والبغال والجمال، والكل ينتظر دوره، وهذه الأخيرة (الجمال) تجمّعت وحُداها في منظر شاعري بديع، والبعض الآخر يتدافع لأجل أن يتقدم بسرعة إلى الحوض ..إنه منظر بديع يشدّ الأرض بالسماء في لوحة جميلة مكتملة..

وعلى مسافة خطوات من الحوض يبدو خان تتجمع فيه القوافل، إنه ولا ريب نقطة تجمع للعرب. محاط بحجرات تفتح جميعها على فناء مربع الشكل، ومن الباب الخارجي يمكن للمرء مشاهدة انشغالات كل فرد من سكان المنطقة...فهذا طفل صغير يحضّر الكسكسي..وذاك عربي بلـــبا س رثٍّ يحمل في كيس جلود ماعز جاء بها من الجبل ليبيعها لصنّا ع الجلود بقسنطينة..وآخرون حُداة إبل جاؤوا ومعهم أكياس من التمر والصوف والكباش التي يملكها أسيادهم(مشغّلوهم) ليدفعوها إلى تجار المدينة. إنهم ينتظرون وهم يغالبون النعاس حتى يحين دورهم ويؤدوا ماعليهم ثم يعودوا من حيث جاؤوا.

وقريبا من المكان، على حافة الطريق توجد إقامة يسكنها رجل جد تقليدي يصنع بوسائل بسيطة صفائح حديدية لأرجل الخيول والبغال، لقد كان يعمل ومجموعة من القطط تحيط به..إنه يدرك جيدا أنها مباركة، لقد كان الرسول (صلعم) يعطف عليها ويمسح على أظهرها بيده المباركة..

---

[1] - **Louis ,Régis ibid,p44**

وهناك بستان يخترقه الطريق مغروس كله بشجر اللوز، فاللوز هو الفكهة الحقيقية بمدينة قسنطينة، والبستان يقع تفريبا عند سفح المرتفع الصخري الكبير لمدينة قسنطينة الذي يمتد بأعلاه جدار يشكل مايشبه سورا يحمي الشارع الشمالي للمدينة. وعلى امتداد هذا الشارع يصطف عدد من منازل الفرنسيين والمستشفى العسكري والقصبة.[1]

ومن المناظر التي شدت انتباه الرحالة جامع قسنطينة الكبير المسمّى **مسجد صالح باي** وهو المخصص لسيدي الكتاني المستوجب الزيارة. يقع هذا الجامع في المكان المسمى اليوم ساحة قصر العدالة، وكانت تسمى من قبل رحبة الجمال حيث كان يقام كل صباح البيع بالمزاد للأشياء والألبسة المستعملة. وكان العرب والفرنسيون يقصدونها إما لاقتناء بعض الأغراض أوالتفرج على الازدحام خاصة من قبل اليهود الذين كانوا يمرّون مسرعين يتنادون بأصوات عالية.

وبالقرب من الرحبة يوجد عدد من حوانيت باعة المجوهرات، وهي حوانيت ضيقة لا تتجاوز مساحة الواحد منها تسعة أقدام مربعة..وفي مشاهد تنم عن روح التسامح والتعايش السلمي بين(العرب) واليهود تشير إلى أن هناك إسرائيليين بألبسة تكاد تكون عربية لولا أنها من دون برنس يقومون بصناعة الحلي الجميلة من الذهب أو الفضة ليقدّمها كل مقبل على الزواج لمخطوبته، وسلاسل ترتديها النسوة وتتركنها تتدلى على صدورهنّ وأقراط تحمل لهن فأل الخير.

ولأول وهلة وقفتْ فيها أمام مسجد صالح باي الذي قادها ومن معها إليه المؤذن-وهو مظهر آخر من مظاهر التسامح- انبهرت بنظافته الزائدة على الحد كما سحرت ببرودته التي تخفف من حرارة الجو في الخارج ..

ثم تتطرق إلى كل جزئية تتعلق **بالمسجد** كبيرة كانت أم صغيرة وكأني بها تنظر بعيني فنان، فهذه شجرة بر تقال وارفة الظلال، مثمرة تتوسط ساحته وتظلله بأكمله..وهذه جدران موشّاة بزخارف بديعة بيضاء وزرقاء ..وهذا سلّم درجاته العريضة من الرخام ..إن كل مافيه جميل ..الهدوء..السكينة..البرودة..الحُصُر التي كنا نمشي عليها ..الزليج الذي يغطي الجدران، كل هذه البيئة العطرة سحرتها حقيقة وجعلتها ترغب في الإقامة بهذه الأرجاء.

---

[1] - **Louis ,Régis ;opcit,p ,45.**

وفتح لنا المؤذن قاعة الصلاة، التي تكسو أرضيتها زربيتان كبيرتان.. إنهما الفن بعينه. ولقد استوردت وسائل تزيينه من إيطاليا وافريقيا بأمر من الباي العثماني الأخير. وخلاصة القول إنه لا شيء يجذب ويسحر أكثر من داخل المسجد بالجزائر.

« Rien n'est plus édifiant que l'intérieur d'une mosquée en Algérie»[1]

ومن الحديث عن المساجد تنتقل الرحالة إلى الحديث عن **المقابر الإسلامية العربية** وما يسودها من أجواء روحانية فبعد أن تعترف بأن المقابر العربية ليست كالغربية وذلك لتميزها وهيبتها وجو الرهبة والخشوع فيها و لمافيها من خيال وهيام في عوالم الذكريات مع أصحاب القبور، فهناك يهيم البصر في لوحة طبيعية بديعة تحيي الفكر وتبعثه من خموله. تصف مقبرة قسنطينة التي دخلتها ومن معها من باب **(لابريش)** عبر **السكوار** سالكين شارعًا جديداً يؤدي إلى المرتفع المقابل المسمى كدية عاتي أين يوجد بقمته سجن وتمثال أقيم بمناسبة الاستيلاء على المدينة سنة 1837م.

ولا يوجد بالمقبرة المكشوفة لأشعة الشمس طول النهار غير شجرة زرعها الفرنسيون، وأما القبور فهي مغطاة بالآجر على شكل مربعات على امتداد الضريح وبعضها الآخر مغطى بالرخام الأبيض والأزرق، ومدينة الأموات الكئيبة هذه (تعني المقبرة) تشغل فضاءً يمتد من كدية عاتي حتى بداية المقبرة الفرنسية.

وعن **المرأة القسنطينية** التي كثيرا ما ألهمت الأدباء والشعراء من الرحالين الأجانب تذكر الرحالة أنه وكشأن نساء كل مناطق الجزائر يوجد بين نساء مدينة قسنطينة من يمتلكن ذوقاً رفيعاً، في الهندام والزينة ويعرفن بإتقان فنّ التناسق بين الألوان وملاءمتها لأيام الأعياد والأفراح، وتضيف أن نساء مدينة قسنطينة فنانات بأتم معنى الكلمة في استعمالهن الملاءة وهو عبارة عن قطعة من القماش طولها خمسة أمتار وعرضها متر واحد ونوعيته ترجع إلى مدى مقدرة المرأة التي تستعمله، فالنساء ذوات المرتبة العالية يستعملن الأبيض اللون واللواتي هنّ من عامة الناس يستعملن الأزرق، في حين تقنع الفقيرات منهن بلبس الحايك القطني. أما الثّريات فيرتدين المصنوع من الحرير.

تسدل الملاءة على جبين المرأة والطرف الآخر منه يشد خلف الأذنين والطرفان المتدليان على الأرض مشدودان إلى الرأس بحركة فنية متعرجة بحيث تشكل ما يشبه العمامة.

---

[1] - **Louis, Régis. Op-cit, pp46 ،-51.**

وبذلك تبدو المرأة كأنما هي ملفوفة في شرنقة، وعلى وجهها يسدل نقاب من الموسلين السميك مربوط خلف الرأس و الجفنين الأسفلين من العينين بحيث يترك فجوة غير مرئية تنظر من خلالها وبأيديهن يمسكن أطراف الحايك إلى الأمام، مما يحول دون ظهور ولو القليل من لباسهن.

والزوج العربي يحب هذا من المرأة بل ويعجبه منها ما تضعه على صدرها من حلقات معطرة تسميها العامة من الناس (السخاب) الذي يتخذ في أحيان كثيرة كتميمة تحميها من الأذى والعين لذلك كان الناس كثيرا ما يرددون عبارة (ما شاء الله!) كما يعجب الرجال تعطر النساء لهم بما يضعن في شعرهن من زيوت معطرة بالورود والياسمين.

7-قسنطينة كما وصفها الأديب الشاعر جي دو موباسان :«Guy de Maupassant»

زار هذا الأديب الفرنسي الرحالة مدينة قسنطينة وسجّل مشاهداته بهاسنة 1890 م في كتابه : «**Au Soleil**»،ولقد استهل وصفه الشاعري الأسلوب للمدينة بالحديث عن **موقعها** الصخري وهي بين أحضان **وادي الرمال** حارسها الغيور:«هذه قسنطينة المدينة الظاهرة، قسنطينة الغريبة، فكما الثعبان* الحارس يجلس تحت قدميها وادي الرمال الخارق، نهر جهنم الذي يصب في أعماق هوّة حمراء، وكأن اللهب الخالد أحرقه إنه يجعل من المدينة جزيرة. هذا النهر الغيور والمدهش يحيطها بهوة مرعبة وملتوية بصخورها اللاّمعة، والغريبة..بأسوارها المستقيمة والمسننة. تهيمن المدينة على أودية رائعة مليئة بالآثار الرومانية ذات الأقواس العملاقة مليئة هي الأخرى بالنباتات الرائعة..ثم توجه بدعوة صريحة إلى إحياء تراث الرومان - أجداده الأولين- و بعث أمجاده **الغربان المحلقة** في أجواء قسنطينة ذارقة على رؤوس الناس، **فقسنطينة** كما بدت له واقفة على صخرها محروسة بواديها مثل ملكة). مثلٌ قديم يدعو سكانها إلى تمجيدها :« احموا ذاكرة أجدادكم الذين شيدوا مدينتكم على هامة الصخر أمر اعتيادي أن تذرق* الغربان على الناس إنما غير الاعتيادي أن يذرق الناس على الغربان »[1].

ينتقل بعد ذلك للحديث عن **الشوارع الشعبية بقسنطينة** فيذكر أنها كانت مضطربة جداً أكثر من شوارع الجزائر العاصمة، تعجّ بالحياة، يمر عليها دون انقطاع أجناس مختلفة من المارّة، عرب، قبائليون، بساكرة، مزابيون، سود، مغاربة بطرابيش حمر، وأتراك وقضاة جدّيون وجنود في بزّاتهم

*** - سبقه إلى وصف الوادي بالثعبان الرحالة ابن الحاج النميري ، ارجع إلى وصف قسنطينة في رحلة ابن الحاج النميري**

*** - ذرق يذرق الطير:إذا ألقى بفضلاته ،**

[1] - Guy de Maupassant, Au soleil , numerisationet mise enformeHTML(11/08/1998 , PP ,1- 4

البرّاقة.-وهو وصف يؤكد ولا ريب الوصف الذي قدمه سانت هيبوليت من قبل- والباعة يسوقون أحمرة و أجحشة من افريقيا أشبه ما تكون بالكلاب، وخيول وجمال ضخمة تسير بخطى متثاقلة.

ثم يتحدث عن المرأة في مدينة قسنطينة ولعل أهم ما لفت انتباهه من النساء المرأة اليهودية إذ يصفها وصفا دقيقا ينم عن مدى تذوقه الجمال الأنثوي أوليس هو المعروف **بمفتون فلوبير؟** فهو يقول :تحية إلى اليهوديات ،إنهن هنا (يعني في مدينة قسنطينة) بجمال نادر.. جميلات غير أنهن صارمات .. أنهن تعبرن ملتفّات في قماش لامع لا مثيل له، اخترنه اختيار عالم بالأذواق أو بفن اللباس المؤثر الجذاب. ليجعلنه أكثر جمالا .

كن يمشين والأذرع عاريات حتى الأكتاف يعرضنها إلى أشعة الشمس، وأوجههن الهادئة ذات الحواجب الصافية المستقيمة، وكأني بأشعة الشمس تضعف خجلا أمام هذا الجمال على أن تؤدي بشرتهن الغضة الطرية. غير أن سرّ بشاشة مدينة قسنطينة هو هذا الشعب الجميل، بفتياته الصغيرات، الصغيرات جدًا و المتزينات كأنهن في استعداد لحفل من حفلات عروض الأزياء.كنّ يرتدين فساتين جرجارة من الحرير الأزرق أو الأحمر وعلى رؤوسهن خمر ذهبية أو فضية الألوان، ولهن حواجب مصبوغة منتصبة كالأقواس فوق الأعين، وأظافر أيديهن مصبوغة أيضا وخدودهن وجباههن تحمل في كثير من الأحيان وشم نجمة، والنظرة الحادّة تجذب الناظر وتستفزه.

وينتقل إلى الحديث عن معلم كبير من معالم قسنطينة ألا **وهو قصر الباي أحمد** وهو واحد من أكمل نماذج فن العمارة العربية كما يشهد بذلك كل الرحالة الذين رأوه وشّبهوه بمساكن ألف ليلة وليلة.*

لا شيء ألفت للانتباه من الحدائق الغناء بداخله والتي تعطيه طابعا شرقيا جميلا ...

وفي لفتة فرنسية فيها مرة أخرى تمجيد للحضارة الرومانية الأم –كما يزعمون-يشير إلى بربرية الأتراك فيقول:«لا بد من كتاب مجلد ذي أجزاء للحديث عن بربريةواختلاسات وفضائح ذلك الذي بنى القصر (وهو يعني أحمد باي دون شك) بمواد بناء ثمينة مأخوذة خلسة من المساكن الفاخرة في المدينة وضواحيها...»[1]

---

* **انظر الملحق (27)**

[1] - **Guy de Maupassant. Op.Cit، pp 1,4**

وعن أحياء مدينة قسنطينة وشوارعها يذكر أن الحي العربي بقسنطينة يتربع على نصف مساحة المدينة تقريبا والشوارع المنحدرة في تعقد والتواء أضيق من تلك التي رآها في الجزائر العاصمة تتجه كلها إلى حافة الهاوية حيث يجري وادي الرمال.«الوادي المدهش، الغيور على مدينته، الذي يحيطها بلجّه المرعب الملتوي بين الحجارة اللمّاعة العجيبة» وإلى جانب السور الأيمن للمدينة تنتشر أودية جذّابة مليئة بالنباتات والآثار الرومانية ذات الأقواس العملاقة، تحيط بها مرتفعات المنصورة وسيدي مسيد.

وعن الجسور يذكربشيء من الأسف أن المدينة كان بها ثمانية جسور واليوم ستة منها في عداد الأطلال، وواحدة من أصل روماني تعطينا فكرة عما حدث للآثار الرومانية.

أما **وادي الرمال** فهو يختفي عن الأنظار من حين لآخر تحت أقواس طبيعية ضخمة حفرها، وفوق أحد هذه الأقواس أقيم بناء الجسر .

والقبّة الطبيعية التي يمر تحتها ماء الوادي ترتفع بعلو واحد وأربعين مترا وسمكها ثمانية عشر مترا، وأساسات البناء الروماني على ارتفاع تسعة وخمسين مترا فوق الماء.

ولقد كان للجسر طابقان وصفّان من الأقواس نصبت بإحكام فوق القوس العظمى الطبيعية.

واليوم نجد جسرا حديديا بقوس واحدة يسمح بالدخول إلى المدينة (وهو يقصد جسر القنطرة دون ريب)[1]

وحديثه عن قناطر قسنطينة شبيه بما أورده مؤرخ قسنطينة –الحاج أحمد بن المبارك في كتابه تاريخ قسنطينة –وقد سبقت الإشارة إليه إذ يذكر : «وكان بها سبع قناطر على البلد وواحدة انهدمت واندثرت إلى زمان صالح باي جدد بناء القنطرة الموجودة اليوم، واختلفت الآراء في سبب هدم ا لقنطرة ،قيل انهدمت بسبب طول الزمان واستيلاء الخراب على المدينة وقيل بل هدمها البربر في زمان كاهنة البرابر...»[1].

8-قسنطينة كما وصفتها مدام دوفروليير Mme Douvreleur:

[1]- Guy de Maupassa ،ibid, pp1-4 -

1- - أحمد بن المبارك، تاريخ قسنطينة المرجع السابق، ص35

زارت هذه الرحالة مدينة قسنطينة سنة1931 م ووصفت كل ما لفت انتباهها من جسور ومساجد وقصور وبناءات وأسواق وعادات وتقاليد...وجمعت كل مشاهداتها في كتابها (قسنطينة في 25 لوحة)Constantine en 25 tableaux:.

في بداية حديثها أعلنت **مدام دوفرولير** أنها ستتحدث عن الجسور أوّلا ذلك أن أول ما يلفت انتباه الرحالة الذين يحطّون الرحال بمدينة قسنطينة ، هذه الجسور الثلاثة ، الرئيسية إذا لم نأخذ بعين الاعتبار الثانوية منها أو الصغيرة التي أنشأتها العائلات .وأكبر هذه الجسور القنطرة ذات الماضي البعيد والمجد التليد والتي بنيت أو ربما أعيد ترميمها فأعيد لها شئ من قداستها أيام كانت مملكة لأنطونيو لوبيوAntonio le pieux الروماني في أواسط القرن الثاني الميلادي، وهذا ما يؤكده لوح كتبت عليه العبارة ((Hadriani Filio وجدأثناء الحفريات وفيها ما يدل على أن جسر القنطرة ليس حديث العهد ، فهو لم يصل إلى هذا العمر إلا بعد أن مرّ بعدّة محطات ضعف[2] وثاني جسر ركّزت عليه الرحالة هو جسر سيدي راشد وترى أنه حديث العهد ليس له ماض تليد، ولقد حاولت عبثا معرفة بانيه الأول – من أجدادها- فلم تفلح .

أقيم جسر سيدي راشد عند أقدام الحديقة

العامة الفسيحة وألحق بمكان شاسع محبوب للناس قبل التحسينات التي مست هذا الجانب من المدينة .هناك تجد مروضي الثعابين ،وباعة الخردوات ،وباعة الحلويات وتحيط بهم أكداس البطيخ والذرة المشوية والفلفل الحلو.

وهناك باب الجابية الذي يتخذ مدخلا جانبيا إلى المدينة .ويمضي جسر سيدي راشد مترنّحا بحركة عريضة مغطيا جزءً كبيراً من المدينة العربية، وبعد أن كان غادرها ليتجاوز وادي الرمال يلتفت إليها ثانية كأنما يلقي نظرة أخيرة على المنازل الصغيرة كاللعب شديدة البياض والزرقة أحيانا والمنتشرة على امتداد ضفة الوادي[1].

ومن جهة **باردو** أو **طريق سطيف** لا يبدو سوى هذا الجسر القسنطيني الذي يستوقف المتأمل بمنظره الجميل المتكامل الذي لا يضاهى وانحناءته المتناغمة التي يشكلها والذي يبقى دوما سرا من أسرار الإنجذاب إلى هذه المدينة ...

---

2 -Mme Douvreleur , Constantine en 25 tableaux Editionde la jeunne académie Paris 1931.p37
[1]- -Mme Douvreleur Op.cit ,p 41

أما **مساجد قسنطينة** فلم تولها كبير اهتمام فهي وخلافا لغيرها من الرحالة الأجانب تذكر أنها لم تزر كل المساجد وذلك لكونها عديدة من جهة ومن جهة ثانية لكونها لا تعني شيئا كبيرا للرحالة الأجنبي- حسب زعمها-ومن جهة أخرى لأنها تشعر دائما بأنها مضايقة في مثل هذه الأمكنة« **بدين ليس هو ديني، شعور غريب ومعقد هذا لم أجد له مبررا إلى الآن ولا تعليلا ».**

كثير من الرحالة أمثالي زاروا البلاد الإسلامية أحسوا الإحساس نفسه وأخبروني بذلك.

لنبدأ بالحديث **عن المسجد الكبير–الجامع الكبير**-بمئذنته وواجهته اللتين بنيتا من قبلنا عندما تطلب شق الطريق الوطني مضاعفة البناءات كان الجامع الكبير المسجد الأول الذي عرفت ثم شاهدت بعده عددا آخر من المساجد وكان بذلك أول اتصال لي مع الإسلام خلف لي ذكرى لا تمحي.

لقد بدا لي هذا الجامع رائعا وفي الحقيقة ما هو إلا بناء عادي من حيث هندسته وثراء معماره، إنما المدهش أن ترى عددا من الفرنسيين وبأرجلهم خفاف يسيرون بخطوات زلقة بجانب جدار الجامع الملبّس بزخرفة جبسية أنيقة على زرابي عربية جميلة تجمعت فوقها (أشكال بيضاء !)- تعني المصلين!! –صاعدة، هابطة، راكعة، ساجدة وفق تعاليم قرآنية.

وباحة الجامع الكبير مربعة الشكل مشدودة من جهاتها الخمس بسبعة وأربعين عموداً والراجح أن الذي شيد البناء أحد رجلين :إما هاوٍ يعشق الاختلاف وإما رجل لا مبالٍ بما يفعل وإلا بما نفسر عدم وجود شبه ولو بين عمودين من الأعمدة السبعة والأربعين ؟.

أما مسجد سيدي الكتاني فقد بناه صالح باي الذي كان يعمل لصالحه دون شك لأنه دفن بالمدرسة التابعة لهذا الجامع بعد أن شنق بالقصبة بأمر من حسن باي .

لقد كان صالح باي حاكما كبيرا يتقن أعماله ،غير أنني لا أدري ما الخدمة التي قدمها له سيدي الكتاني وأي خدمة استحق بها أن ينال شرف تسمية الجامع باسمه؟

لقد سخّر صالح باي وسائل خاصة لبناء الجامع أتى بها من ايطاليا مع بنائين ذوي خبرة.

تدخل إلى المسجد من باب كبيرة مخرّمة، ثم تصعد سلّما من الرخام درجاته بيضاء وسوداء حتى تصل إلى الباحة المحاطة بالأقواس والمفروشة بالرخام الأبيض، وعبر هذه الباحة تعبر إلى المصلَّى المسقّف بقبتين من الخشب الأحمر و الأخضر بهما ثريتان من الكريستال تضيئانهما.ولقد كانت الأعمدة من الرخام.وأما الجدران فكانت مغطاة بخزف رائع، وأرضية القاعة مكسوة بزرابي غاية

في الجمال. ولقد طلبتُ من رفيقات شجاعات كنّ معي الصعود إلى أعلى منارة المسجد إذ من هناك يمكنهن التقاط منظر عام لمدينة قسنطينة.

وعند وصفها المدينة العربية (المنطقة التي يسكنها عرب قسنطينة) تذكر الرحالة أنها الأجمل من نوعها، إنها جميلة بأحيائها الشعبية، وتضيف: أنا لا أريد أن أغضب أحدا، إنها جميلة لأنها كذلك حقيقة.. لأنها تبدو كما هي طبيعية –وسخة شيئا ما- ولا يعنيها مطلقا هاجس اجتذاب السواح أو أن تزعجهم. وهذا الوصف يخالف ولا ريب ما ذكر الرحالة **Devoisins** قبلها حول ماتميزت به المدينة من نظافة لفتت انتباه الرحالين الفرنسيين على الخصوص، فهو يقول:« إن نظافة كبيرة كانت تميز المنازل والشوارع، وقسنطينة مثل المدن الإسلامية تحمل طابعا معماريا مميزا، ولونا محليا خاصا لا تستطيع المدن الأوروبية أن تضاهيه»[1].

ثم تتوجه الرحالة إل زوار قسنطينة بندا فيه إلى جانب السخرية من (العرب) تنبيه مما قد يصادفهم من مصاعب أثناء تجوالهم في متاهات المدينة وكأني بها تلمّح إلى تقصير فرنسا: أيها الرحالة يا من لا تعرفون إلى الآن أن ليس لفرنسا ضرورة بقائها بالجزائر، تعالوا سأقودكم في متاهات هذه المنطقة التي لن تستطيعوا الخروج منها من دون مساعدة، ثم لا يجب أن تُصدموا نهائيا لأنكم ستشعرون بشيء من الخوف إذا كنتم لوحدكم.

أعلم أنكم شجعان وأنه لا يُخشى عليكم غير أنكم تشعرون بأنكم في حاجة إلى الذود عن أنفسكم لمّا تجدون أنفسكم أمام كل هذه البرانس والعمامات، ستشعرون ب.....لا، لاداعي لتوظيف هذه الكلمة الجارحة جداً.....سترون.[2]

وتغادر الطريق الوطني وتسلك زقاقا، هناك تعود إلى الوصف: هذه الحوانيت الشعبية التي بدت بالظهور، أقدم لكم صديقي (بوسنان)إنه مزابي يبيع وبأسعار مرتفعة أكثر مما تريدون، زرابي ،نحاس ،جلود وحلي تارقية،وكل الأشياء الجميلة.. وبين قوسين أذكر أن هؤلاء المزابيين متميزون، إنهم سمان، سريعو الحركة، ملتحون، مبتسمون دائما، لست أدري من زعم بأنهم بفضل تشبثهم بتجارتهم وتنوعها كانوا أشبه بتجار منطقة أوفيرنا Auvergnat الفرنسية.

---

[1] - **Devoisins, Memoire de la compagne de Constantine ,Paris ,1903 ,p ,72**

[2] **-Mme Douvreleur , Constantine en 25 tableaux Editionde la jeunne académie Paris 1931-,p,68**

وتلتفت إلى الرحالة الذين لديهم رغبة في زيارة قسنطينة موجهة توجيه الخبير بأسرار المدينة وأهلها: إنّ التجّار سيعيرونكم كل لاهتمام ،لا يجب أن تكترثوا بالمظهر الخارجي لمعظم الحوانيت التي أسميّها من باب التندّر **مغازات!!** إنها حوانيت صغيرة من الخشب اللين تعطى للبنات الصغيرات طوال أيام السنة لتصريف السلع .إن هؤلاء الصغيرات تبدو عليهن علائم السذاجة والغباء ،إلا أنهن لسن كذلك ..إنهن لسن فقيرات إلاّمن حيث مظهرهن..

وأما التجار الكبار(لعلها تعني المزابيين) فبمجرد أن يشعر الواحد منهم أنك أجنبي ،وأنك زبون جاد ،يبادر إلى بسط كل أقمشته وكل الأدراج، وكم تكون دهشتك عظيمة عندما ترى السلع تخرج لا تدري من أين بالتحديد، من الجدران ..من السقف ..من الزوايا، كل ذلك من أجل اجتذابك.

وفي وصف شاعري الصور تنتقل الرحالة إلى الحديث عن **وادي الرمال** حديث فيه الكثير من الإعجاب بهذه التحفة الطبيعية التي حبا الله بها مدينة قسنطينة فهي ترى أن قسنطينة تتميز بجوهرتين لا تضارعان هما الصخر العتيق والوادي الذي يطوقه والذي أنشئ بفضل عمل الرمال الدؤوب والذي تطلب منه قرونا من الجهد المتواصل .

إنها تخالف غيرها من الرحالة الذين حطّوا الرحال بقسنطينة عبر العصور فتعطيه اسما أو وصفا لم نألفه عندهم، **فهو فنان ولد صغيرا ثم ما فتئ أن أصبح كبيرا.**

لقد كان هذا الفنان صغيرا.. عبارة عن واد صغير..بسيط، وبطيء نزل من مرتفعات قسنطينة ثم تقدم في مسيره في بطحاء محاطة بالدفلى حتى وصل شاطودان (شلغوم العيد حاليا) ثم يبدأ: وبالبطحاء تُخزَّن المياه ثم تسير عبر تعرجات عجيبة ثم تصبح عبارة عن حوض بحيري.

وبأسفل هذه المنخفضات ينطلق بكل حرية، وكأنما يجمع كل قواه ليغامر صوب المجهول، ويأخذ في الضيق ويبتلعه المجرى على عمق 250 مترا ثم يختفي تحت الأنفاق الأرضية العجيبة.

أحيانا وفي موسم الأمطار والثلوج لا يبقى الرمال واديا صغيرا هادئا ويضيق به مجراه حول صخر قسنطينة إلى سدّ، وتتجمع المياه في منخفض باردو وترتفع إلى أن تتجاوز علو سر الشيطان الموجود هناك* ويمضي الوادي في جريانه عبر الصخور التي تفصله على سهل الحامّة وذلك في وثبة...وثبة عجيبة.

---

* **انظر الملحق (28)**

إن المشهد ساحر وعجيب ولعل هذا هو السبب الذي جعل سكان قسنطينة من باب الإعظام والإجلال يسمّونه (الوادي الكبير)[1].

ومثلما حدثنا مالتسن عن حفلة زفاف يهودية، نختتم مشاهدات هذه الرحالةبوصفها لحفل زفاف عربي قسنطيني لنرى أوجه التشابه والاختلاف بينهما، فهي تذكر أن للأوروبيين حول هذه المناسبة العربية تصوراتٍ عذبة كتلك التي يجدونها في حكايات ألف ليلة وليلة حيث نقر الدفوف ولبس الشفوف والليالي الملاح والكلام المباح، والبخور والعطور وما إلى ذلك من بذخ ولهو.ففي فناء تقليدي مغربي ذي جدران ملبسة بزليج جميل وأعمدة رخامية تتوسطه نافورة تصدح بأنغامها المائية،تجمع أهل العروس وصديقاتها ،إنهاملكة يومها..تبدو وهي في أثوابها الجميلة أشبه بصورة[1].

وتأسف الرحالة على عدم الحضور لمقدم العروس غير أنها أشبعت فضولها بما وصف لها، لقد مر موكب العروس تحت نوافذ إقامتها يتقدمه عدد من الأطفال يرتدون ألبسة مميزة وكأنهم إشارات تنبه إلى مقدم العروس.

وفعلا تصل العروس على ظهر حمار وهي تحت خدرها عبارة عن جسم أبيض هزيل يهتز على وقع خطى الحمار الذي أمسك بزمامه شيخ وقور أبيض اللحية والثياب، وعلى جانبي العروس وخلفها جماعة من الشباب تعزف الأنغام على آلة المزود أوالزرنة، ونساء مختمرات يرقصن على هذه الأنغام.كل هذا المشهد الاحتفالي الذي يمر أمام ناظريك في تتابع متثاقل، ماهو في الحقيقة سوى مظهر من مظاهر السعادة العربية الآتية من الشرق...

وما نخلص إليه من كل هذه النصوص الرحلية الغربية هو ما تميزت به مشاهدات هؤلاء الرحالة من خصوصيات أهمها :

1- إهمال معظم أصحابها الحديث عن الحياة العلمية بالمدينة وذلك لجهلهم باللغة العربية والتعاليم الإسلامية، إلا في النزر القليل من هذه النصوص كالذي نجده في وصف الرحالة الانجليزي جوزيف بلاكسلي الذي زار المدينة مرتين، ففي الأولى لاحظ أن الأوقاف كثيرة، وهي مورد التعليم المجاني، وكانت تزيد أحيانا عن حاجة المدرسة والمسجد فيخصص منها جانب للفقراء أيضا.

1-Mme Douvreleur , Constantine en 25 tableaux Editionde la jeunne académie Paris1931.pp.69-82
1-Mme Douvreleur, Op.cit ,p 121-122

وقد حضر بلاكسلي مع المستشرق شيربونو درسا كان يلقيه بعض المدرسين* فقال: إنه مدرس ممتاز بالذكاء والجاه، وكان الدرس في تفسير القرآن الكريم، وفي زيارته الثانيةسنة1859م لاحظ أن المدارس والمساجد والزوايا أصبحت مهجورة والخراب في كل مكان[1].. -وذلك ولا ريب نتيجة حتميةللتضييق الاستعماري على اللغة العربية- أوفي وصف الرحالة السيد بولسكي الذي قام برحلة إلى قسنطينة سنة 1884م لكتّاب (مدرسة لتحفيظ القرآن) فمؤدب التلاميذ شيخ مسن متكئ في زاوية من زوايا المسجد له نظارتان قديمتان، صوته متهدّج مرتعش، وبيده عصا لا يستعملها إلا نادرا، وحشر التلاميذ حشرا، وهم حوالي الثلاثين لكل منهم لوح يكتب عليه الآيات بحبر معين ثم يحفظها بصوت واحد مع زملائه، ثم يمحوها بعد أن تنقش على الذاكرة وهكذا إلى نهاية الحصة وليس هناك شرح لأي كلمة [2] ولعل هذه الطريقة في التدريس هي التي انتقدها العلاّمة ابن خلدون وكانت سائدة في المعرب العربي بقوله:«فتجد طالب العلم منهم (يعني سكان المغرب العربي) في ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة، فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرّف في العلم والتعليم.. وما أتاهم القصور إلا من قلةالتعليم وانقطاع سنده، وإلاّ فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به، وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية، وليس كذلك »[3].

2 - الحقـــيقة التي تؤكد أنه مهـــما اختلفت آراء هؤلاء الغربيين حول مدينة قسنطينة ومهما تباينت،فإنها لا تستطيع أن تخفي مسحة الإعجاب والافتتان بهذه المديـــنة، فنطقت نصوصهم بما أخفته صدورهم لتـــقول:«لاتتكلم عن المدن المثـــيرة للإعجاب ما دمت لم تر قسنطينة وهي مشدودة إلى جانبي وادي الرمـــال بين جسر سيدي راشـــد الحجري العملاق

والجسر الضيق الممتد على الهوة المثيرة للدوار، محاطة بالمرتفعات الخضراء...قسنطينة أشبه ما تكون ببناء أنشأه فنان على بطاقة بريدية»[4].

وتقول :«عندما نتصور ثروة طبيعية، كأنما قامت على آثارحمم بركانية بين مهرجان من الصخور، تبدو قسنطينة ...قسنطينة أنموذج القلعة النوميدية التي نمت ببروجها المرصفة فوق المرتفعات الجبلية

---

* انظر الملحق (29) .

[1] - جوزيف بلاكسلي، أربعة أشهر في الجزائر، لندن، 1859، ص ،30.

[2] - بولسكي، العلم المثلث على الاطلس لندن، نيويورك، 1854، ص22.

[3] - عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ط1، بيروت، 1961م، ج1، نص773.

[4] - **Georges de la Fourchardiere ,Au pays des chameaux 1925**

للبلدان، غير أنه توجد حقيقةمذهلةهي الشكل الهندسي لصخورها المكدسة التي تجعل صعوبة الصعود إلى قمتها كصعوبة النزول إلى أسفلها...»[1]

لتقول : «الشيء الوحيد الأكثر أهمية والذي وقع عليه بصري إلى الآن هو قسنطينة بلد يوغرطة...إنها حقا عش الصقور...»[2].

لتقول أيضا :«تحت سماء زرقاء تبدو قسنطينة بعد ليلة جوها لطيف تلت يوما لهيب حره مشتعل.(يبدو أن جل الرحلات الغربية إلى مدينة قسنطينة كانت في فصل الصيف) الشوارع الهادئة تضج نوعا ما بصياح الباعة، وجرف سيدي مسيد يغطي بصبغة عاجية جبينه الرمادي المتوج بالصنوبر، وجبل الوحش بفجوته الخضراء يمتد حتى النصب التذكاري...وعلى الصخر المثلث الشكل، المدينة العربية تقود عددا من المنازل إلى الجمعة الكبيرة حيث المئذنة ترتفع في جلال وهيبة مثل نبي...»[3].

ولتقول أيضا:« تقبع قسنطينة فوق صخرة بديعة يحيط بها وادي الرمال ووهاد عميقة، حزام يكاد يكون متصلا، ويبدو بطريقة أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، ولا تزول عنها الخاصية الشرقية إلا عندما نضع أقدامنا داخل سورها الداخلي»[4].

3-تفاوت قدراتهم في الوصف ونقل المشاهد إذ منهم من جاء وصفه سطحيا مقتضبا ،ومن جاء وصفه شاملا متعمقا لكل ماوقع تحت سمعه أوبصره مهما دقّ.فلكل بصره ،ولكل بصيرته

فقصر الباي مثلا من المشاهد التي وصفها الرحالة الأجانب وجاء وصفهم له متفاوتا فمنهم من اكتفى بالحديث عن الفن المعماري للقصر ومنهم من امتد وصفه ليشمل حدائقه الغناء الساحرة.

5-أكثر الرحلات الغربية دقة وتفصيلا هي تلك التي كتبت بأقلام نسائية فشتان بين ماساقه إليناالرحالة وماساقته الرحّالات من مشاهدات حية كتلك التي نقلتها إلينا **مدام دوفرولير** في كتابها **:(قسنطينة في 25 لوحة)**،أو الرحالة **لويس ريجيس** التي أبدعت في وصف سهول الحامّة حتى

---

[1] - **Louis Bertrand , Africa ,1933**

[2] - **Gustave Flaubert,Correspondance , 25 avril1858 .**

[3] - **Maximilien Heller ,La detresse des Revanches , 1919**

[4] - **تشيها تشيف، اسبانيا و الجزائر، تونس، 1880.**

لكأننا بهابعثت الحياة والحركة في كل ما وقع تحت ناظريها في تلك السهول الممتدة البديعة مما أوحى إلى عدد من الرسامين أن يحوّلوا هذه المشاهد إلى لوحات فنية جميلة...

6-تركيزهم على وصف جمال موقع المدينة وحصانته و واديها الخالد وصخرها العتيق.

7- تركيزهم على وصف العادات والتقاليد التي وجدوا في أكثرها مجالا رحبا للخرافة والغرائبية..كما أنهم لم يهملوا الحديث عن المرأة التي لم ينصفها المجتمع ولا أعرافه المستمدة من الشريعة-حسب قولهم- ...

8- تحدّثوا عن المساجد وكان حديثهم عنها غالبا لامن زاوية كونها أماكن للعبادة والتعلم ومراكز إشعاع حضاري،ولكن من زاوية مافيها من روعة الفن المعماري الإسلامي.

الخاتمة

الخاتمة

بعد ليالٍ نابغية وجهد جهيد، وجدتني أخيرا أقف على عتبات خاتمة بحث أخذ من عمري ومن جسدي وفكري، والأمل يحدوني في أن يكون التوفيق ديدن قلمي وحلية وريقاتي التي غاية غاياتي أن أكون مساهما بها في إضافة قبس إلى المشاعل التي يحملها أولئك السائرون في حوالك تاريخ مدينة قسنطينة بحثا عن حلقاته المضّيعة، ولا أقول الضائعة**...** بحثا عن ألغاز المدينة الصموت المدفونة بسيدي مسيد أوسيدي محمد لغراب أوسيدي سعيد السفري بكدية عاتي**...** أو التي تتناقلها مياه الرمال في رحلتها الأبدية**...**

وأنا لا أدعي عُجبا أنني جئت في بحثي هذا **بما لم تستطعه الأوائل**، إذ الحقيقة الحقيقة هي أنني ما أراني أقول إلا معادا من القول**...**

كما أنني لا أنكر أنه في هذه المدة التي طالت من البحث صبرت صبر سيزيف اليونان بل أيوب النبي، ولا أنسى قولي لأستاذي المشرف حين حاول مشكورا أن يشدّ من عزيمتي اثر حادث السيارة الخطير الذي تعرضت إليه وأفراد أسرتي، وكان أحد أهم أسباب تأخري في إتمام بحثي ولازلت والحمد لله أتجرع مُرّ كؤوسه:

تكاثرت الظباء على كراشه   فما يدري كراشة ما يصيد

ومما ضاعف من تعبي في انجاز هذا البحث ندرة المصادر (الرحلات) التي هي عمدة عملي، وكذا بعض المراجع المتعلقة بمدينة قسنطينة، وهي مشكلة مطروحة منذ زمن غير قصير، فالشيخ محمد الحفناوي يصرّح بذلك قي كتابه (تعريف الخلف برجال السلف) فيقول: «ولم أعثر على هذه الكتب-المتعلقة بقسنطينة- من كتب التاريخ بعد البحث الطوبل في مظانه ومحاولة مساجن المؤلف لأن المستحوذين عليها يفضلون بقاءها ذخيرة للأرضة على إفادة طالبيها بها واستفادتهم منها ولا يبالون بما وراء ذلك، زاعمين أنهم باستعارتها فقدوا منها كتبا نفيسة المواضيع عزيزة الوجود، نسأل الله توفيقنا وإياهم لما فيه رضاه»[1].

---

[1]- الشيخ الحفناوي محمد تعريف الخلف برجال السلق الجزائر**1906** ج**1** ص**9**

وكذا تصريح الحاج أحمد بن المبارك العطار يقصوره في الإلمام الوافي بالحديث عن مدينة قسنطينة وقد ورد ذكره في الفصل الثاني من هذا البحث. وبالإضافة إلى الكتب القيمة المفقودة والتي أشار إليها الدكتور عبد الله حمادي وذكرهما في الفصل الثاني أيضا، فإن كثيرا من المصادر والمراجع مما وصلت إليه يدي وجدتُ يد الحذف والنقصان (التمزيق) إليه أسرع. غير أني لا أغمط أصحاب الفضل من أولئك الذين وجدت كتبهم معينا روّى غليلي وأنار سبيلي وكان لهم فضل السبق في خوض غمار ما خضت. فقد استفدت كثيرا من كتاب أستاذي الدكتور عبد الله حمادي: أصوات من الأدب الجزائري الحديث، وكذا كتاب محمد المهدي بن علي شغيب: أم الحواضر في الماضي والحاضر. وكتابي الدكتور أبي القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي و أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر. وكتاب سليمان الصيد: نفح الأزهار عما في قسنطينة من الأخبار. وكتاب الدكتور ناصر الدين سعيدوني: في التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي.

وما خلصت إليه من بحثي المتواضع هذا وانطلاقا مما جاء في جل الرحلات عربيها وأجنبيها هو أن مدينة قسنطينة من المدن الأكثر عراقة في العالم، بما حازته من تاريخ وحضارة ومجد تليد. لقد عرفت المدينة الإستقرار البشري منذ غابر الأزمنة (حوالي 3000آلاف سنة ق م). وفيها من المواصفات ما يجعلها بحق مدينة من أمهات المدن يؤكد ذلك ما تعرضت له من محاولات غزو (تجاوزت الثمانين) وبفضل موقعها الحصين ذي الأهمية الدفاعية كانت دوما اسفينا في حلوق غزاتها والطامعبن فيها.

ورغم افتقاد بعض حلقات سلسلتها التاريخية التي لا تزال محل بحث إذ أنّ كثيرا مما تُوصِّل إليه يبقى من باب التخمينات والافتراضات. إلا أن ما تؤكّده النصوص الرحلية هو أنها لعبت على مر العصور والأزمنة أدوارا سياسية واقتصادية وعسكرية. كما تميزت بأراضيها الزراعية ووفرة محاصيلها وكانت عاصمة نشطة صناعيا وتجاريا وذات ثراء ونعمة. كما أنها عاشت كغيرها من كبريات المدن حالات من اللاّاستقرار بسبب الثورات المتنوعة.

ورغم تمسك قسنطينة بإسلامها بعد الفتح الإسلامي فإنها لم تسلم من التيارات الفكرية والمذهبية والسياسية، ومع ذلك انتعشت الثقافة وتطور فكر أهل الحضر من خلال المناظرات والمجادلات المتنوعة في المساجد والمدارس وقصور الخلفاء وكبار رجال الدولة، كما اهتم السكان باقتناء العلوم الدينية والحضارة الإسلامية وأخذوا في تعلم اللغة العربية منذ الفتح الإسلامي مما زاد

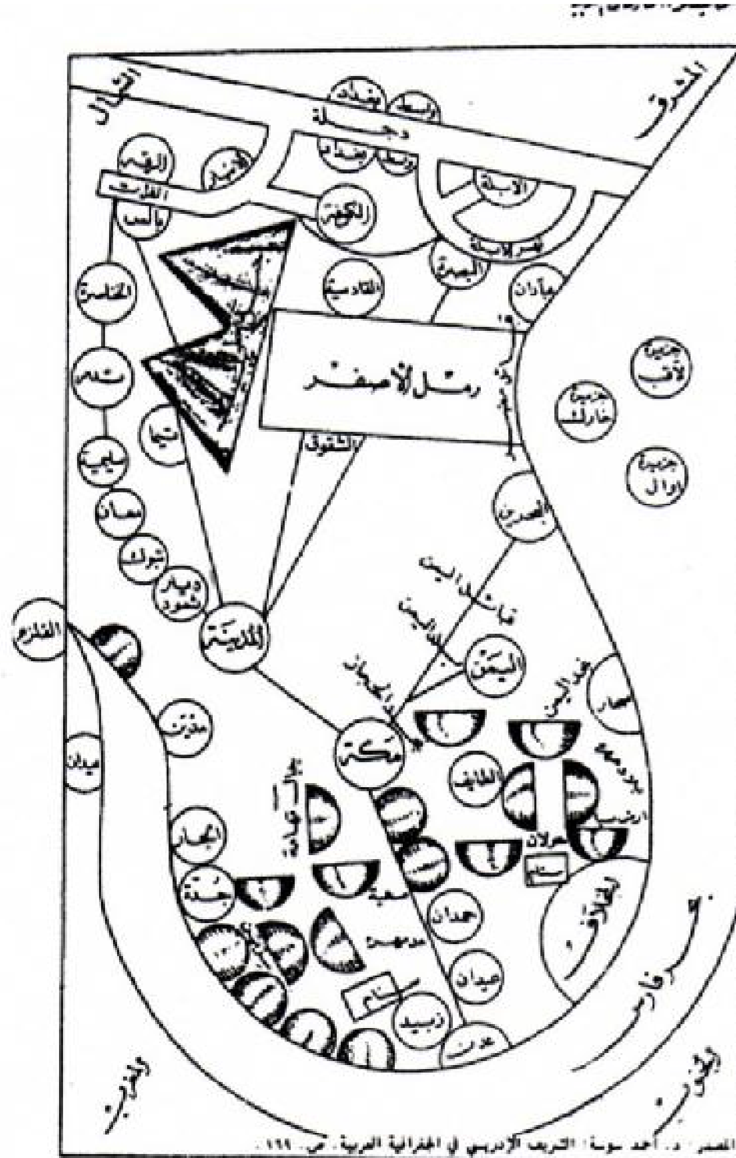
في حظوتها ومكانتها عند المسلمين، ومن هنا كانت قبلة الرحالين العرب الذين ركّزوا في وصفهم لها ومشاهداتهم على الحياة العلمية والدينية.

في حين ركز الرحالة الأجانب على الجانب الفني المعماري للمدينة ووصف الطبيعة الخلابة التي حباها الله بها، بينما انشغلت الرحّالات الأجنبيات بصفة أخصّ بما للمدينة من العادات والتقاليد وكان لهن في ذلك قصب السبق.

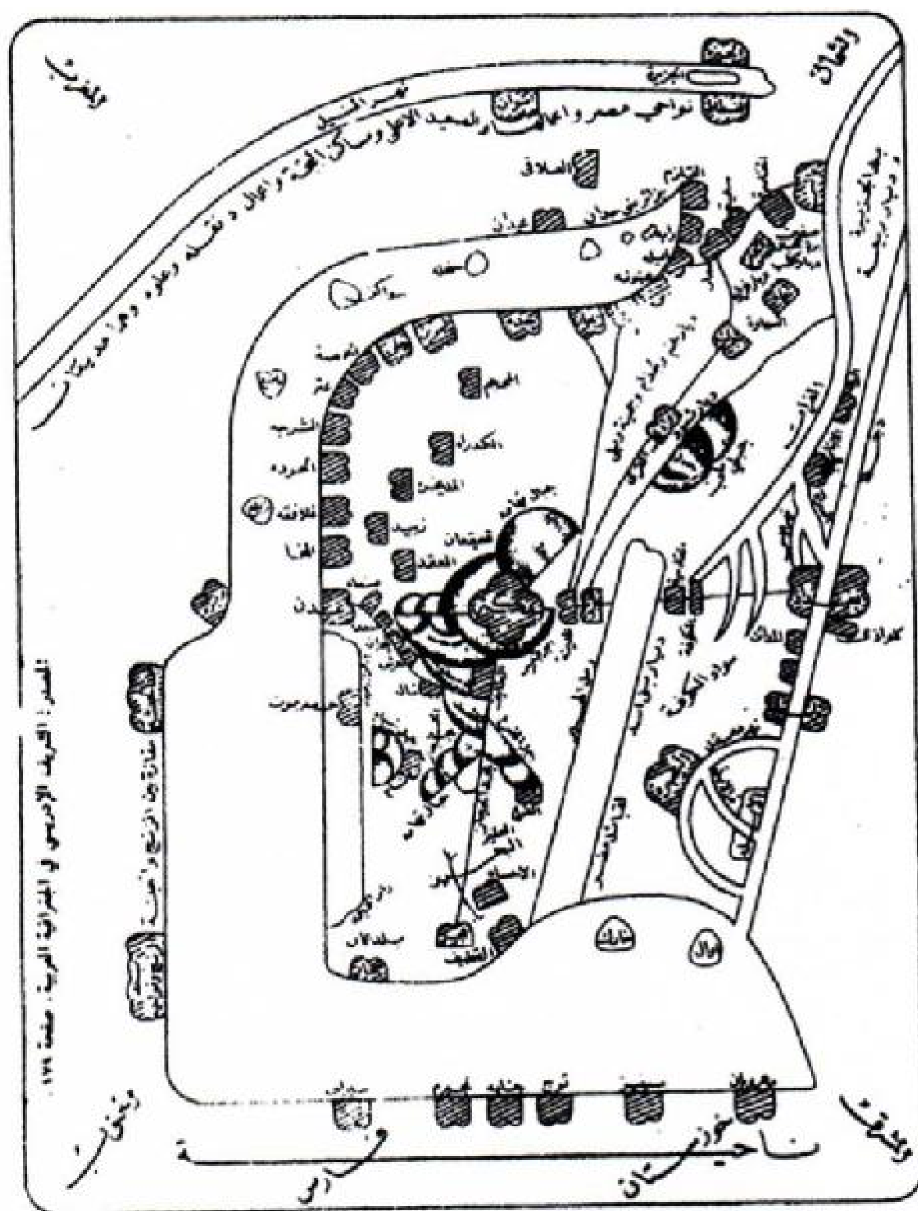
كما أخلص إلى أن هذه النصوص الرحلية على تباين وجهات نظر أصحابها تشف عما يمتلكه أصحابها من طاقات إبداعية في متونهم السردية من حيث الاهتمام بمحيطات المدينة من مختلف نواحيها.

وفي الختام أشير إلى أن ما خطّه قلمي لا يعدو أن يكون غيضا من فيض وقطرة من محيط أولئــــك الذين كان لهم في الموضوع صولات وجولات، غير أني آمل أن أضيف به لبنة إلى بناء أدب الرحلات وأخرى إلى صرح مدينتي المعلقة بين السماء والأرض.

الملاحق



ملحق رقم01 :صورة ديار العرب للأصطخري



ملحق رقم02 :صورة ديار العرب لابن حوقل

الشهور فى التقاويم المختلفة

القبطي	العربي	الروماني	العبري	*السرياني
توت	المحرم	أغسطس	تشري	آب
بابة	صفر	سبتمبر	مرحشوان	أيلول
هتورا	ربيع1	أكتوبر	كسل	تشرين 1
كيهك	ربيع2	نوفمبر	طابات	تشرين2
طوبة	جمادي1	ديسمبر	شباط	كانون 1
أمشير	جمادي2	يناير	اذار	كانون 2
برمهات	رجب	فبراير	نيسان	شباط
برمودة	شعبان	مارس	أيار	آذار
بشنس	رمضان	ابريل	سيوان	نيسان
بؤونة	شوال	مايو	تموز	آيار
أبيب	ذو القعدة	يونيو	آب	حزيران
مسرى	ذو الحجة	يوليو	أيلول	تموز

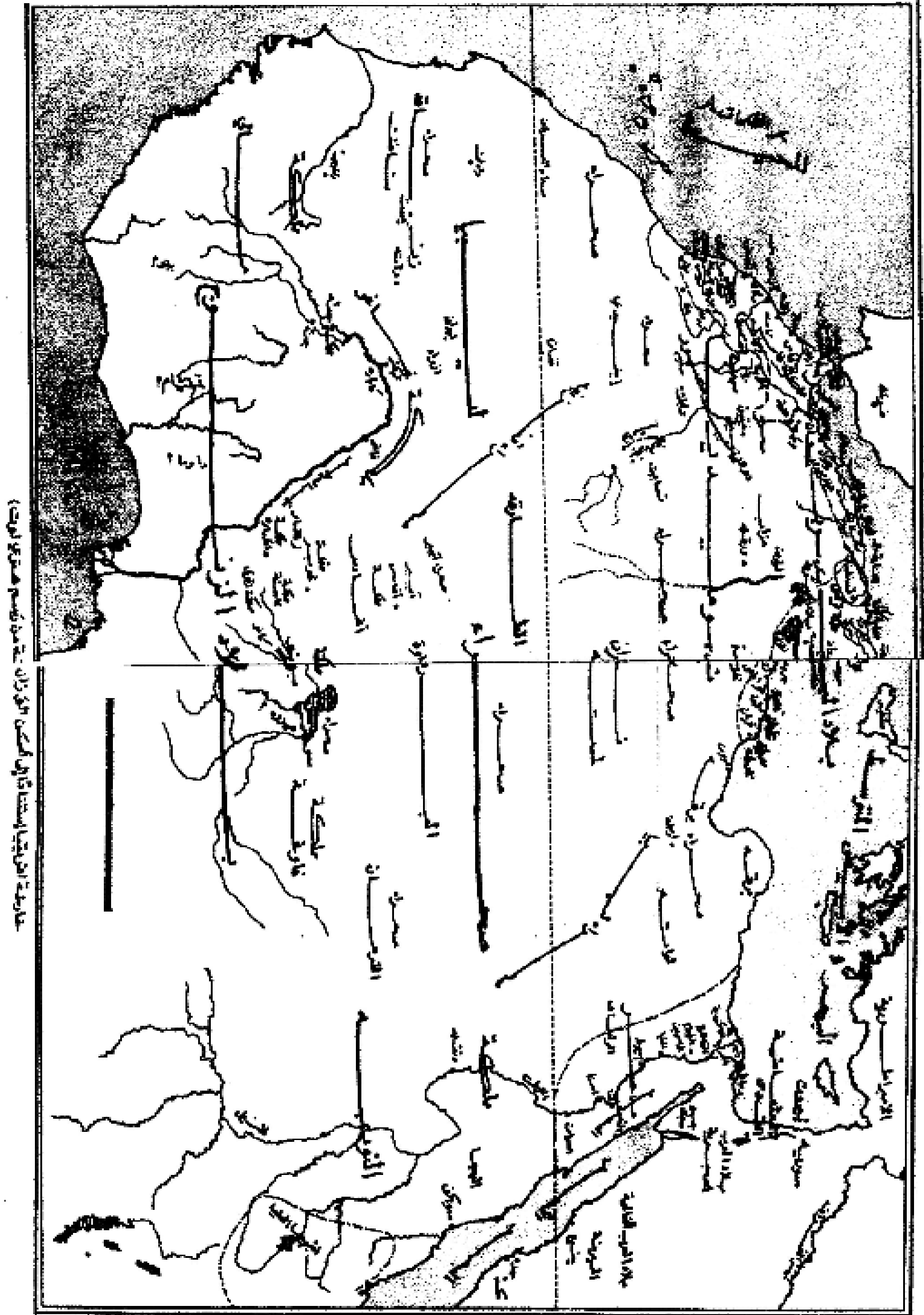
* أخذت أسماء الشهور السريانية في معظمها من أسماء آلهة بابل ، وهي ترجع إلى تقويم الإسكندر المقدونى ، وهو حسب راى المؤرخين يبدأ من عام 312 ق.م ، وهو نفس العام الذي فتح فيه أحد قواد الإسكندر (وهو سلوقس) مدينة بابل .

وقد اندثر هذا التقويم تماماً منذ القرن الـ 17 الميلادي ولكن استمرت أسماء الشهور تستعمل حتى الآن

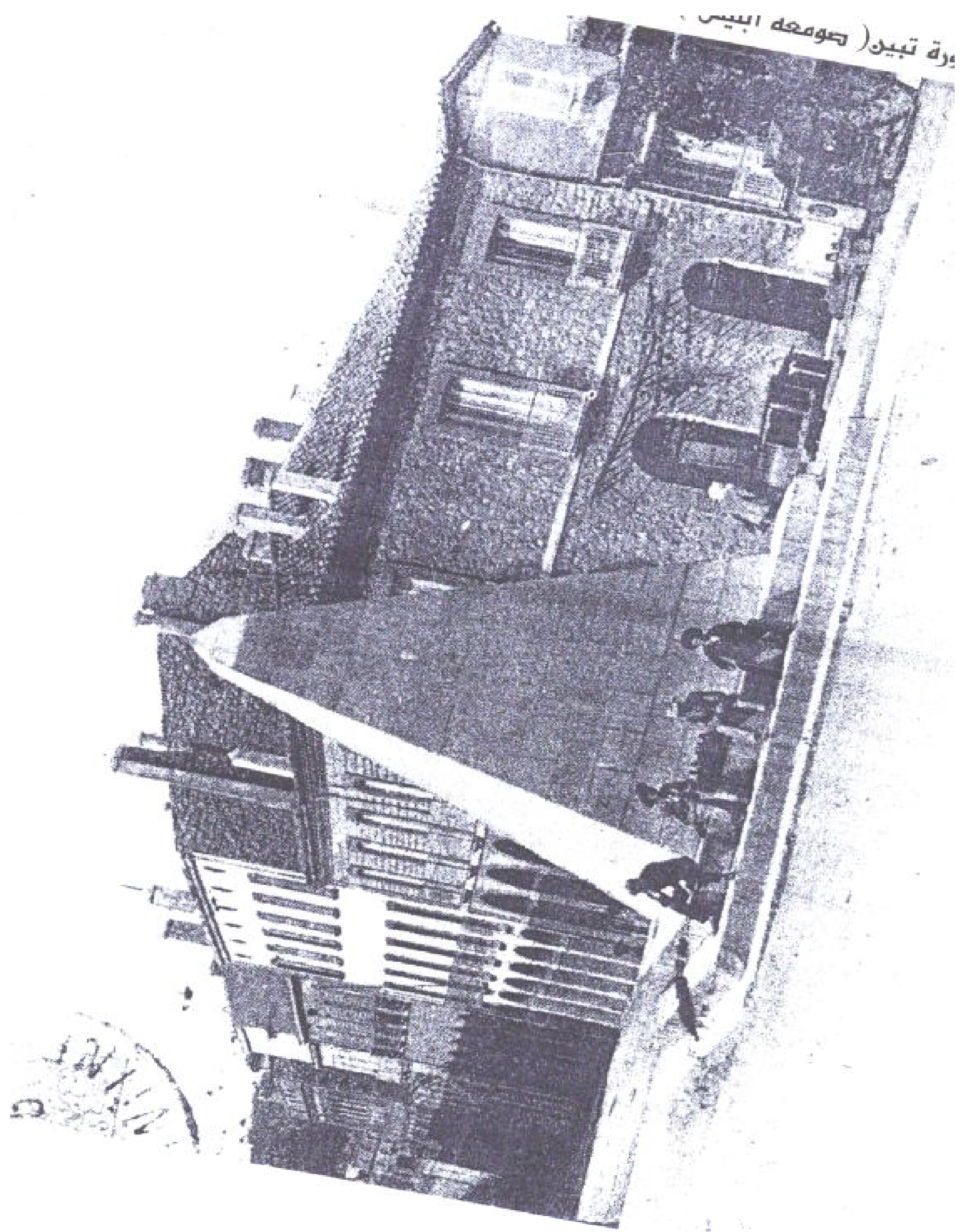
ملحق رقم 03 : جدول يمثل التقويم القبطي



ملحق رقم04: خارطة مجرى وادي الرمال



ملحق رقم 05 :خارطة افريقيا استناداللحسن الوزان



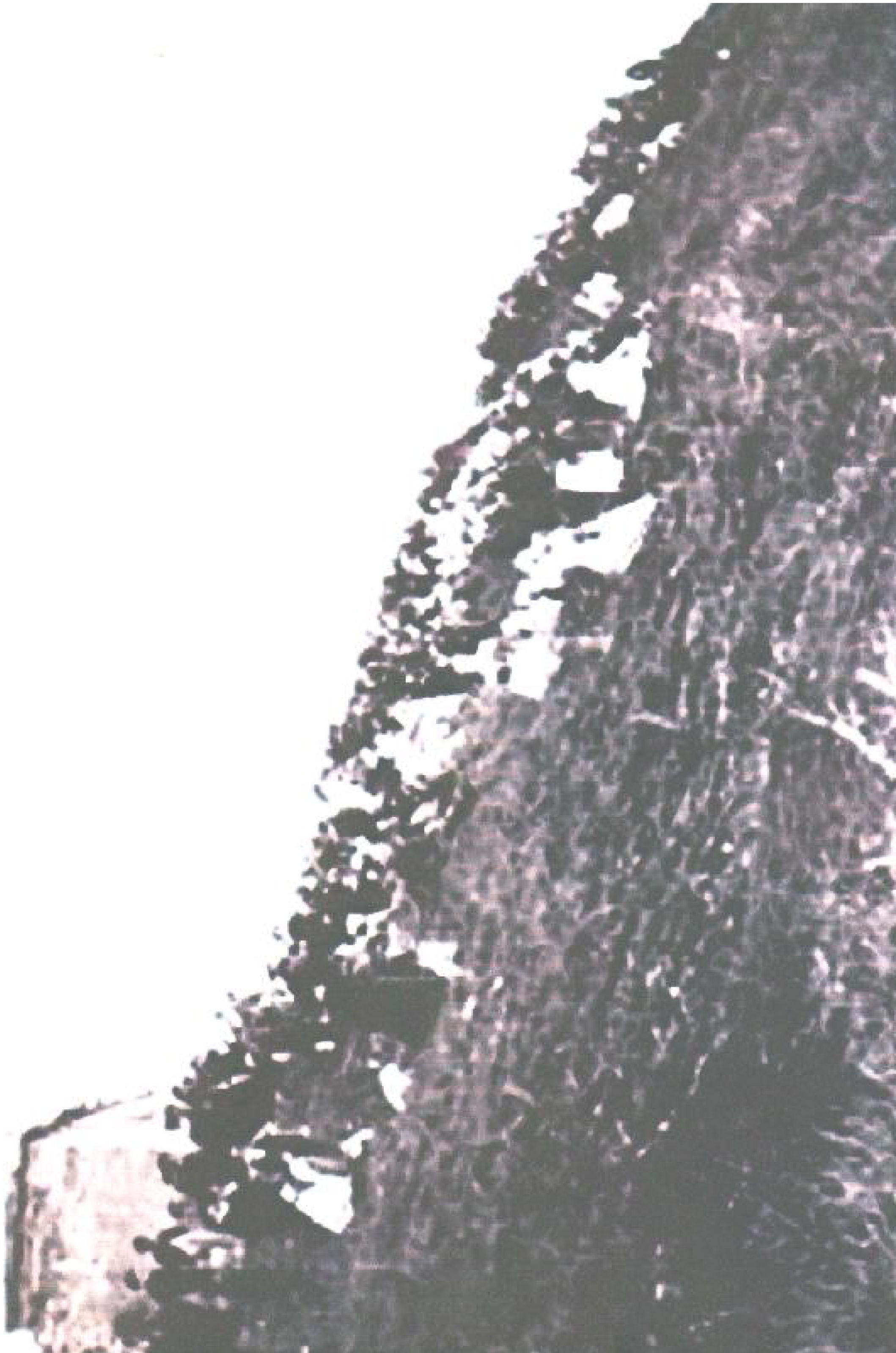
ملحق رقم 06: صومعة ابليس قبل إزالتها



ملحق رقم 07:صورة للنبع المائي (البرمة الأولى) بسيدي لغراب



ملحق رقم08 البرمة الثانية بزاوية سيدي لغراب



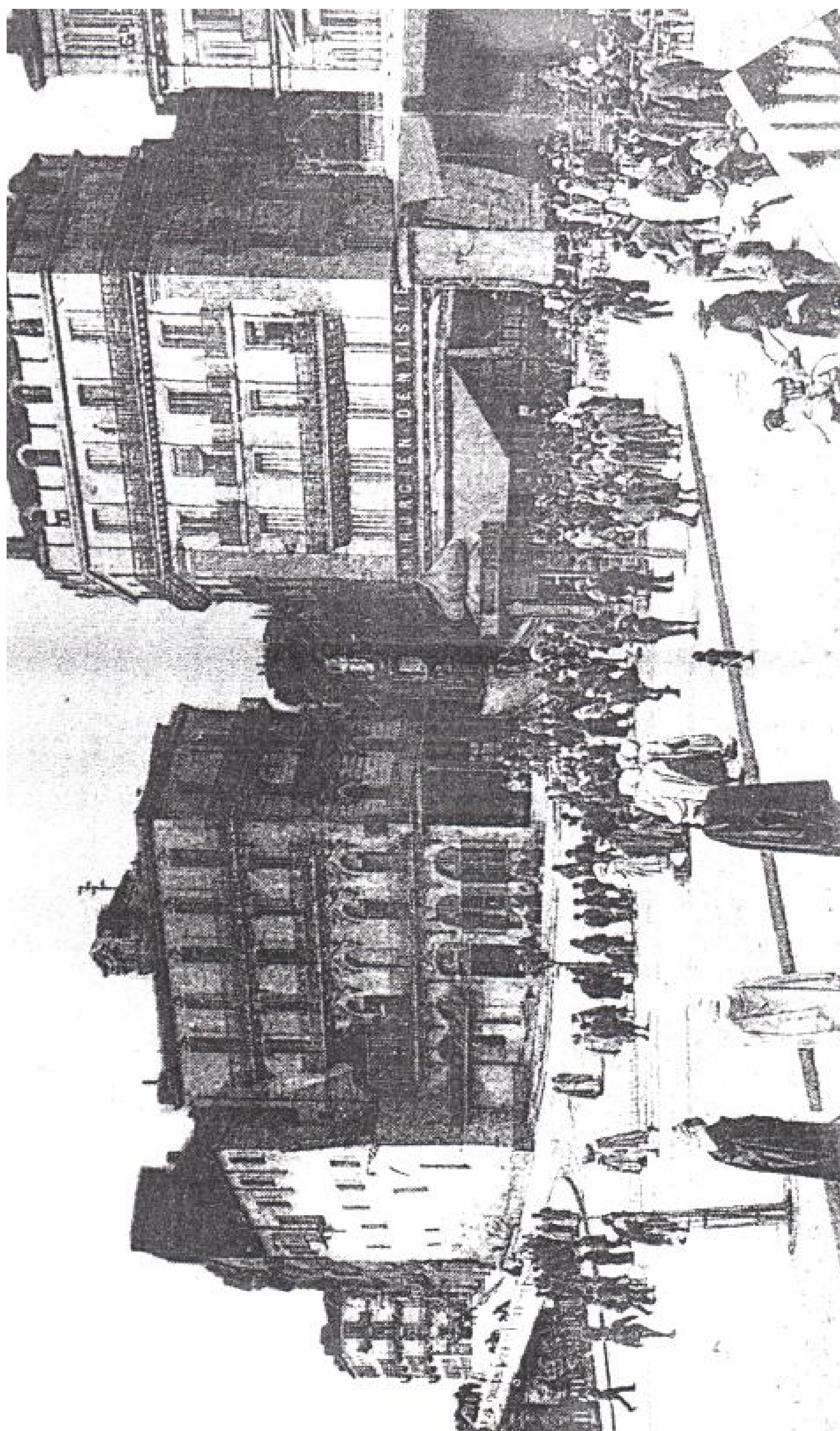
الملحق رقم 09 أحد التجمعات الصوفية (زردة)بكدية عاتي



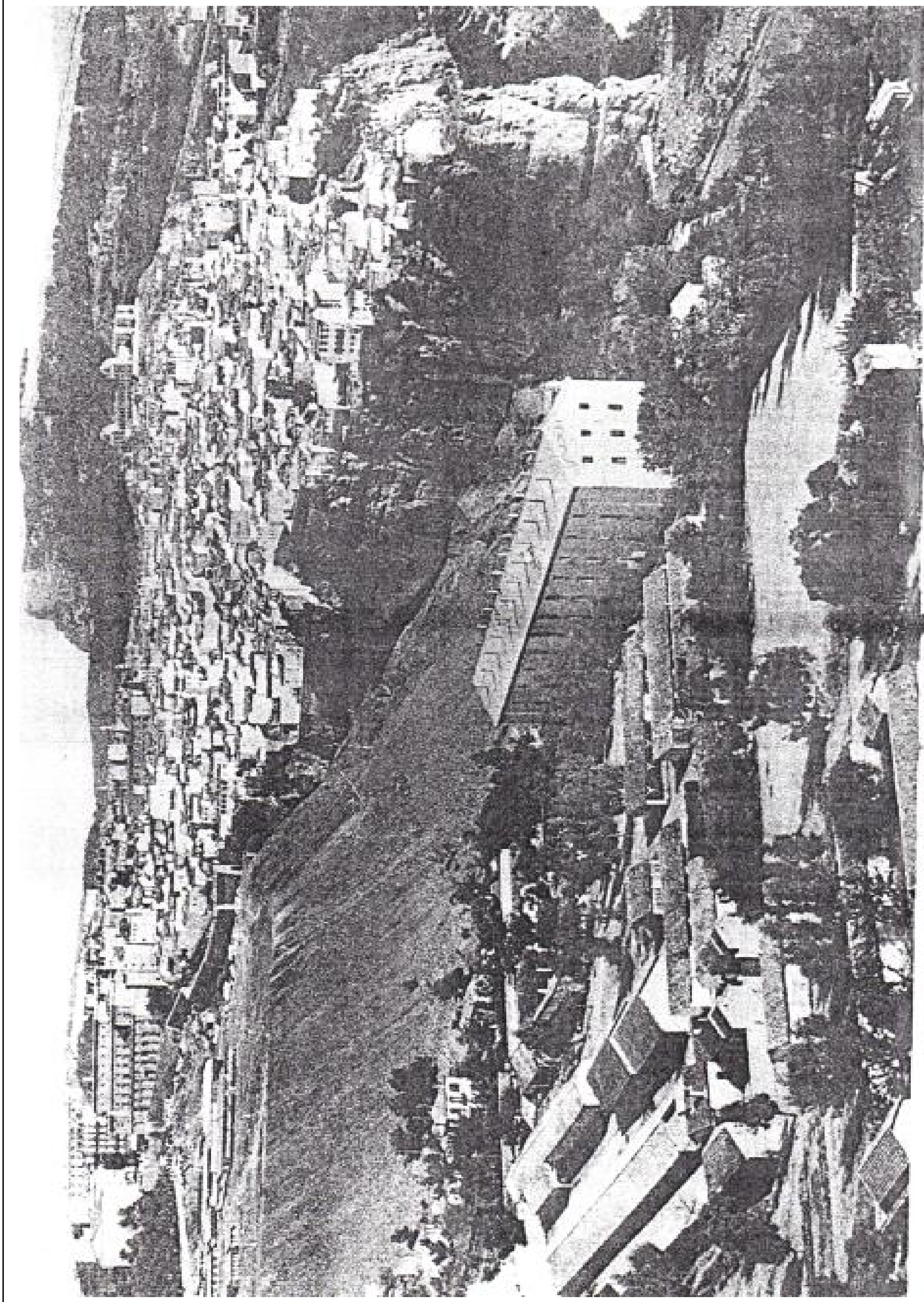
ملحق رقم 10 :صورة لزاوية سيدي محمد لغراب



ملحق رقم 11 : منطقة باردو أسفل باب الجابية



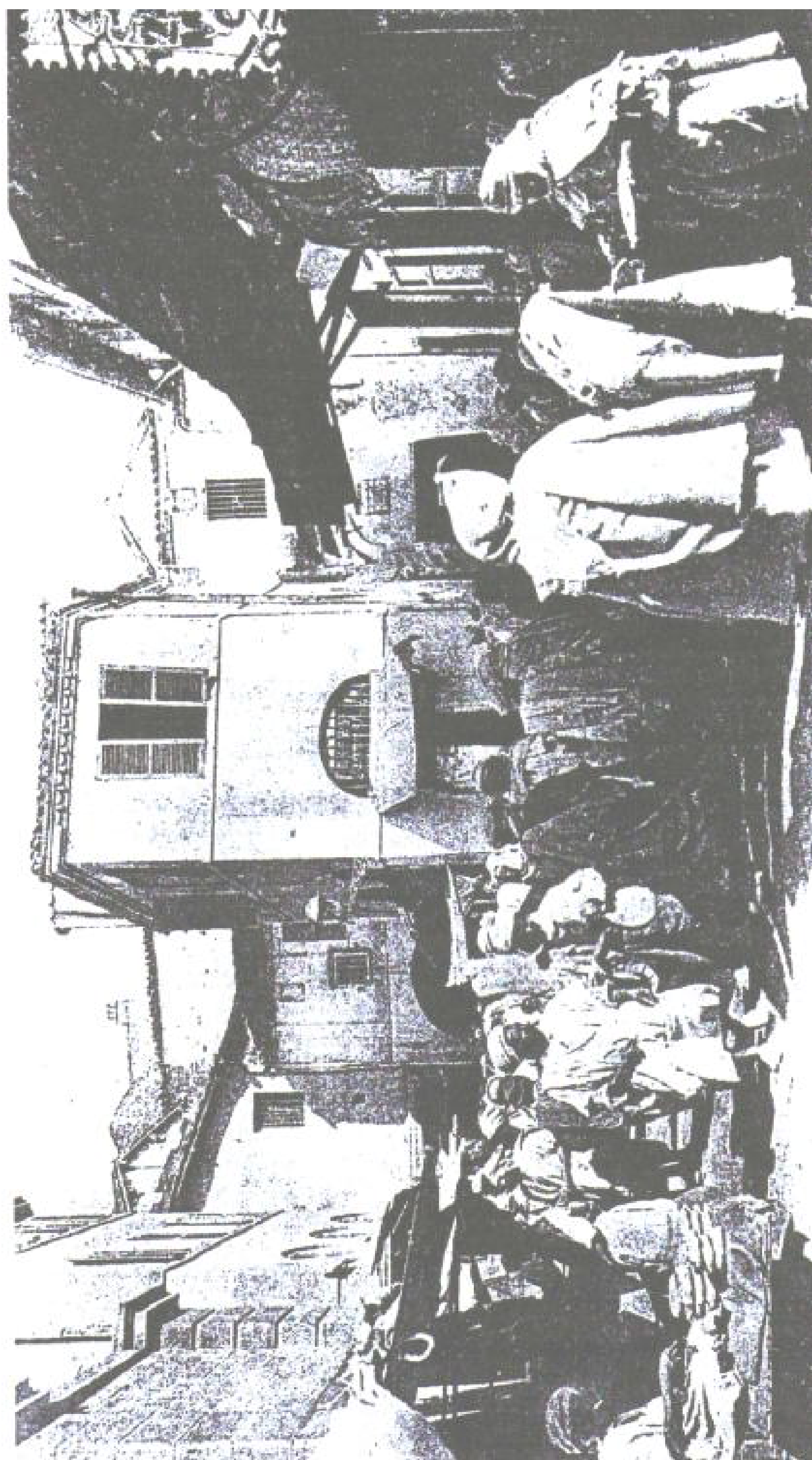
ملحق رقم 12: لابريش



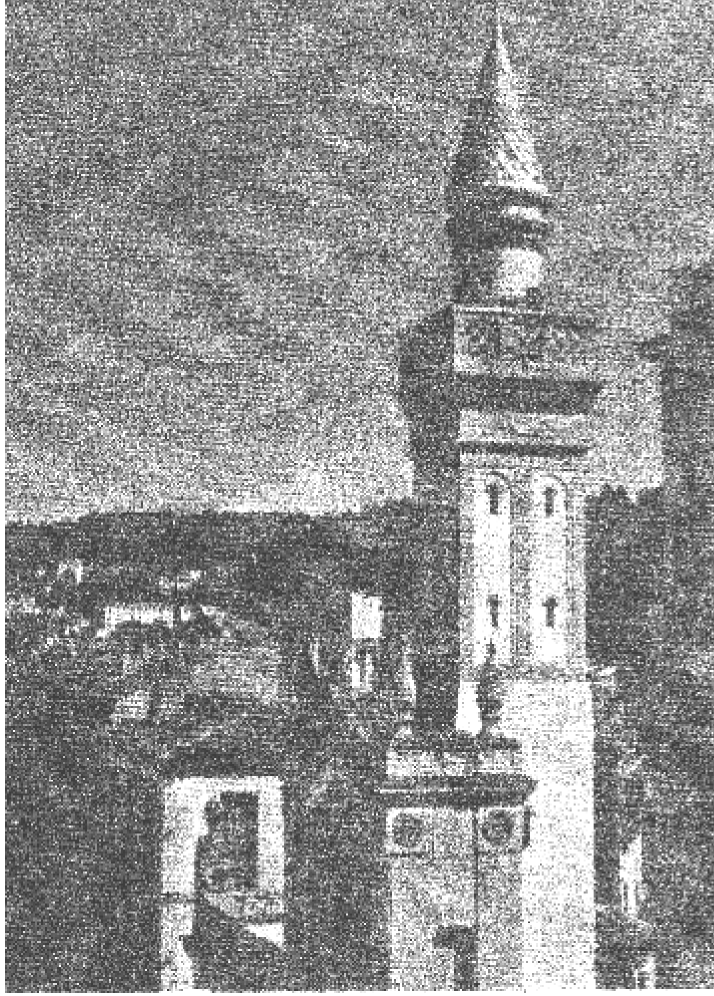
ملحق رقم 13 : الرمبلي



ملحق رقم 14 :رحبة الصوف



ملحق رقم15 رحبة الجمال



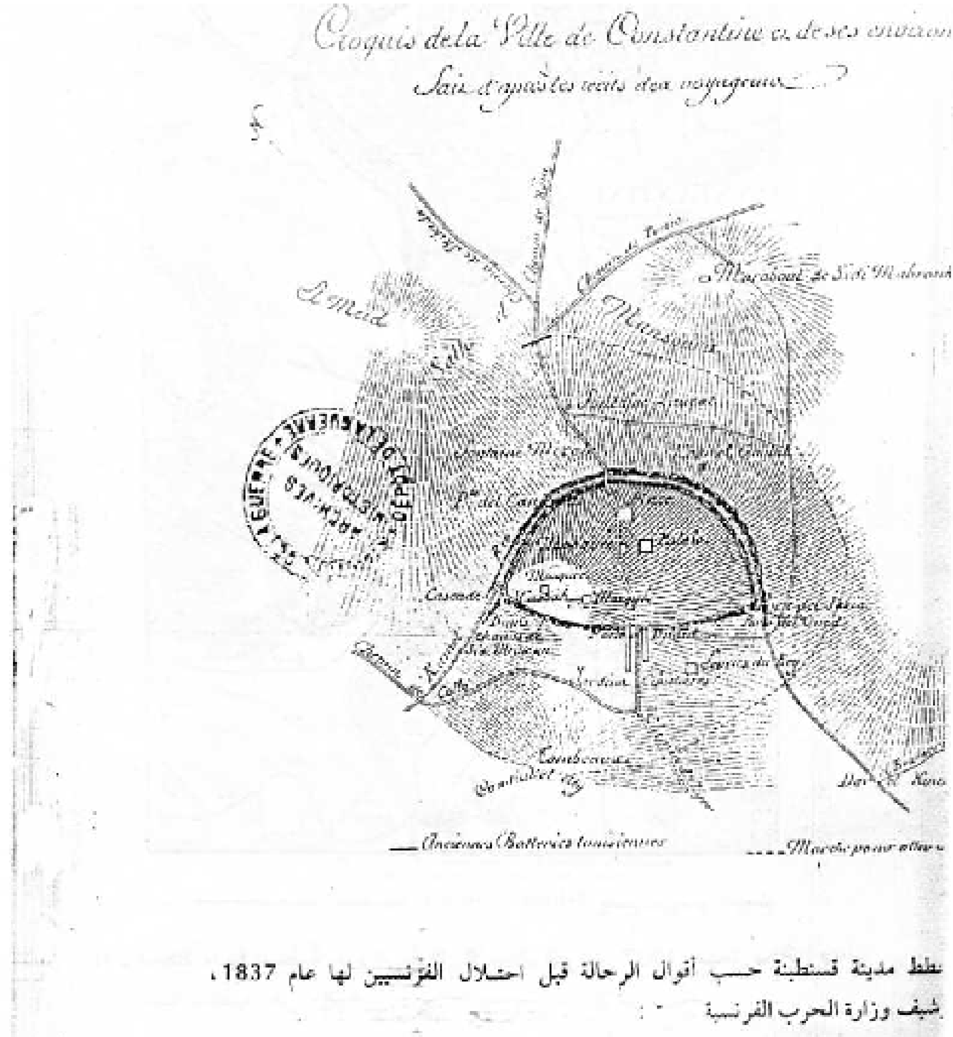
ملحق رقم 16 :الجامع الكبير



ملحق رقم 17 :أحد عروض عيساوة

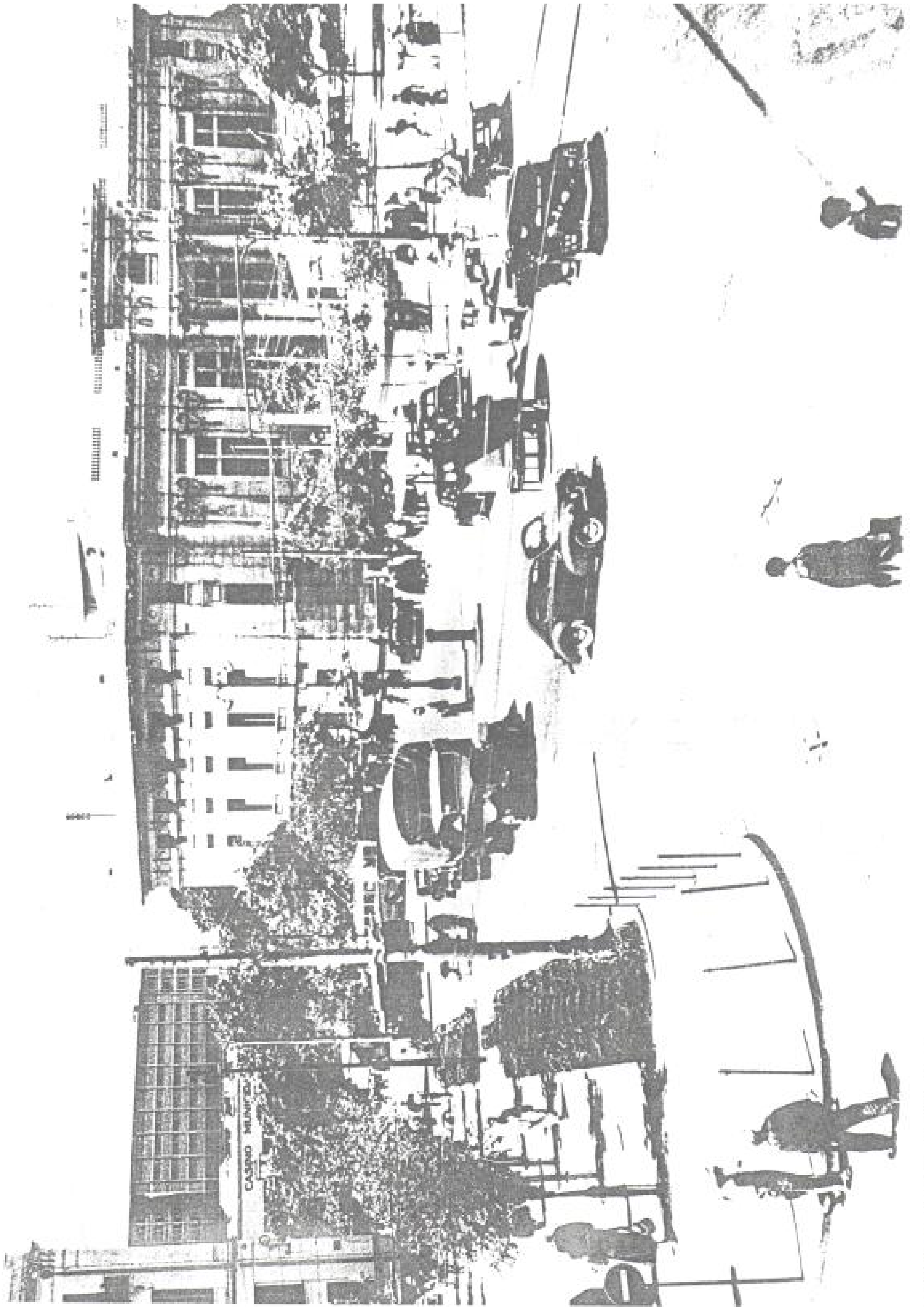
ـ الصفحة الأولى من وصف هيبوليت لقسنطينة . من أرشيف وزارة الحرب الفرنسية : حصن فانسان (ملف H225) بتاريخ شهر مارس [illegible] .

ملحق رقم 18 الصفحة الأولى من وصف الرحالة هيبوليت لمدينةقسنطينة

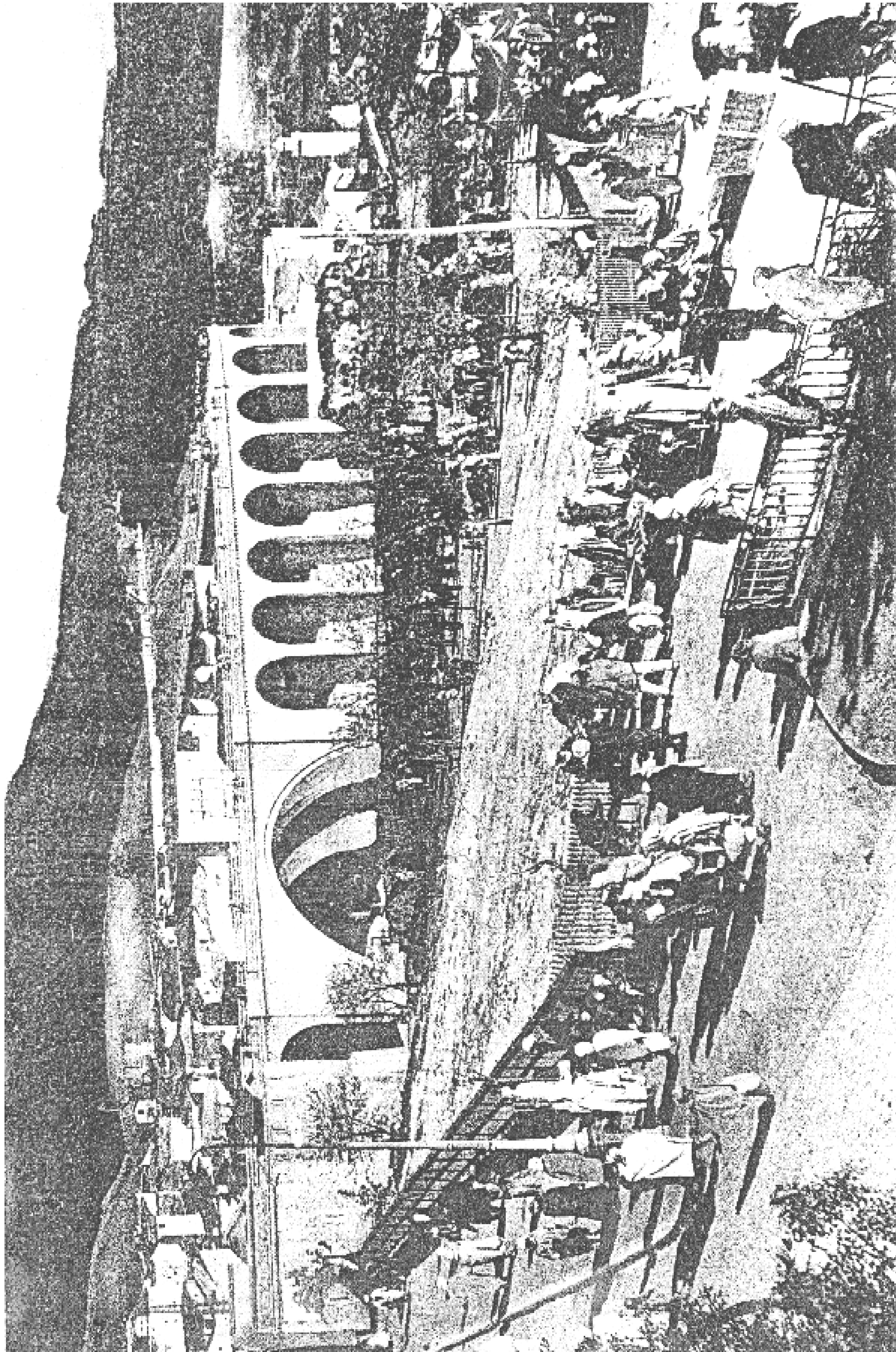


ـطط مدينة قسنطينة حسب أقوال الرحالة قبل احتلال الفرنسيين لها عام 1837،
ـشيف وزارة الحرب الفرنسية

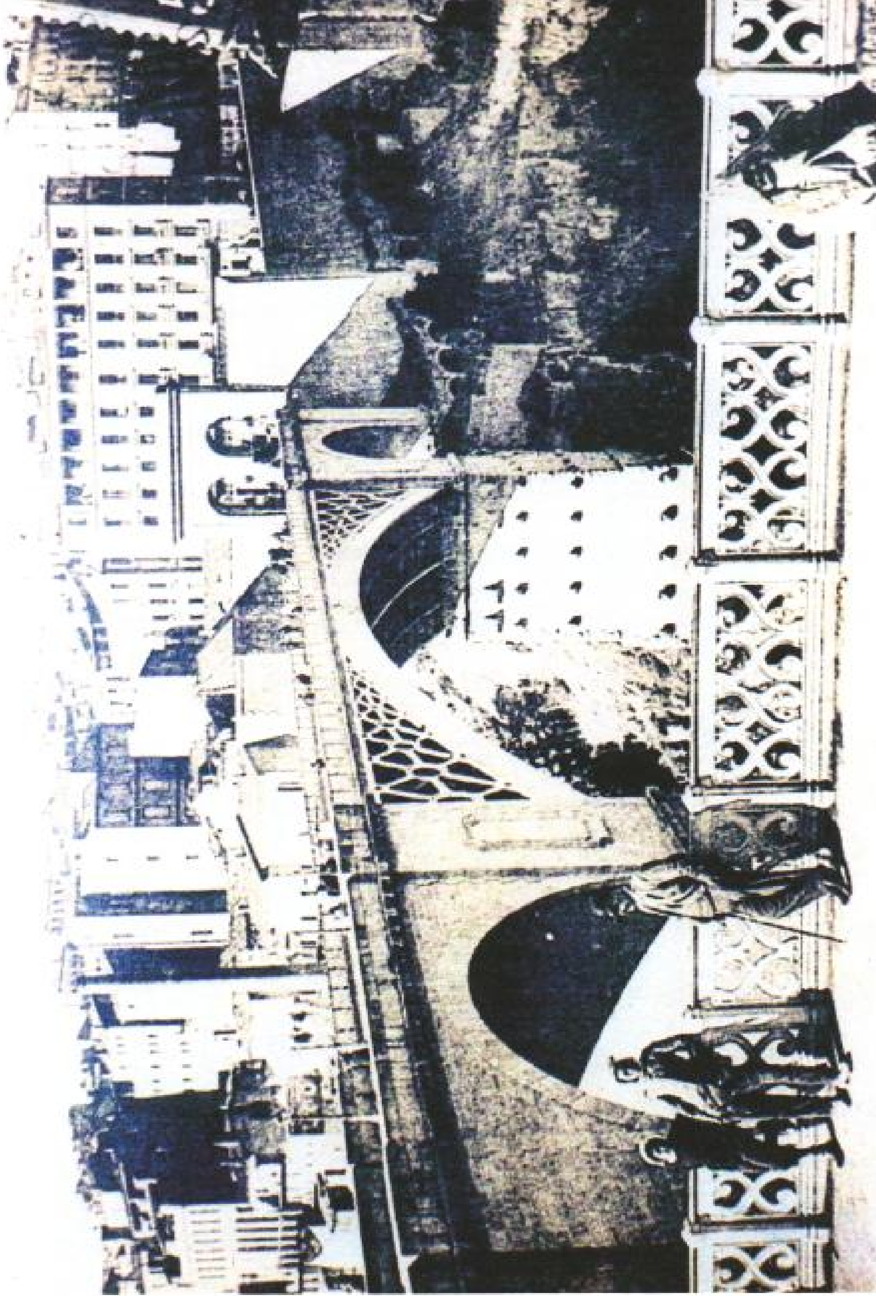
ملحق رقم 19 :مخطط هيبوليت لغزو قسنطينة



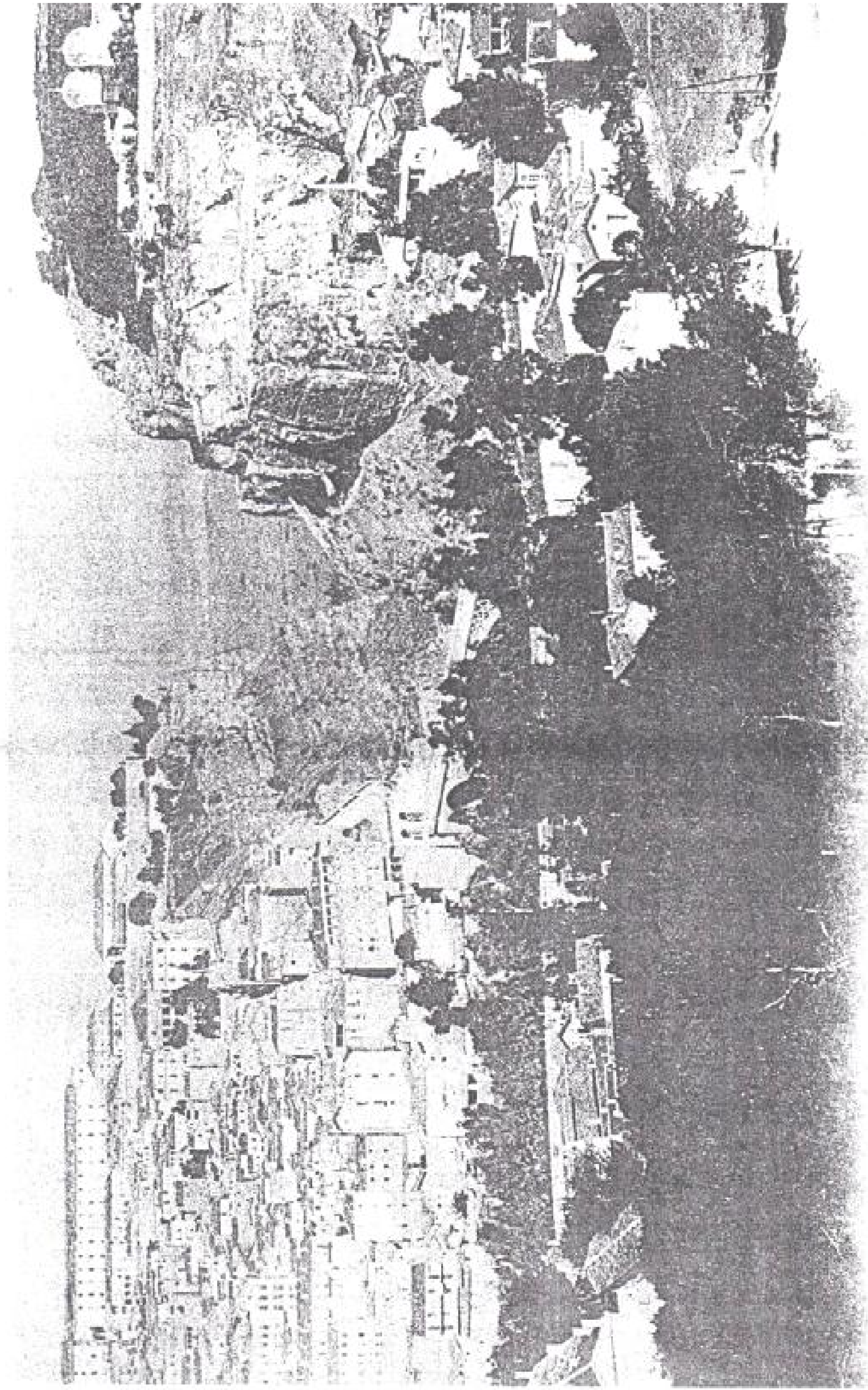
ملحق20باب الوادي-قسنطينة



ملحق رقم 21 : منظر باب الجابية وجسر سيدي راشد



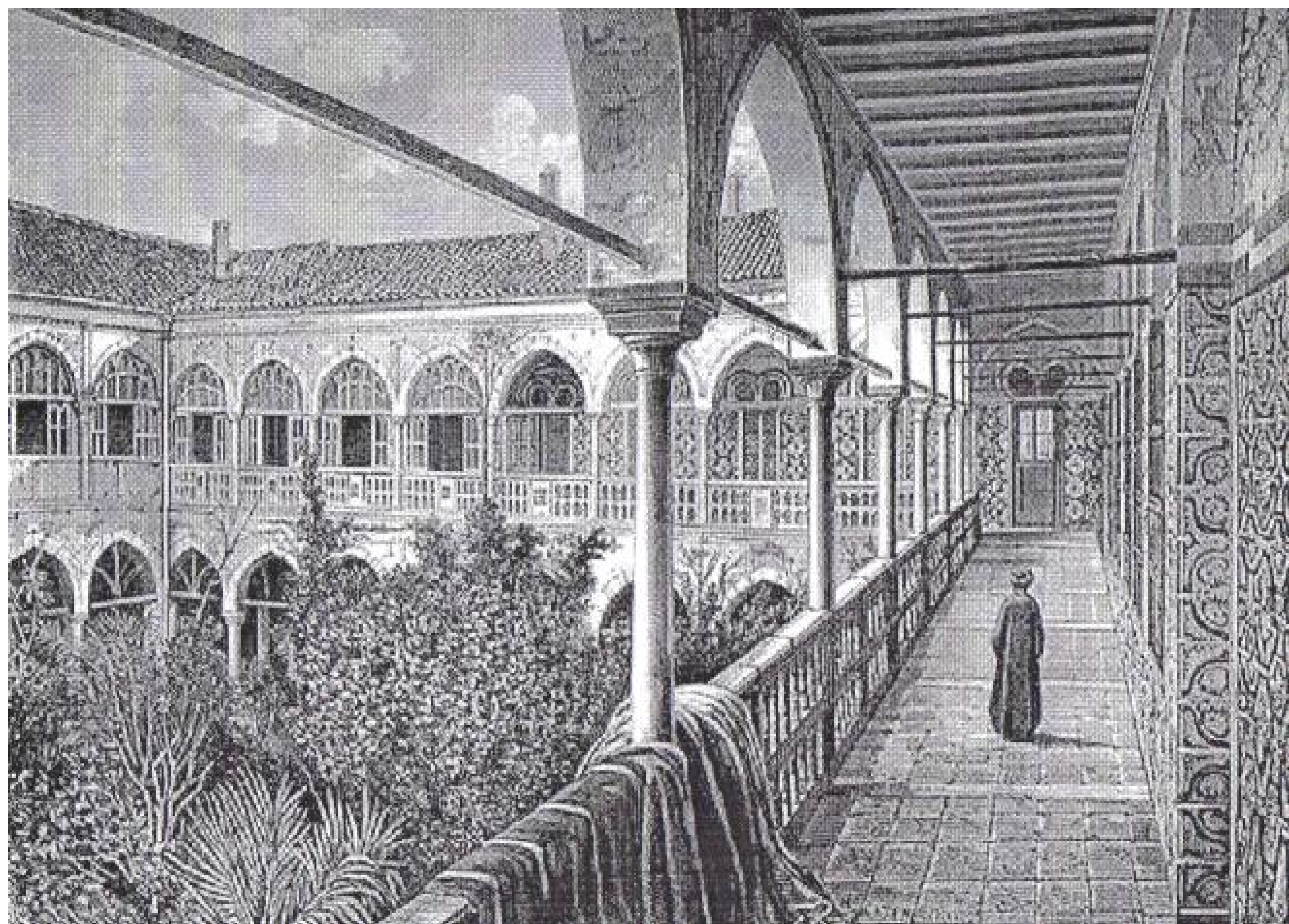
ملحق رقم22 :نظر لبا ب القنطرة



ملحق رقم 23 منظر للقصبة ملتقط من سطح المنصورة



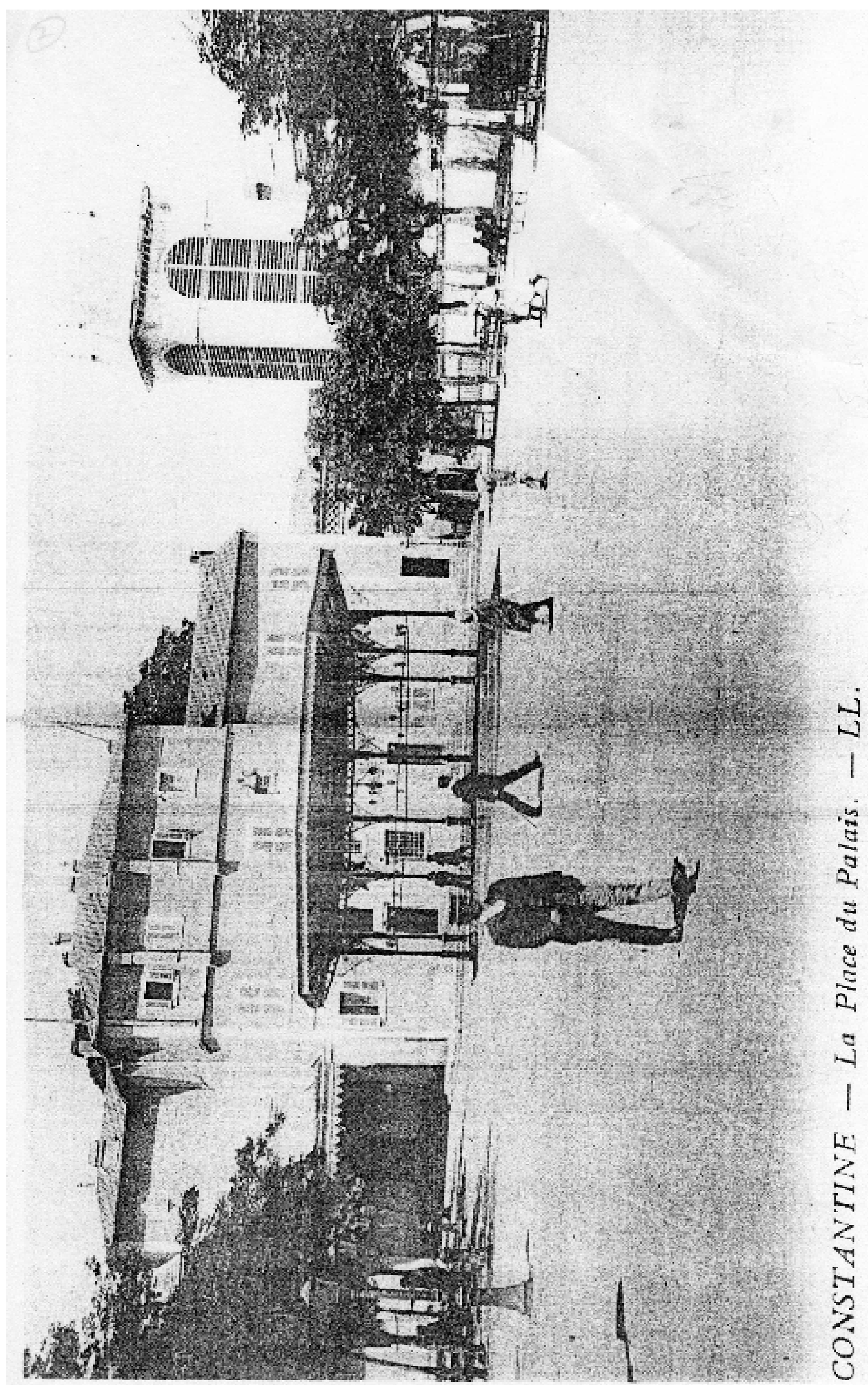
ملحق رقم24 :منظر ثان للقصبة



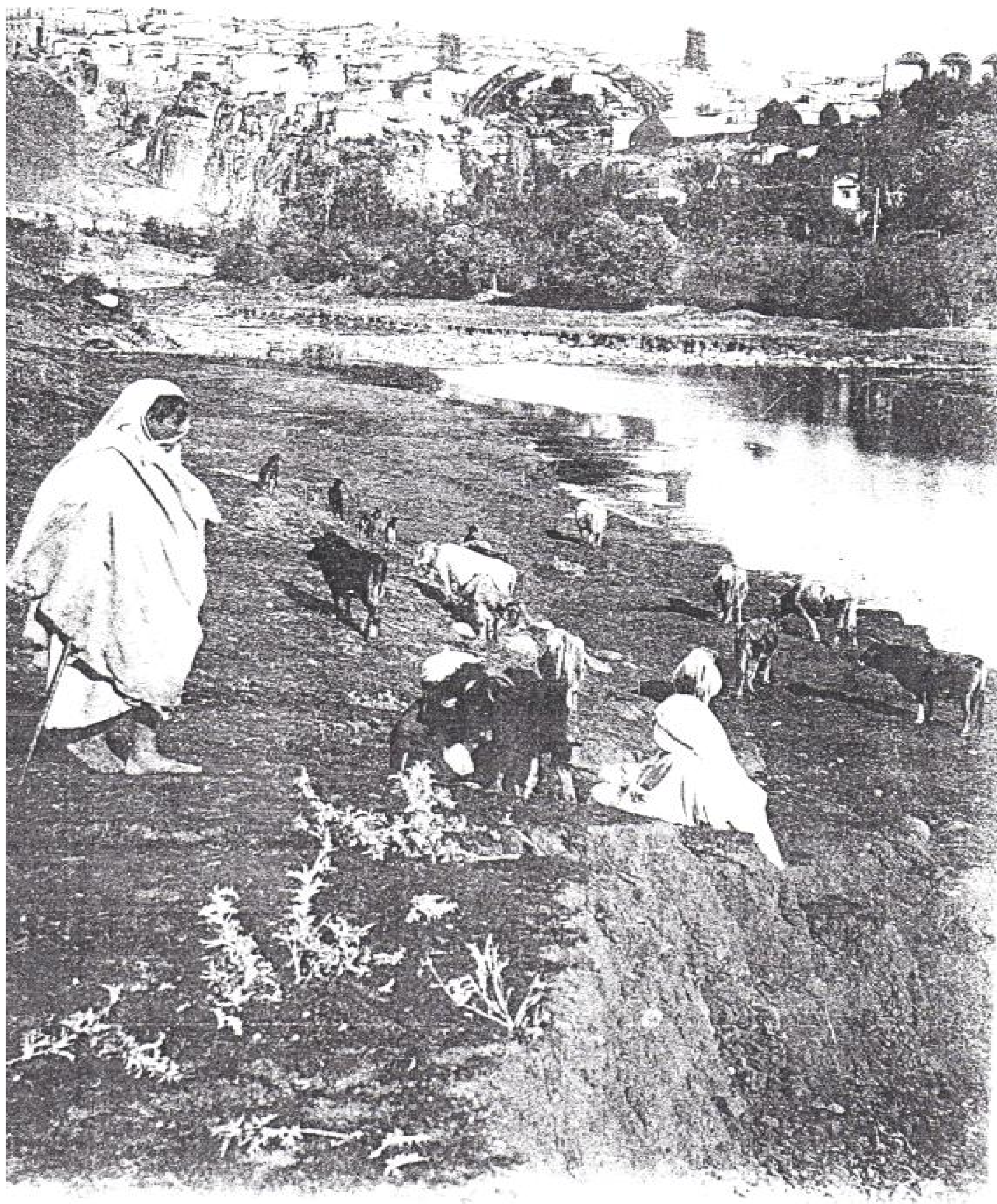
ملحق رقم 25 جانب من قصر أحمد وحديقته



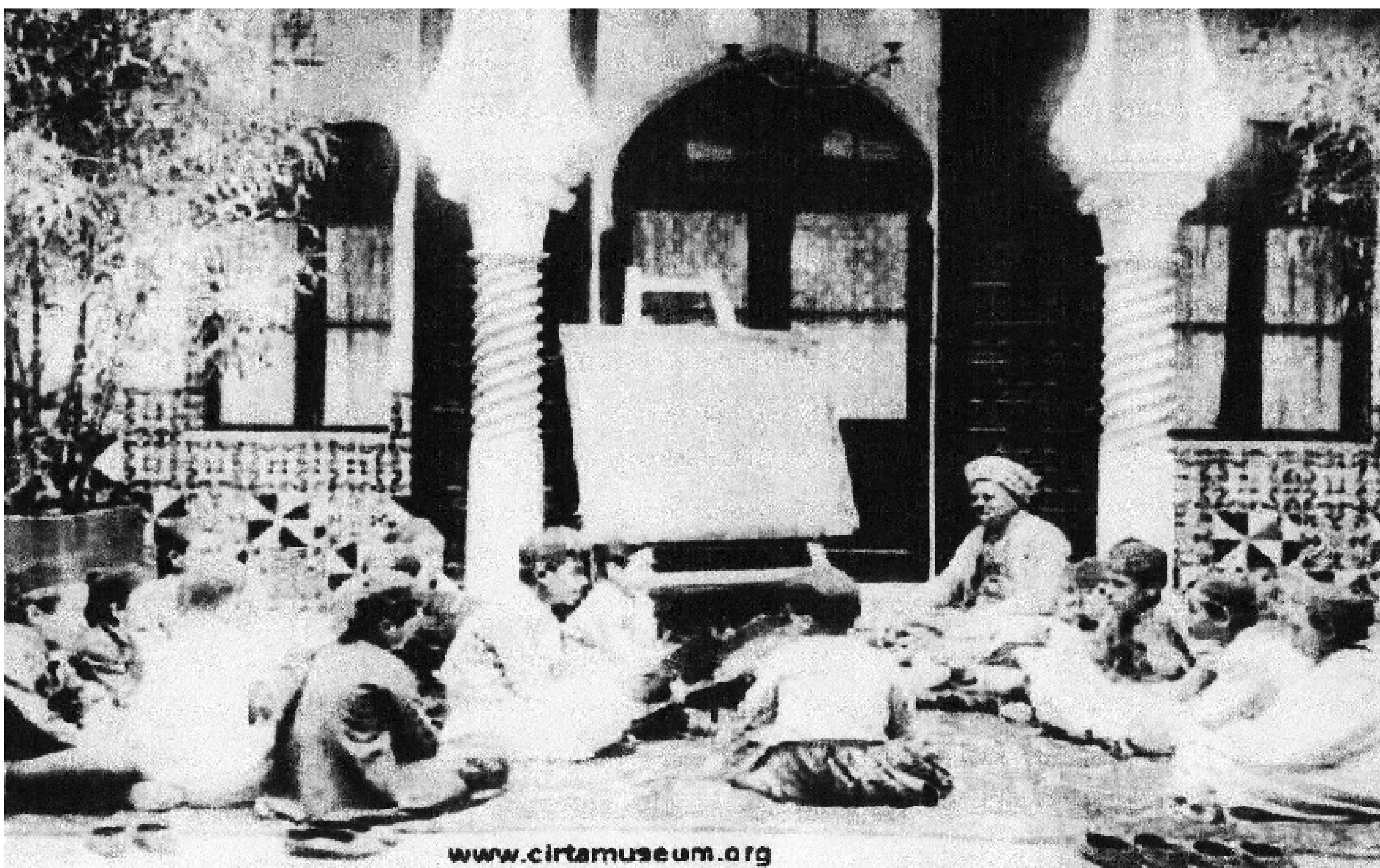
ملحق رقم 26 إحدى المطاحن المائية على وادي الرمال



ملحق رقم 27 :منظر عام لقصر أحمد باي



ملحق رقم 28تجمع مياه (الرمال) قبل الدخول في الخوانق



ملحق رقم 29 مدرسة قرآنية في العهد الأستعماري




الفهارس العامة




المصادر والمراجع

فهرس القواميس والمعاجم

فهرس الدوريات والرسائل

فهرس الملاحق